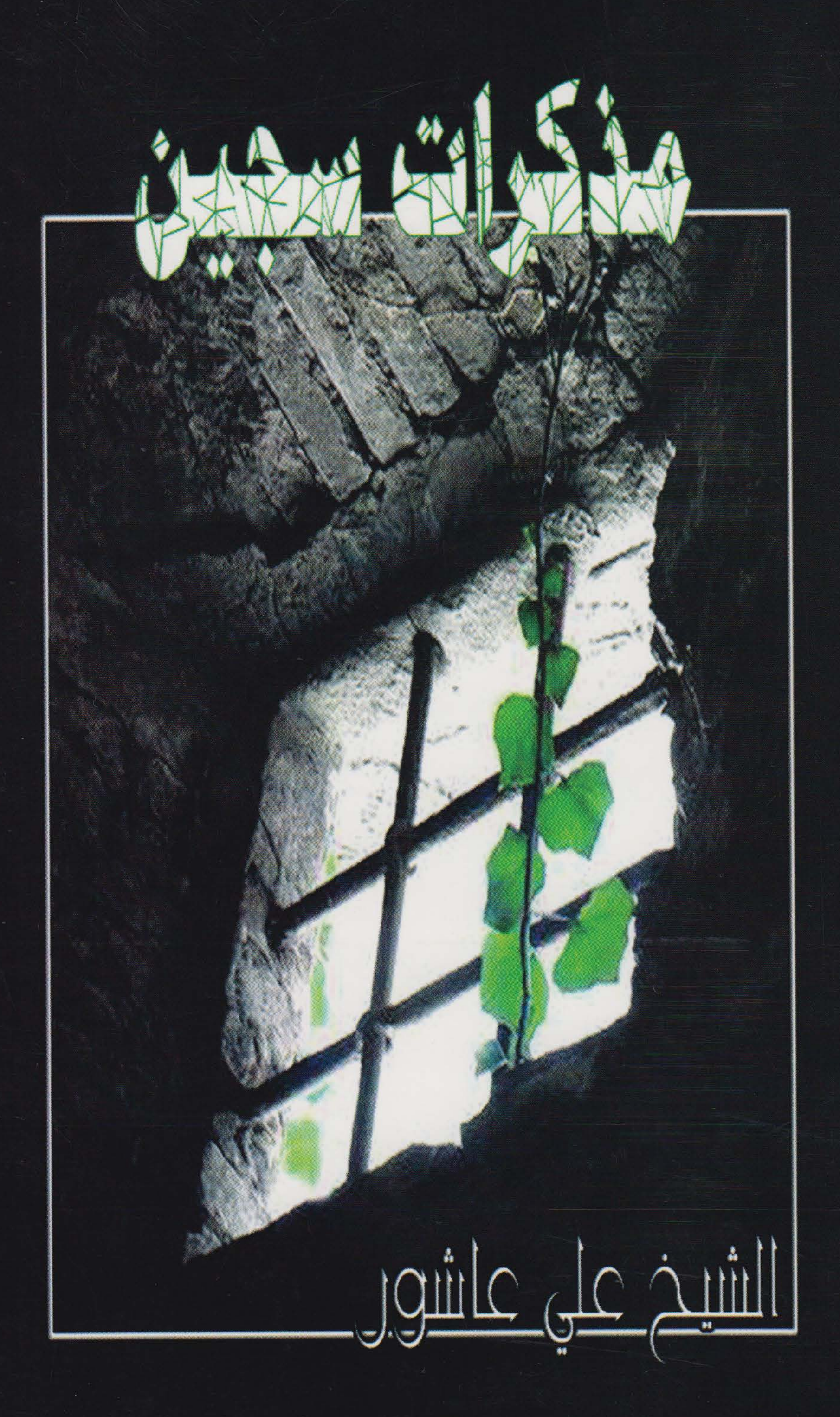

مذكرات سجين
الشيخ علي عاشور

مذكرات سجين



مذكرات سجين

الشيخ علي عاشور

دار العصمة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

دار العصمة/كتب - قرطاسية - ترجمة - طباعة - خدمات أخرى

مملكة البحرين - السنابس

daralesmah@hotmail.com – ٠٠٩٧٣/٣٩٢١٤٢١٩ – ٠٠٩٧٣/١٧٥٥٣١٥٦

إهداء..

لمعصم الأيام الحرة التي كان القيد سوارها...

تقريظ الأخ ماهر عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

لن أقول أن الكاتب "سماحة الشيخ العزيز" أثر بي وجعل مني أعيش مع سرده معاناته وتضحيات شعب بأسره فحسب،

بل سأقول إنه أدخلني لغياهب السجون حتى وكأن جوارحي قد استبسلت بالدفاع عن عذاباته وجراحات المستضعفين من إخواني،

وكم تسلقتُ لقطف الرياحين التي زرعها بقضبان نافذة زنزانته.

وكأنني قد خرجتُ لحظة الإفراج عنه عنه وكفي تسبقني لأكون أول من يتلقى شموخ جبهته المقدسة،

ولأضُم صبره وإحتسابهُ الذي ألهمني إياه طيلة فترة " بقائي معه " بين القضبان بقراءتي لمذكراته التوثيقية التاريخية.

ولعَمري كأنني به قد هنأني أيضًا بسلامة عودتي للنور

بعد طول بقائي بالقمطرير...

لهذا.. لن أقول أنني قرأت مذكراته..

بل سأقول:

أنني كنتُ سجين معه..

جمعت بيننا..

دمعة واحدة..

وقيد واحد..

زُرع في معصمين...

ماهر عباس - أبوفرات

١١ مارس ٢٠٠٨

مقدمة الكاتبة الكويتية

خولة القزويني

بسم الله الرحمن الرحيم

في الواقع إن ما قرأته غمرني بالدهشة فنسيت أني أقرأ بعين ناقدة، فأحداث القصة هزتني من الأعماق، ودفعتني إلى استباق الصفحات لأتابع بشغف أحداثها الدامية، وقد أبكتني معاناة كابدها أخوتنا المؤمنون في البحرين، فهنيئًا لهم تلك الروحية الحسينية والعقيدة المحمدية الأصيلة.

هذه المخطوطة أشبه بمذكرات موثقة بزمن ومكان محددين، وهي في مجملها أقرب إلى القصة منها إلى الرواية، وأيًا كان مبناها الخارجي فهي تعبر عن تجربة إنسانية ثرية.

والملاحظ أن الكاتب لم يستغرق في الوصف والتحليل

والتعمق في شخوص القصة، بل جاء يختزل المشاهد في مسار ثابت ورصين، ويَحبك الأحداث بشكل درامي مؤثر محافظًا فيه على الأجواء النفسية للأبطال، فأعطى للفكرة مصداقيةً واندفاعًا مشوبًا بحرارة عاطفية يستلهمها أي قارئ متذوق للأحاسيس الإنسانية، فقد صاغ الفكرة الأساسية للقصة بإيمان نضج بتعبيراته الصادقة والشفافة دون تكلف وافتعال، وهذا ـ في ظني ـ هو الأهم لكاتب القصة أو الرواية.

فالاستغراق في جماليات التعبير - بشكل مبالغ فيه - وتزويق العمل الأدبي بالصور البلاغية المكثفة قد لا يخدم القارئ أو الشريحة الأكبر من القراء؛ لأنها تبعث فيهم نوعًا من الملل وهم بصدد المتابعة الشيقة لبلوغ النهاية.

باختصار ـ وبصرف النظر عن الجوانب الشكلية ـ يبقى المضمون هو الأهم، فهي في ظني قصة واقعية بأسلوب مباشر واضح يمس شغاف قلب كل إنسان مؤمن حي الضمير، كُتبت بقلم صادق يستحثه هدف نبيل، فتستحق هذه القصة أن تكون مشروعا ناجحًا ومميزا يغذي في القارئ قيمًا إيمانية سامية.

فكل كاتب أمين على قلمه يستوعب رسالة أمته، ويعتقد

أن صياغة أي تجربة إنسانية بقالب أدبي هو في الواقع إثراء حقيقي للأمة.

والحمد لله رب العالمين.

خولة القزويني

ابريل ٢٠٠٧م

السكّيتي!

هكذا يصفه الجميع لشدة هدوئه ، وكل من يراه ـ وللوهلة الأولى ـ يعرف مدى خجله المفرط الذي منعه من التمتع بأدنى حقوقه، وعلى قاعدة (فاز باللذات من كان جسورًا) فقد خسر الكثير من الامتيازات، فقد عُرف منذ صغره بجديته وعدم ميله للعب واللهو، بل لم تعرف نفسه طريقًا للمزاح واللعب كشأن بقية أقرانه وأندداه، حتى بلغ الأمر إلى شدة تأنيبه ومعاتبته من قبل أصدقائه لاعتقادهم بأنه لا يفضل اللعب معهم، فقد كان بطبعه يميل للتجهم بعض الشيء وعدم التبسم في وجوه الآخرين ظنًا منه أن الحياة كلها جد، شكاه أكثر من صديق لطبعه القاسي، والذي تسبب في إحراج الكثيرين، فكان جوابه بأن طبعي هكذا، فأنا لا أجيد الضحك.

ارتبط في علاقاته بمن هم أكبر منه سنًا، وهذا ما زاد من خبرته في الحياة، سكن مع والده في بيت العائلة الكبير الواقع في

أدنى البلاد القديم، وتحديدا ما يعرف بـ(فريق البرية)، وهو الجزء المتاخم لقرية الزنج، إلا أنه قضى فترة صباه في ممرات وأزقة منطقة الخميس وشعابها، وبصورة عملية فقد فارق الخميس منذ ما يزيد على خمسة عشر سنة من الزمان، وربما يزيدون، إلا أن لمنطقة الخميس ذكريات لم تخرج من رأسه، فقد عاش هناك أولى أيام البراءة وأولى أيام الصبا والمراهقة، ويكمن سر عشقه وحبه لتلك المنطقة ـ على الرغم من أنه لا يقطنها ـ في أنها هي المنطقة التي صنعته!! وهي التي صاغت منه شخصيته، بل وكان لها الفضل الكبير في تكوين ثقافته وأفكاره، ولا غرابة في ذلك، فقد نشطت الخميس في عقد الثمانينات من بين مناطق البحرين حتى أطلق عليها مؤخرًا: (شرارة الانتفاضة)، في إشارة لاندلاع المواجهات في المنطقة ذاتها على خلفية اعتقال الشيخ علي سلمان، والتي أدت لتزايد رقعة الانتفاضة على مستوى البحرين بأكملها، ولا يخفى بأن الخميس في تلك الفترة كانت تعج بذروة النشاط الثقافي والفكري والسياسي على حد سواء؛ لذلك فهي مضرب المثل لكل قرى ومناطق البحرين، فهي المنطقة الأولى التي شهدت المسيرة النسائية التابعة لموكب العزاء الحسيني، كما أن شبابها في تلك الفترة أكثر نهضة وحركة ووعيا وحماسا من شباب منطقة شرق، ويكفي في ذلك شاهدا خلو منطقة شرق بأسرها من صلاة

جماعة واحدة، في حين أنه يوجد في منطقة الخميس آنذاك أكثر من صلاة جماعة وبشكل منتظم، عدا الحركة الثقافية في المنطقة، لكل تلك الأسباب بدأت علاقته ـ على الرغم من فارق العمر ـ بالسيد جميل السيد كاظم عضو المجلس البلدي السابق (بانتخابات ٢٠٠٢م) وعضو مجلس النواب لانتخابات ٢٠٠٦ م) ، والسيد علي السيد جمعة، والدكتور محمود الشيخ رئيس مجلس أمناء الصندوق الخيري للبلاد القديم والزنج والصالحية وعذاري، فقد كان يرى في هذا المثلث قدوته الحسنة، والمثل الأعلى، والأسوة الصالحة، استقى جميع معارفه الدينية وسلوكياته الأخلاقية ـ وربما بما تعرف في فقه السياسة اليوم بالتنظيمية ـ من هذا المثلث، منذ صغره عرفه الجميع بمدى استقامته وتدينه الشديدين، في وقت أضحت سمة التدين نقطة يعاب عليها الشاب!! التصق بصورة شديدة بصلاة الجماعة في مسجد الجمالة الواقع بمنطقة الخميس، ولا يخفى مدى الضغط والإرهاب العائلي لكل من تسول له نفسه حضور مسجد الجمالة، وأكثر من ذلك، فلم يكن ليفوّت صلاة الفجر في مسجد المدرسة على الرغم من البعد النسبي بين المسجد ومنطقة البرية وما يشكّله الخروج في ذلك الوقت لمثل سنه من خطورة، إلا أنه من أحرص الحاضرين لصلاة الفجر بمسجد المدرسة؛ لأنها لم تكن مجرد صلاة فحسب، بل هي محطة للتعبئة

الروحية عبر قراءة دعاء العهد الذي تتخلله العبرات الصادقة، وكذا دعاء الصباح ودعاء الندبة للإمام صاحب العصر والزمان ـ روحي لمقدمه الفداء ـ في أيام الجمعة، وهو ما كان له أكبر الأثر في صقل شخصيته وابتعاده عن أجواء الهزل والمزاح، هذه هي حقيقته التي لم يستوعبها أصدقاؤه في حينها، نعم، إنها شخصيتي أنا.

المرحلة الإعداديّة

« ١٩٨٢- ١٩٨٤ م »

تمّ إعدادي دعويًا بشكل مبكّر، وكنت مهيئًا لدخول ميادين العمل الإسلامي، تم ترشيحي لحضور جلسات إدارة العمل الإسلامي في المنطقة، وهو الأمر الذي تحظره قوانين الدولة وتعتبره بمثابة التنظيم السري، والذي لا يجوز بأي حال من الأحوال للأفراد المشاركة فيه، وإذا ما وضعنا في الاعتبار الحرب العراقية ـ الإيرانية في تلك الفترة، فهو ما يعني شدة وقساوة جهاز أمن الدولة، وإن أنظار المخبرين تلاحق الكوادر الواعية والقوى الإيمانية الناشطة في مجال التدريس والعمل الديني، خاصة ممن يرجعون في تقليدهم لروح الله الخميني، اشتد هذا الخناق بعد مداهمة مقر جمعية التوعية الإسلامية بالدراز وإقفاله بالشمع الأحمر بعد اعتقال غالبية مجلس إدارته، وهو الحدث الأبرز على الساحة البحرانية آنذاك .

في خضم تداعيات ذلك الحدث، بتنا لا نجد مكانًا لعقد جلسات إدارة العمل الإسلامي بسبب الملاحقات الأمنية نتيجة لخطورة وتدهور الوضع الأمني، الأمر الذي حدا بنا للتسلل لواذًا إلى موقع الجلسة الأسبوعية، والذي نقوم بتغييره في كل أسبوع منعًا لإثارة الانتباه ، وكذا الحال عند مغادرة الموقع ، فإننا نسلك طريق الممرات الضيقة وبشكل أحادي.

في هذا الوقت بالتحديد ـ وفي تلك الظروف المعقدة ـ برزت مشكلة الأصولي والإخباري في المنطقة، وجرت حملة واسعة تكفيرية لكل من الطرفين! فأتباع المدرسة الأصولية يقللون من شأن المدرسة الإخبارية، وفي الطرف المقابل فإن أتباع المدرسة الإخبارية قاموا بحركة تمشيط واسعة تركزت في منطقة شرق وعلى فئة صغار السن، ولكل من يعرفونه بأنه يقلد أحد المراجع الأحياء آنذاك -كالسيد الخوئي، والإمام الخميني- يقومون بإقناعه للعدول إلى أحد المراجع الأموات من المدرسة الإخبارية كالشيخ حسين العصفور والشيخ يوسف البحراني ، وهو ما دعا لتأزم العلاقة بين الطرفين، جرت عدة جلسات تحاور وتفاهم في المسألة بين كبار عقلاء القوم إلا أن صغار القوم والعقول كانوا يفسدون ذلك الصلح بالتعدي على مقام المرجعية! وأحيانًا بثقافة تطهير البلاد القديم من تقليد السيد الخوئي والإمام

الخميني، وبحسب دعواهم: لأن تقليدهم غير مبرئ للذمة! وأخرى بتنظيف المساجد من الرسائل العملية الموجودة واستبدالها بكتاب سداد العباد -وهو الرسالة العملية للشيخ حسين العصفور- أو الرسالة الصلاتية للشيخ يوسف البحراني.

تطورت المسألة لحد التشابك بالأيدي، وقد فشلت جميع مساعي الصلح والتهدئة من قبل عقلاء القوم من الطرفين، فالحرب التكفيرية قائمة على قدم وساق، وكلٌ يتهم الطرف الآخر! والأمر المحزن المضحك أن إحدى جلسات التفاهم والصلح امتدت لساعة متأخرة من الليل، وبسبب رصد حركة المؤمنين من قبل أجهزة المخابرات تم اعتقال صاحب المنزل بعد ساعة واحدة فقط من انصراف القوم، وقد تم توجيه تهمة رسمية بحقه تحت عنوان تنظيم اجتماعات سرية ومغلقة بهدف زعزعة أمن البلد ومحاولة إثارة القلاقل والتحريض على كراهية نظام الحكم! كان الوقت قريبًا من الفجر فلم يتم التحقيق معه وتوجيه التهمة له إلا بعد تعليقة الفلقة! هكذا كانت أساليب المخابرات، التعليق والضرب أولا والتحقيق ثانيًا، بعد هذه الحادثة اقتنع الجميع بضرورة توحيد الصفوف وتجميد الخلافات.

وقديمًا قالوا: رب ضارة نافعة..

الآلة الكاتبة

في نهاية المرحلة الإعدادية لم أتحير كثيرا في اختيار المسار الذي سأدرسه في المرحلة الثانوية؛ إذ حسمت أمري برغبتي في الاتجاه للدراسة الحوزوية، إلا أني لم أعرف ما هو المسار الذي سيخدم دراستي الحوزوية، استشرت مجموعة من رجال الدين، وعلى رأسهم المرحوم سماحة السيد أحمد الغريفي، فوجهوني لدراسة المسار الأدبي لاحتوائه على مواد الفلسفة والمنطق والبلاغة العربية، وكلها مواد تدخل في الدراسات الحوزوية، فرحت كثيرا بتلك المواد وأحببتها لدرجة أني كنت أقوم بتحضير دروسها من الكتب الحوزوية، وفي المواد التخصصية اخترت الأعمال المكتبية لاحتوائها على مجال الآلة الكاتبة، فكنت أحضر خمس حصص أسبوعيا في الآلة الكاتبة، حصتان إلزاميتان تابعتان لمادة الأعمال المكتبية، وثلاث حصص كنشاط اختياري تابع للمجالات العملية، كان زملائي الطلبة يتسربون من المدرسة في حصة الآلة الكاتبة لكونها ثلاث حصص متتالية، فكانوا يكتفون

بحصة واحدة فقط، أحببت الضرب على الآلة الكاتبة حتى أتقنت مواقع الحروف على الآلة بدون النظر إلى أزرار الآلة الكاتبة في وقت قياسي وقصير، وقد أحرزت شهادة الامتياز في اختبار الآلة الكاتبة.

في هذا الوقت بالتحديد كنت أعطي دروسًا في المفاهيم الدينية بالمدرسة الأهلية لتعليم القرآن الكريم بالبلاد القديم، التقاني الأخ عاشور -وهو عضو الهيئة التعليمية بالمدرسة الدينية- وطلب مني طباعة ورقة، وقد كانت عبارة عن خطاب سياسي مناهض للدولة، فقلت له: عليك توفير الآلة الكاتبة وبدوري أقوم بالطباعة، بعد يومين سلمني حقيبة أنيقة صغيرة وقال لي: إنها آلة كاتبة محمولة، وهي لا تثير الانتباه؛ قال ذلك لأن امتلاك الآلة الكاتبة آنذاك كان يحتاج لترخيص مسبق من وزارة الداخلية، استلمت الحقيبة وأنا في غاية السعادة؛ إذ أنني سأمارس هوايتي المفضلة بكل حرية في المنزل، وفي وقت قياسي أنجزت طباعة الخطاب السياسي، وكان مليئًا بالتحريض على نظام الحكم، سلمت الورقة للأخ عاشور وسلمته حقيبة الآلة الكاتبة أيضا، وفي غضون ساعات معدودات وجدت المنشور ذاته -والذي قمت بطباعته- منتشرا في جميع مساجد البلاد القديم، دققت فيه فوجدته هو بنفسه وبعينه وبنفس التنسيق والترتيب الذي قمت به بدون زيادة أو

نقصان! وسريعًا ما كانت المنشورات تتوزع كسرعة البرق الخاطف، وفي غضون يومين -وفي حملة واحدة- اعتقل كل من السيد جميل السيد كاظم، والسيد علي السيد جمعة، والدكتور محمود الشيخ، وحمزة حسن جاسم، ومجموعة أخرى من الشباب يربو عددهم على العشرة، فعرفت أن الدور آتٍ ولا بد من الاستعداد وتنظيف البيت من كل الأوراق المشبوهة، كنت أتابع حركة الاعتقالات أولاً بأول في ترقب لدوري، التقيت بعاشور وسألته عن حكاية المنشور فقال لي: حالي حالك، ثم أضاف قائلا: لقد طلب مني أحد الإخوة طباعة المنشور ولا أعلم لماذا، فوجدتك أقرب شخص من الممكن أن يؤدي هذه المهمة على أكمل وجه، وقد تفاجأت مثلك بانتشاره في المساجد! فقلت له: ومَنْ هي الجهة التي طلبت منك ذلك؟ فاعتذر عن الجواب قائلا: من المصلحة الاحتفاظ بهذا السر حاليا، نظرت إليه مليًا ثم سألته: وكيف سأتصرف حالة الاعتقال؟ فقال: الصبر والصمود هو الحل الوحيد.

***

في نهاية الأسبوع - وبعد رجوعي من المدرسة- وجدت سيارات المخابرات ومباحث أمن الدولة تحوط بالمنزل وقد ضربوا طوقًا أمنيا مشددا عليه؛ وذلك لمنع أي شخص من الدخول أو الخروج من المنزل، تمالكت أعصابي وقرأت آيات الحفظ ودخلت المنزل وأنا أقرأ آية الكرسي، فوجدت مباحث أمن الدولة قد انتشرت في جميع الغرف بغرض التفتيش، وجدت نفسي أمام رئيس حملة التفتيش المقبور المدعو بعبد النبي، وقد كان برتبة رئيس عرفاء في حينها، قال لوالدي: أهذا هو علي عاشور؟ أجبته: نعم، اقتادني لغرفتي واستلم مني كتبي المدرسية التي كنت أحملها وقام بتقليبها، كما راح يعبث بأدواتي وما يخصني من محتويات الغرفة، وقد صادر مني رزمة ورق الآلة الكاتبة الخاص بالطباعة ومجموعة أخرى من الورق المطبوع بالمدرسة، وهي عبارة عن موضوعات دينية متفرقة تعمدت تركها بهذه الطريقة، طلب مني التوقيع عليها لإثبات ملكيتي لها، لم تطل المسألة لأكثر من نصف ساعة ثم طلبوا مني مرافقتهم لمبنى المخابرات.

لحظة خروجي من المنزل تسمرت أختي التي تصغرني سنًا في مكانها خوفًا على مصيري، حاولتُ الاقتراب منها لتهدئة روعها فنهاني رئيس العرفاء وسحبني من يدي وقال لي بصوت هامس: أنت الآن في وضع لا يحق لك الالتقاء بالآخرين، أفهمت؟

قلت له: واضح، خرجت من المنزل بدون أن يسمح لي بتوديع الأهل، وعند الثانية ظهرا – تقريبًا – وصلنا لمبنى المخابرات.

أدخلوني عبر البوابة الإلكترونية ذات الأعمدة المتشعبة، والتي لا تنفتح إلا بالبطاقة الممغنطة الخاصة بعناصر أمن الدولة، أصعدوني من السلم وطلبوا مني أن أنظر تحت قدميَّ أثناء المشي بدون أن أرفع رأسي، وبدون أن أشعر وجدت نفسي في الطابق الرابع أمام مكتب٤٧، خرج عادل فليفل ـ وكان برتبة نقيب في حينهاـ وسألني: أين طبعت الأوراق التي ضبطناها في غرفتك؟ قلت له: في المدرسة، فقال بانفعال: أنت تكذب يا علي عاشور، وقد غاب عن ذهنه أنه بالقسم الأدبي توجد شعبة الأعمال المكتبية وبها ندرس الآلة الكاتبة كمادة إلزامية، فقلت له: طبعتها في مدرسة الشيخ عبد العزيز وعلى الآلة الكاتبة الخاصة بالمدرسة، بادرني سريعا بالسؤال: ما اسم الآلة التي تستعملونها؟ فقلت له: اسمها الممتازة، استدعى أحد عناصر أمن الدولة وطلب منه التحقق من ذلك عبر الأوراق التي ضبطوها بغرفتي، عندها فهمت أن لكل آلة كاتبة رمزا خاصا يميزها عن غيرها، وهذا هو السر الذي دعا وزارة الداخلية لفرض التراخيص المسبقة عند شراء الآلة الكاتبة ليمكنهم التعرف على مصدر أي ورقة تطبع عبر الرمز الخاص، والذي من خلاله يتم التمكن إلى صاحبهم المطلوب، بعد لحظات جاء

التأكيد من عضو مباحث أمن الدولة أن الأوراق مطبوعة على الآلة الممتازة، بعد ذلك أخرج لي المنشور الذي طبعته وغرس عينيه في عيني ورمى الأوراق في وجهي وقال لي: اقرأ، ترددت في قراءته، فقال لي: اقرأ، اقرأ جيدا، تظاهرت بالقراءة، أعطاني المهلة الكافية لقراءته ثم سحبه من أمامي وقال: من أعطاك هذا المنشور؟ وقبل أن أجيبه أردف قائلا: لا تقل بأنك وجدته في المسجد، العب غيرها، قلت له: لم يعطني أحد هذا المنشور، وبدت منه حركة نمت عن نفاذ صبر وقد امتلأ غيظًا وقال: تكلم وإلا دفنتك في الأرض التي تقف عليها، أطرقت برأسي للأرض وأنا أتصنع الجهل، لم يتمالك أعصابه، وقام من مكتبه ووقف قبالتي، وقال: هل ستتكلم بالطيب أو أرغمك على الكلام؟! فقلت له: أتحدى أي شخص يقول أني أعطيته أو أعطاني هذا المنشور، قلت هذا الكلام لعلمي بأن عاشور لم يطله الاعتقال، خلع حذاءه وانهال علي ضربا ذات اليمين وذات الشمال وقال: الآن سأفقأ عينيك بمن أعطيته المنشور، يا عبد النبي، أحضر الشاهد، قالها وأنا لا أكاد أصدق.

بدأت أفقد توازني لذلك الخبر، لم أصدق ما سمعته، إنه ضرب من ضروب المستحيل، في هذه الأثناء وأنا أراجع حساباتي وأرتب أفكاري وصل أحد أصدقائي القدامى وكان مرتبكًا، سأله عادل فليفل: من الذي أعطاك هذا المنشور؟ فأجابه بصوت مرتعد:

علي عاشور أعطاني إياه وهو يشير بإصبعه لي!

دهشت وأنا أتفحص في وجهه وقد أخذني العجب! فأنا على ثقة بأني لم أتبادل مع أي أحد هذا المنشور، وكنت واثقًا من سلامة موقفي، وبأني سأخرج منتصرًا من هذا الموقف لعدم توافر أدلة الإدانة ضدي، إلا أن صاحبي فاجأني بذلك الاعتراف غير المتوقع، آخر ما كنت أتوقعه أن تنتهي القصة بهذا الشكل المفاجئ، فقد قام بإرباك جميع حساباتي ونثر جميع أفكاري التي رتبتها، وباتت إجاباتي التي جهزتها في ذهني للدفاع عن نفسي غير صالحة؛ فقد دخل عنصر المفاجأة غير المحسوب.

أمسكني عادل فليفل من كتفي وهزني بعنف قائلاً: أريد كشف زيفك وكذبك، فقلت له ـ بدون تردد ـ: لعله اعتراف تحت وطأة الابتزاز والتهديد، استشاط فليفل غيظًا وصرخ في وجهي قائلاً: هل تتهمني بالتعذيب؟!! الآن سترى النجوم في عز الظهر، وستندم على كلامك هذا، أعطى أوامره للمباحث الذين أحاطوا بي كالحلقة لتعليقي، تقدم أحدهم من دون مراعاة لحداثة سني وأمرني بالجلوس على الأرض بعد أن أحاط معصمي بالقيد الحديدي، صحيح أنها قيود لامعة –ويبدو عليها جليا أنها من صنع الولايات المتحدة الأمريكية– إلا أنها مؤلمة!

تقدم الآخر وطلب مني ضم ركبتي إلى صدري، ثم قام بإدخال خشبة التعليق الدائرية الشكل تحت ركبتي، حملني مع صاحبه من خلال خشبة التعليق بطريقة أشبه ما تكون بتعليق الذبيحة من يديها ورجليها سوية، فكانت بطني مقابلة للسماء وظهري للأرض، منذ الدقيقة الأولى شعرت بأثر القيد الحديدي يضغط على عظم الرسغ، وفي محاولة لوصولي لذروة الألم قام أحد المباحث -الذين يستمتعون بمنظر عذابات الإنسانية- بهزي وترجيحي وأنا في حالة التعليق مما تسبب في احتكاك خشبة التعليق مع العظم بلا رحمة، وكل من جرب التعليقة يعرف أن وزن الجسم بأكمله يقع على عظم الرسغ عبر تلك الخشبة المدورة الشكل.

شعرت بالغثيان نتيجة انحسار الدم عن منطقة الدماغ والرأس وتجمعه في منطقة البطن ووسط الجسم، لم تزد مدة التعليق عن ١٢ دقيقة تقريبا وما أطولها من دقائق تجمدت فيها الثواني، إلا أني شعرت خلالها بالتنميل والخدر في اليدين والرجلين.

أنزلوني من التعليقة ورجليّ لا تحملان جسمي النحيف، فقدت القدرة على الوقوف، صرت أحبو على وجه الأرض

للوصول للكرسي، تقدم إلي أحدهم وطلب مني تحريك رجْليّ لتنشيط حركة الدم الذي انحسر عنهما، في هذه الأثناء طلب فليفل من عناصر المباحث إيداعي في زنزانة الحجز وإعطائي مهلة ٢٤ ساعة للاعتراف وإعادتي ثانية لمواصلة سير التحقيق.

أنزلوني عبر المصعد الكهربائي لموقع الزنازين، وهي زنازين مخصصة للمعتقلين الذين لم ينهوا فترة التحقيق، أودعوني في الزنزانة رقم٢، كانت زنزانة ضيقة بالكاد تكفي لتمديد الرجل المتنملة والمتخدرة حالة الاسترخاء، ألقيت بجسمي المنهك على الأرض، وكلما نظرت في سقف الزنزانة وجدت معها نجوم الظهر التي وعدني برؤيتها وقد وقد أوفى بوعده..

بعد أن أقفل الشرطي البوابة الرئيسية لمدخل الزنازين سمعت صوتا يناديني باسمي! عرفته من صوته المميز، إنه السيد علي السيد جمعة، وقبل أن أرد عليه، سمعت صوت السيد جميل السيد كاظم في الزنزانة التي تليه، ومن بعده سمعت صوت حمزة حسن جاسم في الزنزانة ما قبل الأخيرة، سألتهم: ومن يكون في الزنزانة الرابعة والأخيرة؟ أجاب أحدهم على سبيل الدعابة: هي بانتظار من ستعترف عليه!!

أخبرتهم بتطورات الوضع وتفاصيل قضية طباعة المنشور

من ألفه إلى يائه، كما أخبرتهم عن قضية توريطي في اعتراف لا علاقة لي به!

في صبيحة اليوم الثاني كنت بانتظار تكملة التحقيق معي على خلفية الاعتراف ضدي إلا أن فليفل تجاهلني ولم يقم باستدعائي، وفي اليوم الثالث قام باستدعائي، وكان هادئًا بعض الشيء، طلب مني الجلوس على الكرسي المحاذي للمكتب، حاول الحديث معي بشكل ودي معللا ذلك بأنه يريد إنقاذي ومساعدتي شريطة مساعدته في التوصل لرأس الخيط في القضية لرفع التقرير لمدير المخابرات بإغلاق ملف القضية، قلت له: بأي شيء أقسم لك بأنه لا تربطني أية علاقة مع الشخصية التي أحضرتموها للشهادة ضدي ؟!! صرخ في وجهي قائلاً: أنت لا تستحق الاحترام، وطلب مني الوقوف بإزاء الجدار. رفع سماعة الهاتف بعصبية وطلب من المباحث إحضار العدة، وهي كلمة تشير لمعنى أدوات تعليقة الفلقة! وفي لحظات بسيطة كانت العدة جاهزة على المكتب، وتم تقييدي وتعليقي ثانية، شعرت بأن أعصاب يدي قد تهتكت نتيجة احتكاك القيد الحديدي بعظم الرسغ.

وجدت أن المسألة ستطول، خاصة مع إصرار الشخصية التي اعترفت ضدي ، فقد كنت أترقبه خلال اليومين الماضيين

ليغير أقواله ويعدل إفادته بشأن شهادته ضدي، وجدت بأن جميع الوسائل والطرق والأساليب لن تنفعني طالما كان اعترافه من أقوى الإدانات التي ستثبت ضدي، فطلبت منهم إنزالي للاعتراف.

اعتدل عادل فليفل في جلسته وقال لي: كنت واثقًا بأنك ستعود لرشدك، أشار للكرسي طالبًا مني الجلوس، فقد كان أقصى ما يتوقعه فليفل من اعترافي إخباره بالجهة التي زودتني بالمنشور، إلا أني فاجأته بأني أمتلك مفاتيح اللغز الذي يبحث عنه، وأني رأس الحربة والخيط الذي أتعبه، حاولت تبرير موقفي بأني قمت بطباعة المنشور كهواية مسلية دون النظر لتبعات القضية ومن دون علمي لعواقب ما ستؤول إليه القضية من تطورات، خاصة مع جهلي بنية توزيعه وترويجه، كنت مضطرًا للاعتراف باسم عاشور.

فرح فليفل كثيرا بحديثي فرفع سماعة الهاتف طالبًا إحضار كأس ماء بارد وكوب حليب مع النسكافة، وأمر المباحث الذين قاموا بتعليقي بتقديمهما لي!! ولا غرابة في ذلك فهم عبيد الأوامر.

سألني فليفل باستغراب، ولم اعترفت ضدك تلك الشخصية وأنت بريء من ذلك العمل ؟! أجبته: لا أعرف، خرج لبضع دقائق من مكتبه ثم عاد وبرفقته ضابط بريطاني، وراحا

يتكلمان عن تفاصيل الحادثة، وقد فهمت من خلال حديثهما بأنهما كانا يتوقعان أن تكون خلف العملية شبكة كبيرة لها علاقة بالخارج، وبالوصول لرأس الخيط فإن الموضوع لا يستدعي ذلك الاستنفار الأمني.

في نهاية حديثهما قام الضابط البريطاني بتوجيه بعض الأسئلة التي تتعلق بمدى ارتباطي بالتيار الشيرازي وجبهة تحرير البحرين؛ إذ تبين أن المنشور الذي قمت بطباعته كان عبارة عن خطاب سياسي شديد اللهجة للسيد هادي المدرسي، وفي نهاية الجلسة طلب مني فليفل مرافقة مباحث أمن الدولة لإرشادهم لمنزل الأخ عاشور، لم يكن من المعقول بأني أجيبهم بأني لا أعرف منزله فرافقتهم لاعتقاله وأنا أعلم بأنه سيجر وراءه مجموعة أخرى، أوصلتهم لحدود البيوت المحيطة بمنزله، وبتعرفهم على المنزل جيدًا أوصلوني لمركز شرطة الخميس وأودعوني هناك كوديعة مؤقتة لحين إتمام عملية اعتقال عاشور.

وبعد ساعة من الزمن استلموني ثانية من مركز الخميس وأعادوني للزنزانة رقم٢، أخبرت الإخوة بالأمر وأن عاشور في طريقه إلينا، وبحسب المنطق والعقل لم يكن أمام عاشور سوى الإدلاء بالحقيقة، لا سيما بعد اعتقالي، وقد حرصت أثناء التحقيق

معي على تأجيل عملية الاعتراف لكي يرتب عاشور نفسه تحسبًا لأي اعتقال محتمل، وقد نجحت في ذلك، فلم يتفاجأ عاشور بالاعتقال، وبحسب التسلسل في الاعترافات فقد ورد اسم –صاحب الآلة الكاتبة المحمولة- ضمن اعترافات عاشور، وقد صدر الأمر باعتقاله ومصادرة الآلة الكاتبة التي بحوزته؛ إذ تبين أنها غير مرخّصة، إلا أنهم أفرجوا عنه في نفس اليوم.

وقد انكشف لي فيما بعد أن صاحب الاعتراف هو مَن طلب من الأخ عاشور بتكليف من يقوم بطباعة المنشور، وبدورها قامت مباحث أمن الدولة بإعادة اعتقاله مرة ثانية ومواجهته بعاشور حين اعتقاله ثانية، وبمواجهته بعاشور اعترف بذلك واعترف بأن الشيخ (ز –ح) هو من خطط لهذه العملية برمتها.

بعد اكتمال خيوط العملية ـ وبدخولنا الأسبوع الثاني ـ قام فليفل بالإفراج عنا جميعا باستثناء صاحب الاعتراف والشيخ (ز –ح) ؛ فقد أحالوهما للمحكمة التي حكمت على الأول بعام كامل بتهمة الترويج لمنشورات تحرض على كراهية نظام الحكم، بينما حكم على الشيخ (ز –ح) بخمس سنوات بتهمة الانتماء التنظيمي لجبهة تحرير البحرين.

شهادة سوابق سياسيّة

تمّ تصنيفي في سجلات المخابرات بأني من أصحاب السوابق السياسية، فقد فُتح لي ملفٌ باسمي ترصد فيه تقارير المخبرين بشأن تحركاتي وسكناتي، وهو ما يجعلني عرضة للاعتقال في أي وقت؛ إذ حظيت بزيارة مبنى المخابرات لعدة مرات، وكانت آخر تلك الزيارات على خلفية المسيرات النسائية التابعة للموكب العزائي.

في بداية الأمر اعتقل السيد علي السيد جمعة مع السيد جميل السيد كاظم ومجموعة شبابية أخرى، تم التحقيق مع السيدين وقد نسبت إليهما تهمة التخطيط والتنسيق للمسيرات النسائية، ثم أفرج عنهما في نفس اليوم وطلب منهما الحضور في اليوم الثاني على أن يبلغاني مع الأخ حمزة حسن جاسم بضرورة الحضور معهما في اليوم التالي، عند الساعة السابعة وعشر دقائق صباحًا وصلنا لمبنى المخابرات وقد طلب منا الحضور عند السابعة

صباحا، استقبلنا رئيس حملة التفتيش بتحية الصباح المليئة باللكمات والصفعات وهو يصرخ في وجوهنا: لماذا تأخرتم؟ أخبرناه أن سبب التأخير هو عدم توفر مواقف السيارات، لم يقبل التبريرات التي سقناها له واتهمنا بعدم احترام المواعيد، قائلا: أنتم هنا في مباحث أمن الدولة ولستم في دائرة الجوازات!

جلسنا في قاعة الانتظار لمدة تزيد على الساعتين تقريبا، بدأ التحقيق باستدعاء السيد علي السيد جمعة، وعند نهاية الدوام الرسمي استدعاني فليفل وقد اكتفى في هذه المرة بأن يريني السيد علي السيد جمعة وهو ملقىً على الأرض بين الإغماء والإفاقة، وقد كان إلى فقدان الوعي أقرب، كانت أطرافه ترتجف، وكان يتنفس بصعوبة بالغة، ممتقع اللون، مهزوز الملامح، فلقد كان مشهدًا مريعًا...

أخبرني فليفل بأنه أصيب بذلك نتيجة عدم تحمله لتعليقة الفلقة، أصابني الذهول والذعر لذلك المنظر، سألني فليفل: هل تريد أن تصل لهذا المستوى؟ هويت بنظري إلى الأرض ولم أجبه بشيء، ثم أضاف: سأعطيك فرصة أخيرة لتخليص نفسك وإثبات حسن نيتك مقابل إعداد قائمة بأسماء الفتيات اللاتي يخرجن في المسيرة النسائية مع تبيين من هي المسؤولة عن تنظيمهن، وقد طلب

من حمزة حسن جاسم ذات الطلب بعينه.

عند خروجنا من البوابة الإلكترونية التقانا رئيس حملة التفتيش وقال لي: سوف أساعدك في الأمر، فلا حاجة لحضورك لمبنى المخابرات!

سأكون بانتظارك عند مسجد أبو خفير - السيد عبدالله - الواقع بأقصى البلاد القديم عند تمام الثامنة مساءً، كما اتفق مع حمزة حسن جاسم على أن يلتقيه في نفس الوقت لنفس الغرض عند مسجد ناصر الدين، وهو المسجد الواقع بمحاذاة مدرسة الخميس الابتدائية للبنين، بالنسبة لي عزمت على عدم لقائه؛ وذلك لأني لا أعمل معهم حتى يقوم بتكليفي بمهمة مباحث أمن الدولة! وليس من مسؤوليتي إعداد القوائم.

كلفت مجموعة من الشباب بمراقبة الموقع في الوقت المحدد للتأكد من وصول مباحث أمن الدولة من عدمه، قاموا بمراقبة الموقع لمدة تزيد على الساعة تقريبا فلم يجدوا أحدا، وفهمت بشكل لاحق أن دوريات مباحث أمن الدولة كانت تقوم بنفس المهمة، أي أنها كانت تراقب الموقع لرفع التقرير حول حضوري أو عدمه، وكذلك الحال مع حمزة حسن جاسم، فإنه قرر عدم الالتقاء بمباحث أمن الدولة للأسباب ذاتها، وفي صبيحة اليوم

التالي كلمني أحد عناصر مباحث أمن الدولة طالبًا مني ضرورة الحضور لمبنى المخابرات على أن أقوم بإخبار حمزة حسن جاسم بالأمر أيضًا.

بوصولنا لقاعة الانتظار بمبنى المخابرات استقبلونا كالعادة بذلك الاستقبال الرائع المفعم بالحفاوة والترحيب اللائق بنا.

صرخ بوجهي رئيس حملة التفتيش -وهو الساعد الأيمن لعادل فليفل-: لماذا لم تأتِ للموقع بحسب الاتفاق؟!!

فلقد انتظرتك ساعة بأكملها!!

لم أستطع أن أنفي عدم حضوره وإلا اتهمني بمراقبة رجال الأمن ومباحث أمن الدولة، قلت له: أمي لم تسمح لي بالخروج!!

كسب رضا الأمهات

استمر نشاطي الديني بالتدريس بالمدرسة الأهلية لتعليم القرآن الكريم بالبلاد القديم، وكنت قد انتخبت في وقت سابق مجموعة من الإخوة تعاهدت معهم على الالتقاء والتواصل خارج المدرسة الدينية بغية العناية بهم عناية دينية مركزة، وكان من أبرزهم السيد جلال السيد إبراهيم، ويوسف عبد الوهاب وأخويه فاضل وعبدالأمير ، وحسين علي أحمد ومحمود حسن أحمد، وحمزة عيد وعقيل عيد والسيد مهدي السيد ماجد، وعلي حسن محسن ومحمد حسن محسن ، بالإضافة لشوقي الغنامي، حرصت على ربطهم بالمسجد وصلاة الجماعة واصطحابهم للفعاليات الدينية أملاً في إعدادهم إعدادا إيمانيا وثقافيا بشكل جيد، استحسن الجميع المقترح وتجاوبوا مع الفكرة، وكنا نلتقي بشكل دائم على هيئة مجموعة واحدة، وقد تطورت علاقتنا، فكان لنا برنامجنا الخاص في المناسبات والأعياد والمواسم الدينية كشَهْرَيْ

رمضان ومحرم فضلاً عن لقائنا بالمدرسة الدينية.

اقترحت عليهم أن تكون لنا جلسة أسبوعية نجتمع فيها لتناول وجبة الغداء بشكل جماعي، لم نتقيد بمكان محدد؛ إذ كنا ننتقل في كل أسبوع لموقع جديد، وفي ظل ظروف الاعتقالات التعسفية التي تعرضت لها عانى الإخوة -كما عانيت- الكثير من المضايقات النفسية بسبب تكتلنا وتجمعنا الأسبوعي، لدرجة أن التهديدات وصلتني بشكل مباشر حالة استمرار علاقتي بهم، وحرصًا مني على تجنيبهم المصادمات مع عوائلهم اقترحت عليهم الالتقاء بشكل سري وبعيدًا عن الأنظار.

نجحتُ بهذه الخطوة بعض الشيء، إلا أنّ التحشيد ضدي -باعتباري من أصحاب السوابق السياسية- كان أقوى بكثير..

في هذا الوقت -وبعد إنهائي للمرحلة الثانوية في العام ١٩٨٧ م - قررتُ السفر للدراسة في حوزة قم المقدسة، إلا أن الظروف كانت غير سالكة بسبب الحرب العراقية الإيرانية، اخترت طريق الهروب من دون إخبار العائلة خوفا من الحيلولة بيني وبين السفر، أخبرتهم بأني مسافر للهند للدراسة، رتبت نفسي ووضعي وأطلعت الإخوة على نيتي الحقيقية وأني مفارقهم للدراسة، كتبت رسالة مفصلة أشرح فيها للوالد والعائلة ظروف هروبي للدراسة،

وقمت بتسليم الرسالة لأخي سعيد عاشور على أن يقوم بتسليمها بعد سفري بعد إعطائه الإذن بذلك، رافقني الإخوة للمطار ليلة سفري -وهي المرة الأولى التي أسافر فيها- وقد أبدى البعض تخوفه من سفري نتيجة صغر سني؛ إذ أني لم أتجاوز الثمانية عشر عاما، طمأنت الجميع بأن أموري ستكون مرتبة وسأكون بخير، ودعت الجميع وسافرت للهند وقد عقدت العزم أن تكون الهند هي المحطة التي تنقلني لحوزة قم المقدسة..

بقيت بحوزة (النجفي هاوس) في بومباي لحين توفيق أوضاعي..

التقيت في خلالها بالشباب الجامعي بمنطقة بونا واكتسبت الكثير من الخبرات والمهارات خلال بقائي هناك، فضلاً عن التقائي بالجالية العراقية مما أتاح لي الفرصة عن قرب في التعرف على التنظيمات والأحزاب السياسية..

الأمر الذي أكسبني المزيد من الخبرة في كيفية التعامل معهم..

في هذا الوقت كان المرحوم عبد النبي السوداني وهو من نشطاء البلاد القديم يلتقيني بصورة دائمة، وقد غيَّر بوصلة سفري إلى النجف الأشرف، استمر لقائي به لأيام عديدة حول الأمر،

وأرشدني لعدة جهات علمائية لاستشارتها في الأمر، في نهاية المطاف سلمت بفكرته بأن حوزة النجف هي الخيار الأنسب لإمكانية عودتي للبحرين بعكس ما لو سافرت لحوزة قم، فإن عودتي للبحرين ستكون مستحيلة، في هذه الفترة رعاني سماحة السيد محمد الموسوي رئيس حوزة (النجفي هاوس)، وهو عراقي الجنسية، وتلقيت على يديه المقدمات وبعض الدروس، وبإكمالي تمام السنة في الهند قام السيد محمد الموسوي بترتيب سفري إلى النجف الأشرف، عدت إلى البحرين قاصدا التوجه للنجف الأشرف.

في هذه الفترة اشتدت وتيرة تخويف المجموعة بضرورة قطع علاقتها بي، وقد كانت تربطني بالسيد جلال علاقة وطيدة ، فلم تنقطع علاقتي به على الرغم من الضغوط النفسية وإرهاب العائلة الذي كان يعانيه جراء استمرار علاقتي به، فقد كانت والدته في كل مرة أزوره فيها تخرج لي وتطلب مني بكل رجاء وتوسل قطع علاقتي بابنها تحت ذريعة الحرص على مصلحته، وقد انسحبتْ هذه الحالة على بقية المجموعة تقريبًا.

في هذا الوقت بالتحديد -وفي ظل التهديدات والمضايقات النفسية- علمتُ بأن والدة السيد جلال مريضة وهي

نائمة بالمستشفى، فكرت في زيارتها لكسب رضاها وشراء خاطرها..

عندما علمتْ بزيارتي تفاجأتْ كثيرًا واستشعرتْ الحرج الكبير واعتذرتْ لي بسبب المضايقات التي سببتها لي معللة ذلك بخوفها على السيد جلال، استطعتُ كسب الجولة بهذه الخطوة، اعتبرتُ هذه الخطوة بمثابة الضوء الأخضر لكسر بقية القوم نفسيًا، فالمهم عندي كسب رضا الأمهات أولاً..

وفي ذات مساء قررتُ الالتقاء بالأخ علي حسن محسن - وهو أحد أفراد المجموعة التي أتعهدها كما أنه من أبناء عمومتي - للخروج معه في نزهة خاصة؛ وذلك لأن الموضوع لا يحتمل وجود شخص ثالث، وباعتبار صلة القرابة بينه وبين السيد جلال -إذ يكون السيد جلال ابن خاله-، سألته سؤالاً محددا: هل يوجد للسيد جلال أخوات في سن الزواج؟ نظر في وجهي باستغراب وكأنه يريد قراءة أفكاري قائلا: لمن الموضوع؟ قلت له: ستعرف في حينها بعد أن تعطيني تفاصيل الموضوع، أجابني بالإيجاب وأطلعني على الأمر وعن تركيبة عائلة السيد جلال ..

وفي مساء اليوم التالي اتفقت مع السيد جلال لرؤيته لموضوع هام، وبدون مقدمات فاجأته بالموضوع، وطلبت منه أن

يبلغ أخته رسالة بأني أرغب في الاقتران بها..

نظر في وجهي باستغراب قائلا: ولكنك لا زلت صغيرًا وأمورك غير مهيأة!! فقلت له: أريد الدخول لهذه العائلة -التي حاربتني من أوسع الأبواب- عبر الاقتران بابنتهم، شكك السيد جلال في الموافقة، فقلت له: لا أريد موافقة العائلة الآن، كل ما أريده فقط رأي أختك في الموضوع، كنت على أحر من الجمر لمعرفة الرد..

وفي غضون أسبوع كامل جاءني الرد بالموافقة، طلبت من السيد جلال إبلاغ أخته بأني عازم على السفر للدراسة في الحوزة، وبعد استقرار وضعي سأعود للتقدم إليها.

المقابلة

ذاع خبر التفاهم الدائر بيني وبين السيد جلال بخصوص التقدم لخطبة أخته..

انقسمتْ العائلة إلى مؤيد ومعارض، فالبعض يرى بأني صاحب سابقة سياسية وحياتي لن تكون مستقرة؛ لأني مرشح لدخول المعتقل في أي وقت محتمل، مما سيتسبب في ضياع مستقبل أختهم، وآخرون أبدوا تخوفهم نتيجة سماعهم بأني سألتحق بالحوزة العلمية في النجف الأشرف ، مبرّرين تخوّفهم بأن سلك رجال الدين والقضاة هو تعدد الزوجات ، حتى أصبحت السمة السائدة لرجل الدين بأنه (مزواج)، وبالتالي فإن الخوف على ابنتهم كان من هذه الناحية..

أما البعض الآخر فقد أبدى تحفظًا واضحًا خشية أن أكون شخصًا معقدًا أثير المتاعب في حياة أختهم نتيجة الوضع السائد لبعض رجال الدين من حرمان أزواجهم من حق التعليم والسياقة..

ومن ناحيتها أبدت صاحبة الشأن في الموضوع تمسكها بالموافقة على تقدمي لخطبتها لحين توفيق أوضاعي غير مكترثة بتلك المخاوف والهواجس المستقبلية..

في هذا الوقت بالتحديد -وبعد نجاحي في كسب الجولة، وبعد الاطمئنان إلى الموضوع والحصول على الضمانات الأكيدة من صاحبة الشأن بأنها في انتظاري- سافرت إلى النجف الأشرف، كان الوضع في حوزة النجف يبشّر بخير، فالمخصصات الشهرية التي نستلمها من الحوزة كانت تكفي للإعاشة من دون قلق ومن دون الحاجة للاعتماد على موارد مالية إضافية من البحرين..

كان مجموع عدد الجالية البحرانية في حوزة النجف يربو على ستين طالبًا من طلبة العلوم الدينية، جرت عادتنا على التوجه إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في ليالي الجمعة من كل أسبوع، نقرأ بعدها دعاء كميل ثم نعود للنجف الأشرف في نفس الليلة..

كنا نعيش أجواءً إيمانية منقطعة النظير، حيث الصلوات المكتوبة في الصحن العلوي بجوار أمير المؤمنين عليه السلام، خاصة صلاة الفجر ، حيث الشعور بالروحية العالية، لا سيما أن وضع طلبة الحوزة يفرض عليهم القيام لصلاة الليل، فالمدرسة

الدينية التي نقيم بها تراها ساعات السحر وكأنها في وضح النهار، فتلك مجموعة تقرأ مناجاة صلاة الليل، وتلك ترتل القرآن، وأخرى تعكف على التهجد، وعند الصباح ينتشر الجميع لحضور الدروس الحوزوية، وعادة ما يتخللها زيارات لبيوتات المراجع الدينية، كما أننا كنا نسترق السمع لمحاضرات السيد الخوئي، فمئات العمائم تحضر البحث الخارج.

اعتدنا على هذا الجو الإيماني المميز، وقد كانت لنا زيارة واحدة -أو زيارتان- في السنة للبحرين نظرًا لنظام الحوزة في التعطيل الدراسي في شهْرَيْ رمضان ومحرم، كان الطلبة غير المتزوجين يشكون من عدم انتظام الوجبات الغذائية عندهم، فوقتهم اليومي مشغول بالتحصيل الدراسي والذي ينتهي عند ساعة أذان الظهر، وقد اعتادوا على أكل الخبز والحليب، وفي أحسن الأحوال مع الروب "الزبادي"، وكنا ننظر للمتزوجين نظرة غبطة على وضعهم المرتب..

بعد إكمال السنة الأولى -وبعد استقرار وضعي في الحوزة- قررت النزول للبحرين لإتمام مراسيم عقد القران أملاً في تحسين وضعي، خاصة وأن الفترة السابقة كانت كافية جدا لتسليم عائلة السيد جلال للأمر الواقع، وذلك بعد فشل جميع المحاولات

في ثني أخت السيد جلال عن صرفها عن فكرة اقترانها بي، ولسان حال البعض بأن الرجل أصبح طالبًا حوزويًا وله سمعته وصيته في المنطقة قبل التحاقه بالحوزة..

أذعن الجميع لرغبة ابنتهم الصادقة ولكن على مضض، أخبرت الوالد بالأمر لتحديد موعد للتقدم بشكل رسمي، طلب مني ترتيب الأمر فأخبرت السيد جلال لترتيب الموعد، وقد جاءني الرد بأن العائلة في انتظاركم عصرًا.

عند الساعة الرابعة عصرًا من الموعد المضروب ذهبت مع الوالد للمقابلة، وكعادتي كنت أرتدي الزي الديني، تركت الوالد يتحدث مع عمي الجديد بشأن رغبتي في التقدم للاقتران بابنته..

الموضوع لم يكن غريبًا على الجميع وإنما هي أمور شكلية، طلبت منهم السماح لي بالتحدث مع البنت المسماة لي لبعض الوقت، لم يكن هذا الطلب قد اتفقنا عليه إلا أني فاجأتهم به، كما فاجأت صاحبة الشأن، رافقني عمي للصعود للغرفة وأشار لي بالجلوس ثم خرج وتركنا لوحدنا، كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها بها وجهًا لوجه، بل إنها كانت المرة الأولى التي أجلس فيها بقبالة فتاة، كانت ضربات قلبي تكاد تفضحني، ونظراتي لا تتعدى موضع جلستي الخجلى ؛ إذ من طبعي حياء العين، وكنت

كلما حاولت رفع بصري هوى إلى الأرض مستسلمًا من دون إرادة، تحدثت معها بكل صراحة عن وضعي المادي، فأخبرتها بعدم وجود مورد مالي ثابت أعتمد عليه في حياتي، وكل اعتمادي على راتب الحوزة بعد الاعتماد على الله، وقد وضعتها في الصورة باحتمالية الظروف القاسية التي ربما ترافق حياتنا في بداية مشوارنا، حيث لا وظيفة رسمية أو غير رسمية ولا تأمين حياة، ولا منصب، ولا سيارة، ورحت أعقّد وأصعّب الموضوع لأبعد الحدود لتبقى على بينة واضحة، والأهم من ذلك كله أخبرتها بأن دراستي ستكون مستمرة بحوزة النجف الأشرف..

أبدت الموافقة والرضا التام، ولم تتكلم إلا ببضع كلمات بالكاد كنت أسمعها، خرجتُ وأنا لا أصدق بأن المقابلة قد انتهت!

الأسبوع الوردي

كانت رغبتي الأولى أن يتم عقد القران في ليلة القدر الشريفة، إلا أن الاعتراض جاء بسبب ضيق الوقت، فكان الخيار أن يتم العقد بعد إجازة عيد الفطر المبارك مباشرة، وبالتحديد في رابع عيد الفطر لعام ١٩٩٠ م..

جرت الاستعدادات سريعةً نتيجةً لضيق الوقت عند الطرفين، فقد كنت على موعد للعودة إلى النجف الأشرف، وبالمقابل فإن عائلة عمي كانت تقول بأن مناسبة عيد الفطر ستأخذ كل وقتها..

وعرفانًا مني بالجميل - وتقديرًا لمساندته لي في سفري إلى الهند والنجف الأشرف، - فقد طلبت من سماحة الشيخ الجمري أن يكون هو من يجري صيغة عقد الزواج..

بعد الانتهاء من مراسيم عقد القران أخذوني لبيت عمي،

اشترطتُ عليهم أن يكون الحضور عائليًا وبعيدًا عن أجواء الطرب والموسيقى، فسوف تخصص لهن ليلة للتعبير عن فرحتهن..

جرت العادة أن يتأخر تلك الليلة الزوج في بيت عمه إلا أني عدت سريعًا إلى المنزل، وكان مجموع مكوثي في منزل عمي الساعة ونصف الساعة تقريبًا، انتقدني البعض لسرعة مغادرتي بيت عمي فأجبتهم بأن الأيام قادمة وستشفع لذلك التقصير.

بدأت أحسب الأيام فلم يبق أمامي سوى سبعة أيام فقط لسفري إلى النجف الأشرف، في صبيحة اليوم التالي من عقد القران ذهبتُ لزيارة بيت عمي وقد بقيتُ عندهم الفترة الصباحية، شعرت بأن الجميع أبدى ارتياحًا كبيرًا وأن البعض قد تغيرت نظرته تجاهي.

مجموع الأيام الوردية – فترة الخطوبة – التي بقيتها في البحرين سبعة أيام فقط، وفي ثامن الأيام الوردية سافرتُ إلى النجف الأشرف، وفي أول فرصة سنحت لي بالعودة –وهي بمناسبة ذكرى عاشوراء– عدت إلى البحرين، وبعد عودتي بثلاثة أيام فقط حدثت الكارثة الكبرى، وهي حادثة الغزو العراقي للكويت أغسطس ١٩٩٠م..

ومع تطورات العدوان العراقي على الكويت بدأنا نفقد

الأمل في إمكانية العودة إلى النجف الأشرف، وقد تبخر حلم الزواج بالنجف الأشرف!! وبانتهاء شهر صفر والدخول في شهر ربيع فقد أكملتُ خمسة أشهر كاملة على عقد القران..

حزمت أمري باتجاه قرار الزواج والاستقرار بالبحرين، أطلعتُ الأهل بأن زفاف الزواج سيتم في يوم الأربعاء ليلة الخميس الموافق ٢٥/١٠/١٩٩٠م، وفي الليلة ذاتها قام سماحة الشيخ الجمري بتتويجي بالعمامة.

بدأتُ حياتي الزوجية بالاستقرار في شقة صغيرة استأجرتها في نفس المنطقة بمبلغ ستين دينارًا، وقد تبرع الوالد بالمساهمة بمبلغ ٢٥ دينارًا بشكل شهري مساندة منه في تسديد مبلغ إيجار الشقة، وكان مجموع ما أتقاضاه من مخصصات الحوزة في البحرين ١٠٠ دينارٍ فقط لا شريك لها، ستون دينارًا من حوزة الشيخ الجمري وأربعون دينارًا من حوزة السيد الغريفي..

البعض كان يراهن على عدم استمراري بهذا الوضع المادي المتردي، بينما كنت أراهن على قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1]، وقبل اكتمال العام على مسيرة حياتي الزوجية -وتحديدًا في سحر شهر رمضان

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

المبارك-، وبينما كنت أطل برأسي من شرفة الشقة على موضع السيارة لم أجدها، لم يتبادر الشك لذهني وقلت: لعل أحدهم استعار المفتاح من الوالد..

ومع ساعات الشروق خرجتُ للتأكد فلم أجد السيارة، وفي ساعات الضحى بلغني الخبر بأن السيارة وجدوها متفحمة خلف مصنع السفن آب بمنطقة الصالحية!

ضدّ مجهول

استطعتُ -وعبر تجميع بعض الخيوط- التعرف على مرتكبي جريمة إحراق السيارة، تقدمت ببلاغ إلى مركز شرطة الخميس والتي بدورها أحالت الملف إلى قسم التحقيقات الجنائية..

أدخلوني على ضابط برتبة رائد أردني الجنسية معروف بقساوته على الإسلاميين، أدخلوني وبدون مقدمات سألني: هل سبق وأن اعتقلناك في قضية أمن دولة؟ أجبته: لا، وكنت أقصد أنه لم يسبق وأن اعتقلتني مباحث التحقيقات الجنائية، حينها استشهدتُ بالمثل المعروف: - إذا كان خصمك القاضي فمن تقاضي- ؟!! إذ أن خيوط الجريمة التي قدمتها لهم معروفون بانتمائهم لشبكة تجسس واسعة تعمل لصالح أحد عناصر مباحث أمن الدولة المعروفين في المنطقة، فقلت له: وماذا ستفعلون بالأسماء التي قدمتها لكم والتي تحوم حولهم شبهة الجريمة؟

فقال: نحن استدعيناهم وسألناهم وقد أنكروا التهمة! ثم أردف قائلاً: لا نستطيع إجبارهم على الاعتراف..

في نهاية المطاف أغلق الملف وقد كتب عليه بالخط العريض: سجلت الحادثة ضد مجهول، وقد استطاع المجرمون عبر هذه الحادثة إبلاغي رسالة قوية وواضحة غير قابلة للتأويل!

اتخذتُ قراري بترك المنطقة والتفكير جديا بالانتقال إلى مدينة حمد.

تحدثتُ مع جميع أصدقائي الذين أعرفهم بمدينة حمد عن إمكانية حصولي على وحدة سكنية بمدينة حمد، أخبروني بأن لا سبيل إلى ذلك إلا بطريقة واحدة، وهي فكرة التنازل، بمعنى أن صاحب الوحدة السكنية يتنازل عن بيته بمقابل مبلغ مادي على أن نقوم سويًا بتحويل ملكية البيت لي بوزارة الإسكان..

في هذه الأثناء أبلغني أحد الخطباء بأنه على أتم الاستعداد للتنازل عن وحدته السكنية بمدينة حمد تعاطفًا مع موضوعي، إلا أن مشكلته بأنه لن يستلم الوحدة السكنية إلا بعد سنتين تقريبًا!!

اقترحت عليه تقديم رسالة طلب استعجال للحصول على الوحدة السكنية، أجابني بأنه مشغول جدًا، فقلت له: هل تأذن لي

بمباشرة الموضوع؟ فقال: لك ذلك، كتبتُ رسالةً لوزير الإسكان أشرح فيها الظروف الخاصة لحيثيات طلب الاستعجال وذلك بالنيابة عن صاحبي الخطيب، تابعتُ الإجراءات أولاً بأول وقد استغرقتْ عملية المتابعة مدة تزيد على الشهرين تقريبًا، وقد جاء تقرير لجنة البحث بالموافقة على طلب الاستعجال، وقبل أسبوع واحد من استلام المفاتيح هاتفني الخطيب وقد استشعرتُ من كلامه التلعثم والاضطراب، فاجأني قائلاً: أعتذر لك، فأنا مضطر لاستلام الوحدة السكنية بمدينة حمد!!

لم يكن من حقي الاعتراض، فالبيت له وباسمه والقانون معه، قبلتُ اعتذاره وقد فوضتُ أمري إلى الله وأنا أردد قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾[1]، أصابتني حالة من الإحباط والألم النفسي، فقد رتبتُ نفسي على الانتقال، وقد كنت في طور الاستعدادات للانتقال للوضع الجديد، ولكن ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[2]، واصلتُ عملية البحث بالاستعانة بالأصدقاء بمدينة حمد بدون يأس، وفي الأسبوع ذاته حصلتُ على مكالمة هاتفية من أحد الإخوة في المنطقة يخبرني فيها بأن جاره في مدينة حمد

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥١.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

عازم على ترك البيت وقد تحدث معه في الأمر فوافق على عملية التنازل..

طلبتُ منه تحديد موعد للاتفاق على تفاصيل عملية التنازل..

وفي الليلة التالية ذهبتُ مع زوجتي برفقة صاحبي لجاره صاحب التنازل، تكلمتُ معه عن جدية الموضوع ففهمتُ منه الإصرار على ذلك، كان الاتفاق أن يستلم مبلغ ألفين وخمسمائة دينار عوض إخلاء البيت..

كان مبلغًا كبيرًا بالنسبة لي، خاصة أنه لم يقم بأي تغيير على البيت، كما أن البيت بحاجة لبعض الصيانة والتغيير، صحيح أنه مبلغ كبير إلا أنه السبيل الوحيد للحصول على الوحدة السكنية..

تحدثتُ مع سماحة الشيخ الجمري في الأمر وأنا متردد بين الإقدام و الإحجام!! أشار علّي سماحة الشيخ بكتابة رسالة للمرحوم الحاج حسن العالي على أن يقوم سماحته بالتعليق على الرسالة..

كتبتُ الرسالة وبدوره قام سماحته بتوثيقي لدى الحاج حسن العالي منوهًا بأن حالتي مستعجلة، تجاوب الحاج حسن

العالي مع توصية الشيخ الجمري فأعطى إذنه للأمين المالي بإصدار شيكين على أن يكون الأول بمبلغ قيمة التنازل للبيت والآخر بمبلغ ألف دينار للصيانة.

لم أقنعْ نفسي بانتهاء المشكلة، قلت لزوجتي: لن أصدق إلا بعد انتهاء إجراءات تحويل البيت باسمي وذلك بعد استلام وثيقة البيت..

تحركتُ سريعًا في إجراءات التحويل، وقد استغرقتْ العملية مدة أسبوع كامل، ساعة التوقيع على اتفاقية استلام وثيقة البيت طلبتْ مني وزارة الإسكان استلام مفاتيح البيت لإجراء الصيانة، رفضتُ ذلك وقلت لهم: لا أريد الصيانة خوفًا من المماطلة ولعدم ثقتي بوعودهم، استلمتُ وثيقة البيت ومعها مفاتيح البيت وأنا لا أكاد أصدق.

الماراثون

في أغسطس ١٩٩٢ م قمتُ بافتتاح البيت رسميا بحضور لفيف من الإخوان والأصدقاء، كانت المدينة في تلك الفترة تخلو من الخدمات المطلوبة، وهو الأمر الذي حدا بالكثيرين لمعارضتي للانتقال لمدينة حمد، إلا أني أبديت تمسكي بالانتقال لمدينة حمد مهما كانت المسافة بعيدة..

الجدير بالذكر أنه بعد أربعة أشهر من الاستقرار بالمدينة علمتُ بأن صاحبي الخطيب قرر هجر بيته الذي استلمه من وزارة الإسكان لطول المسافة بين منطقته التي يقطنها و بين مدينة حمد مما يتسبب في تأخيره عن وصوله لموقع العمل في الوقت المناسب..

في هذه الأثناء قررتْ زوجتي البحث عن وظيفة تتناسب ووضعها الاجتماعي للمساهمة في دفع عجلة تحسين الوضع الاقتصادي، خاصة بأن ابننا سجاد بدأ يكبر، فهو يزحف نحو

إكمال العام الأول من عمره، مما يعني زيادة أعباء النفقات بحاجياته الأساسية، فكنتُ أخرج مع أم سجاد للبحث عن الوظيفة المناسبة لها، وبعد شهرين متتابعين من البحث والعناء استقر بنا الرأي للموافقة على العمل بإحدى المطابع المحلية، كان الراتب الشهري سبعون دينارًا، وكنت مع بداية كل شهر أقوم بتوزيع ما نحصله من مال على مستلزمات وحاجيات البيت على أن لا نتعدى الميزانية المحددة، فكنت أخصص مبلغًا لبنزين السيارة وآخر للإيجار وهكذا بقية المصروفات، وبذلك استطعنا ضبط المصروفات عبر هذا التقسيم.

اتفقنا منذ البداية على اقتطاع مبلغ ٢٠ دينارًا بهدف التوفير والادّخار لحالات الأزمات والطوارئ، فقمت بفتح حساب في البنك لإيداع المبلغ المقتطع بشكل مستمر، وبشكل تدريجي كنا نعمل على تطوير تجهيزات البيت على شكل دفعات، ومن ناحية ثانية فقد تناوبنا على إدارة البيت، فكانت أم سجاد تجمع بين الوظيفة ومهام البيت وبدوري كنت أقوم بتبادل الأدوار معها، وقد اخترتُ غسيل الملابس والأواني قبل وصولها للبيت من العمل..

أحيانًا كنا نشترك في المطبخ لإعداد وجبة غداء تكفي لثلاثة أيام، وأحيانا أخرى نكتفي بأكل المستضعفين، وهو عبارة

عن الخبز مع الروب "الزبادي" أو بعض المعلبات الجاهزة، كنا في غاية السعادة والرضا والقناعة، فقد استطعنا ـ وعبر مخصصات الحوزة وراتب أم سجاد ـ تخطي كل المصاعب والتحديات التي كانت تؤرقنا، والأكثر من ذلك استطعنا توفير مبلغ من المال بشكل شهري يكفينا حاجة السؤال..

ثلاثٌ من السنوات مرتْ ونحن على هذه الحال، فلم نحتج للاقتراض، بل إننا مسحنا من قاموس حياتنا كلمة (اقتراض)؛ لأن وضعنا القانوني لا يأذن لنا بذلك ، والأهم من ذلك كله أننا لم نرفع الراية البيضاء أمام تحديات ومصاعب ومخاطر استمرار حياتنا الزوجية، والتي شكك البعض في استمرارها لأكثر من سنة واحدة!!

وفي أواخر عام ١٩٩٤م حدثت تطورات سياسية على الساحة؛ إذ تم اعتقال الشيخ علي سلمان مع ثلة من الشباب، وقد كان من بينهم أخي سعيد عاشور وابن عمي (شقيق زوجتي) السيد جلال على خلفية التعرض لمسيرة الماراثون الشهيرة..

بدأت الأوضاع الأمنية في التدهور وزمام الأمور في الانفلات، فقمت بالتنسيق مع عوائل المعتقلين في قضية الماراثون بعد مرور أسبوعين على اعتقالهم بدون أن نعرف عنهم أية تفاصيل، ولا حتى مكان اعتقالهم .

اقترحتُ على العوائل سلسلة من الأفكار، وفي مطلعها التقدم بعريضة مكتوبة للأمير الراحل الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة نطالب فيها الإفصاح عن مصير إخواننا المعتقلين والسماح لنا بمقابلتهم للاطمئنان على أوضاعهم مع السماح بإدخال أدوات النظافة اللازمة لهم؛ إذ أن كيفية اعتقالهم كانت بصورة وحشية، فقد فوجئ الأهالي بزوار الفجر وهم يقتحمون أسوار المنازل وكسر أقفال البيوت، وأحيانًا تخريب الأبواب ومباغتة الأهالي بإشهار السلاح على رؤوس الأطفال والنساء كتحذير للمطلوبين من محاولة الهرب أو الفرار..

كتبتُ رسالة العريضة وأعطيتها لأخي الأكبر عيسى عاشور وطلبت منه مرافقة الوفد على أن يتقدم الوفد كبار السن لتسليم العريضة للأمير، وفي اليوم التالي كان البرنامج عبارة عن اعتصام سلمي لأهالي المعتقلين فقط أمام بوابة وزير الداخلية وهي الواقعة بمحاذاة دوار القلعة بالمنامة، كان التجمع مثيرًا، خاصة أنه أمام مركز في غاية الحساسية، مما أثار استياء وسخط مكتب الوزير، بعد نصف ساعة من التجمع خرج علينا أحد عناصر رجال الأمن وطلب مني تمثيل الوفد أمام مكتب الوزير لكتابة مطالب المعتصمين.

تخوف أخي الأكبر من عملية تمثيلي مخافة محاولة اعتقالي، فاقترح بأن يقوم هو شخصيا بتمثيل الوفد..

اقتيد لمكتب وزير الداخلية وطلبوا منه كتابة رسالة يشرح فيها أسباب ومطالب الاعتصام، وفي اليوم الثالث أخبرني المحامي بأنه سيتم في ذلك اليوم إحضار مجموعة الماراثون للمحكمة للمثول أمام قاضي الاعتراف، توجهنا جميعا ناحية قاعة المحكمة بانتظار وصول المعتقلين، وساعة وصولهم أخبرني المحامي بأنهم سوف يجلبونهم بعد عشر دقائق تقريبا، توجهنا جميعا ناحية زجاج قاعة المحكمة، في هذه الأثناء أدخلوا المجموعة يتقدمهم الشيخ علي سلمان، وبوصول دور أخي سعيد عاشور سقطتْ زوجته على الأرض لعدم احتمالها منظر القيود في يديه، وبدورها قامت أمي وبكل شجاعة وبسالة ـ وبمعاونة الأهالي ـ بفتح بوابة قاعة المحكمة واحتضان ابنها سعيد وهي تجهش بالبكاء، مما أربك رجال الأمن وقاضي التحقيق في حالة من الذهول، فلم يكن بإمكانه إصدار أوامره بمقاومة امرأة متقدمة في السن ونزع ابنها من أحضانها..

اجتمعتْ حولنا الشرطة النسائية وعناصر رجال الأمن وطلبوا منا الانتظار لحين انتهاء مرافعة المحكمة، وقد أوهمونا بأن القاضي أصدر أوامره بفتح المجال بمقابلة المعتقلين لمدة نصف

ساعة تقريبًا، وبعد انتهاء دور أخي سعيد تم إدخال ابن عمي السيد جلال، فما كان من زوجتي - أم سجاد - إلا أن وقعتْ على الأرض هي الأخرى بعد أن شاهدتْ أخاها وهو مكبل اليدين بالحديد..

في نهاية المطاف ـوبعد أن عمّت الفوضى والإرباك المحكمةـ تم إخراج المعتقلين سريعا، وعندما طالبنا بتنفيذ قرار القاضي بالسماح لنا بمقابلة المعتقلين قالوا لنا: إن الأمر راجع لمباحث أمن الدولة، وهي الجهة التي تقرر المقابلة أو الزيارة وليس قاضي التحقيق.

السبت الأسود

لقد بتنا في وقت سادت فيه ثقافة الخوف وسلطة الترهيب، أصبح الرأي جريمة وجنحة يعاقب عليها القانون، صار الاعتقال التعسفي العصا التي تلوح بها أجهزة الأمن في وجه كل معارض، فقانون أمن الدولة يبيح لأجهزة الأمن تخطي كل الخطوط الحمر وتجاوز كل الاعتبارات تحت مسمى (قانون الطوارئ)، حتى باتت أجهزة الأمن قاصرة عن التعامل مع المواطنين خارج دائرة الترهيب وهز عصا الاعتقال التعسفي في وجوههم، فالأجواء شديدة السخونة تصل إلى درجة الغليان، فالبلد تعيش حالة من الاضطراب السياسي والتدهور الأمني، إنها الجمعة الأخيرة لشهر مارس ١٩٩٥حيث الخطاب السياسي لسماحة الشيخ الجمري، حيث انتقد في خطابه ـ وبشدة ـ عمليات التهجير ومواجهة المسيرات بالرصاص والقتل المتعمد وتكميم الأفواه وإسكات المعارضين، ثم طالب الحكومة بالحوار ولغة العقل والمنطق، وكنت كغيري

نتكهن بأنه الخطاب الأخير لسماحة الشيخ الجمري، وبأن سلطات الأمن ستضيق ذرعًا بسماحة الشيخ وستلجأ كعادتها لإسكات هذا الصوت ولو بالنار والحديد، وقد جاء الرد سريعًا كما كان يتوقع المراقبون ليوميات الانتفاضة، فبعد ١٢ ساعة على خطاب الشيخ -والذي يبدو بأنه أزعج سلطات الأمن بصورة واضحة- قامت سلطات الأمن بقيادة ضابط المخابرات المعروف وهو يقود كتيبة كبيرة من قوات الشغب والكومندوز بمحاصرة بني جمرة والسيطرة على مداخل ومنافذ القرية استعداداً للهجوم على بيت الشيخ الجمري.

انتبه أهالي القرية على أصوات تكسير الأبواب واقتحام بيوت الجيران بلا استئذان والانتشار على أسطح المنازل المجاورة لسماحة الشيخ الجمري، وقائدهم ـ قائد هذه العملية ـ ينادي بصوت مرتفع من خلال مكبر الصوت: - غادروا المنزل حالاً، غادروا المنزل حالا-، وقد قاموا باحتلال منزل الأستاذ عمران –عضو المجلس البلدي السابق لانتخابات ٢٠٠٢ م – لأنه ملاصق لبيت الشيخ وقد انتشروا في كل ركن من أركان بيته، وقاموا بإرغامه وأهله على مغادرة المنزل وبصورة سريعة.

خرج الأستاذ عمران مع عائلته تحت قهر السلاح أمام

شريطين من البشر من قوات الشغب الممتدة إلى مداخل القرية، وقد كانت ابنته الكبيرة في نفاسها بعد ثلاثة أيام من ولادتها، وخرجوا من بيتهم مطرودين لا يعرفون إلى أين يتوجهون في مثل ذلك الوقت من الليل المتأخر، وقوات الأمن منتشرة على سطح بيتهم، كما قامت قوات الكومندوز بجعل جامع الإمام زين العابدين المجاور لبيت الشيخ الجمري مقرًا لقيادتهم، حيث كانت مئذنة المسجد برجًا لمراقبتهم للبيوت الواقعة حول بيت الشيخ الجمري، وقد نقل لي بعض الأهالي بأن رجال الكومندوز كانوا يقومون بالتبول وهم بأعلى مئذنة المسجد حتى لا يضطروا لترك الموقع من دون مراقبة، وبدون استئذان تسوروا منزل سماحة الشيخ الجمري، وبحركة سريعة انتشر ضباط أمن الدولة في منزل الشيخ يتقدمهم قائدهم وهو يحمل سلاحًا صغيرًا وطاقمًا من الرصاص، وكانوا جميعا متلثمين، وقد نقل لي سماحة الشيخ الجمري ـ وبصورة مباشرة ـ بأنه استأذن قائدهم لدخول دورة المياه، وهناك قام سماحة الشيخ بتمزيق رسالة وصلته من سماحة الشيخ المحفوظ - على ما يبدو-، وقد قام برميها في المرحاض حتى يتخلص منها، إلا أن السيفون لم يكن يعمل بصورة جيدة؛ لذلك بقت قصاصات الورق بشكل واضح، ولم تكن أمام الشيخ أي وسيلة أخرى لتغييب هذه القصاصات، وبعد خروج الشيخ دخل ضابط المخابرات المعروف

وقد وجد القصاصات الصغيرة فقام بنفسه -بعد أن لبس قفازًا طويلاً- بجمع تلك القصاصات، وقد نقلها معه إلى مبنى المخابرات حيث قام بتجفيفها، وقد نجح بنسبة ٨٠ ٪ بإعادة تكوين الرسالة والتعرف على محتواها.

ومع أذان الفجر دوت مكبرات الصوت بحي على الفلاح، وحي على الكفاح، وكما نقل لي سماحة الشيخ بأن أم جميل خرجتْ لتعلن عبر مكبرات الصوت بخبر اعتقال سماحة الشيخ الجمري، وخرج الناس للدفاع عن الشيخ المعتقل، وقد حدثت المواجهة ولكن من جانب واحد فقط، حيث أُمطر الشباب بزخات الرصاص والذخيرة الحية والقنابل الدخانية، حتى زاد مجموع الجرحى على الأربعين جريحًا، حيث امتلأ المستشفى الدولي بالرجال والنساء.

وببزوغ شمس ذلك اليوم بدت آثار الدمار والتخريب والتكسير واضحة على نوافذ المنازل وسيارات الأهالي، وقد اقتيد الشباب إلى المعتقلات، وأفاقت القرية على الفاجعة الكبرى باستشهاد محمد جعفر ومحمد علي وبتر رجل محمد العرب لإصابته بطلقة نارية أدت للتدخل الطبي بقرار بتر الرجل لتهتك أنسجتها، وقد استمر حصار القرية لخمسة عشر يوما يخضع فيها

كل من حاول الدخول أو الخروج من القرية للتفتيش الإجباري؛ لذلك أطلق على ذلك اليوم - يوم السبت الأسود - ويوم الحصار والشهيد.

مقتل الإسكافي

اشتدّت المحنة حتى ضاقت الأرض علينا بما رحبت، فقُتِل من قُتل، وسُجن من سُجن، وأُقصي من أُقصي، وجرى القضاء لهم بما يرجى له حسن المثوبة؛ إذ قامت أجهزة الأمن باعتقال جميع الناشطين والمتحركين على الساحة، حتى خلت المساجد والمحاريب من أئمة الجماعة..

في ظل هذه الظروف العصيبة والأوضاع الأمنية المعقدة تقدمتُ لإمامة الجماعة في مسجدَيْ الخواجة بالمنامة والصادق بمنطقة القفول، وقد حرصتُ أن تكون كلماتي وأحاديثي في يوم الجمعة بمسجد الصادق تتسم بالهدوء والعقلانية، فقد ابتعدتُ قدر الإمكان عن التشنج والانفعالات العاطفية؛ محاولاً بذلك المحافظة على وجودي في الساحة لأتمكن من أداء رسالتي كما أريد وبأطول مدة ممكنة، وفي ليلة العاشر من المحرم -وهي الليلة المعهودة بحرارتها وحماسها في محيط العاصمة وبقية القرى

والمناطق- تلقيتُ عدة توصيات من القائمين على مسجد الخواجة بأن تكون كلمتي قوية بقوة المناسبة، على أن تتخللها الهتافات والشعارات المطالبة بالإفراج عن السجناء وتحقيق المطالب الشرعية العادلة، حاولت الجمع بين الأمرين، بين الحماسة والإثارة وبين لغة المنطق والعقل، كانت الأنوار خافتة والنفوس مهيأة ؛ إذ أن غالبية الحضور عبارة عن عوائل المعتقلين والشهداء.

اعتمدتُ لغة المشاعر والعواطف في الربط بين الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام الحسين ـ والتي صرح بها جهارًا نهارا في تصريحاته السياسية في قوله: إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، وأنه لم يترك لغة الدعوة إلى الحوار والمنطق حتى آخر لحظات حياته مع الكيان الأموي ـ وبين الحركة المطلبية الشعبية التي تنادي بتفعيل لغة الحوار بدلاً من لغة الرصاص والقتل والتشريد والسجون، وبمقدار اتزان الكلمات فقد كانت قوية وشديدة كما وصفها الآخرون، وكان الحديث بلغة حماسية، وقد تخللته الهتافات والشعارات المؤكدة على أحقية الحركة المطلبية، وباعتلاء الهتافات والشعارات كنت أرى قبضات الأيدي ترتفع عاليًا في إشارة للصمود والتحدي، لا سيما عند شعار: – هيهات منا الذلة–.

أنهيت الكلمة الحماسية وأنا أعلم بوجود عناصر مباحث أمن الدولة بالمسجد ومحيطه، اقترح البعض خروجي من البوابة الخاصة للتواري عن أنظارهم، امتنعتُ عن ذلك وقلت لهم بأني على ثقة بأني لم أترك لهم ذريعة لاعتقالي، وبأني على أتم الاستعداد للمثول أمام محاكم أمن الدولة لمقاضاتي تحت ذريعة أني دعوتُ الحكومة لاستخدام لغة العقل والحوار!

بقيتُ مستمرًا على هذا النهج لعدةٍ من الشهور، وفي ذات صيف حار بحرارة الانتفاضة وتحديدًا في يوم ٦ يوليو ١٩٩٥ خرجت البحرين عن بكرة أبيها لسماعها بمقتل سعيد الإسكافي ذي السبعة عشر ربيعًا من عمره بعد أسبوع واحد فقط من اعتقاله، خرجت الجماهير الغاضبة في مسيرة جنائزية للتنديد بطريقة التعذيب الوحشية التي تعرض لها سعيد الإسكافي، وفي أول جمعة بعد حادثة مقتل سعيد الإسكافي حيث النفوس مشحونة والأجواء ملتهبة، قمتُ بالتصعيد في لغة الخطاب، خرجتُ عن الدبلوماسية واتهمتُ الحكومة بمسؤولية القتل المتعمد، وبانتهاء الحديث الحماسي ودعني وعانقني الجميع حيث كان الجميع يتوقع اعتقالي قبل وصولي للمنزل، في الحقيقة إن الظروف لم تكن لتسمح بالتغاضي عن حادثة مقتل سعيد الإسكافي.

وطُرِقَت الباب

في مساء يوم الجمعة -وبعد تلك الخطبة الحماسية، وفي ظل توقعات الاعتقال- رفعتُ حالة التأهب والاستنفار في البيت، طلبتُ من زوجتي عدم المبيت بالبيت معي والتوجه لبيت أهلها تحاشيا من هجمة زوار الفجر ووحشية الهجوم المرتقب، لم أشأ أن يشاهدني ابني سجاد الصغير بذلك المنظر وبتلك الوحشية المفرطة..

أخليتُ البيت وبقيت لوحدي، وفي صبيحة اليوم التالي ـ وعند الساعة الثامنة صباحًا ـ طُرقت الباب، استغربتُ من الطرق الهادئ فتوجهتُ للباب وأنا أقرأ آيات الحفظ والنجاة، وجدتُ سيارة مرسيدس كحلية اللون تماما كالتي اعتدنا رؤيتها، ذلك اللون الذي يبعث على الاكتئاب والحزن..

تقدّم إلي رجل وهو يمسك بيده ورقة إخطار وهو يقول: علي عبد الله عاشور؟ قلت له: نعم، فقال لي: وزارة الإسكان معك..

تنفستُ الصعداء وصافحته وطلبت منه الدخول للمنزل، وبعد الجلوس وتبادل التحايا، أخرج ملفه وقال لي: لقد تخلفتَ عن تسديد شيكات الإسكان لمدة ثلاثة شهور متتالية وبدون إخطار، قلت له: نعم؛ لأني لا أعمل، والإسكان واجب الدولة، والدينار الذي سأدفعه لوزارة الإسكان سأطعم به عائلتي، فهي أولى به، فقال لي: إذا كنت لا تعمل فكيف تدير أمور حياتك ؟! فقلت له: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[1]، فقال لي: ومتى ستدفع بقية الشيكات؟ فقلت له: لا أستطيع الالتزام بالدفع وأنا أفتقد الموارد المالية والتي يجب على الدولة توفيرها لمواطنيها، فقال لي: ولمَ لم تخبرنا بأنك لا تعمل؟!

ثم أردف قائلاً: كم الذي تخصمه عليك وزارة الإسكان؟ فقلت له: كنت أدفع عشرون دينارًا، فقال لي: هل يناسبك أن تدفع خمسة عشر دينارًا؟ قلت له: أحاول ذلك. عليك بمراجعة الإسكان لتعديل القسط الشهري، قال لي.

بعد انصراف موظف الإسكان مباشرة تلقيتُ مكالمةً هاتفيةً من مباحث أمن الدولة تطلب مني ضرورة الحضور للأهمّية القصوى -كما وصفت- قبل العاشرة صباحًا، خرجتُ باتجاه الأهل

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.

والعائلة لتوديعهم والسلام عليهم..

الجميع وّدعني وداعًا لا لقاء بعده، وقبيل العاشرة صباحًا توجهت لمبنى المخابرات، لم يطل انتظاري بغرفة الانتظار حتى أدخلوني إلى مكتب رقم٤٩، وهو المكتب الخاص بعادل فليفل، القضية واضحة وضوح الشمس، والتهمة الأساس هي: التحريض على كراهية نظام الحكم، وتلفيق الأكاذيب على السلطة السياسية، واتهام الحكومة بالقتل العمدي لسعيد الإسكافي..

استمر ّالتحقيق معي حتى الساعة الواحدة ظهرًا، حتى شعرت بالإرهاق النفسي على الرغم من تمتعي بالأعصاب الفولاذية ورباطة الجأش الثابتة..

وفي نهاية المطاف تم التفاوض معي على أن يتم إخلاء سبيلي مقابل التخلي عن الخطابات السياسية وإمامة الجماعة، لم يطل استغرابي من التحرج من عدم إيداعي السجن؛ إذ قال لي فليفل بشكل واضح: لن أمنحك فرصة الدخول إلى السجن حتى لا أصنع منك بطلاً في الخارج، ثم قال بانفعال: نحن الذين قدمناكم للمجتمع أبطالاً..

شعرتُ بأن المسألة أكبر من ذلك، وأن هناك حلقة مفقودة لا نعلم عنها شيئًا؛ لذلك كانت فرصتي لعدم قبول العرض،

وتفاوضتُ معهم على قبول تأجيل الخطاب السياسي وعدم التخلي عن إمامة الجماعة، احتدتْ وتيرة الخطاب، وخيرني بين السجن أو التنحي عن إمامة الجماعة، وقد أعطوني مهلة ساعة كاملة للتفكير، وبنهاية المهلة، قلتُ لهم: الدستور والقانون يكفلان لي حرية العقيدة والعبادة ولا يوجد حتى بقانون أمن الدولة الذي وضعته الدولة ما يحرم إمامة الجماعة!

ضحك بسخرية وقال: نحن في حالة طوارئ والأمن أولاً، وفي نهاية المطاف تمت الموافقة على اقتصاري على إمامة الجماعة فقط بدون أي خطاب.

الضغط النفسي

ليلة الخميس هي الليلة التي خصصتها لزيارة الوالدة في شقتها بإسكان السنابس..

لم يخطر ببالي أن شقة والدتي كانت تحت الرقابة الأمنية بسبب كثرة ترددي عليها، بقيتُ في تلك الليلة لفترة أطول من الوقت المعتاد وأنا أحكي لوالدتي ظروف استدعائي من قبل مباحث أمن الدولة على خلفية الخطبة التي ألقيتها بمسجد الصادق بمنطقة القفول، والتي اتهمتُ فيها المخابرات بتعمد قتل الشهيد سعيد الإسكافي..

وقبل انصرافي من شقة والدتي طلبتُ من أخي عبدالرسول عاشور جلب بعض الأواني الخاصة بوالدتي من السيارة، ويبدو أن خفافيش الليل من مباحث أمن الدولة ـ وبسبب عتمة الليل ـ لم تستطع أن تميز الحاجيات التي جلبها أخي من السيارة، ولهذا السبب بالتحديد قام زوار الفجر من مباحث أمن

الدولة -وبعد انصرافي من الشقة بما لا يزيد عن نصف ساعة تقريبًا- بمداهمة الشقة وتفتيشها بحثًا عن وهمهم المزعوم، ولكن الفشل كان حليفهم ولم يحصلوا على مبتغاهم، واكتفوا بإخطار أخي بضرورة الحضور لمبنى المخابرات وأيضًا للمكتب٤٩ مع صبيحة اليوم التالي..

ومع شروق شمس اليوم التالي توجه أخي إلى الوجهة المذكورة، وكعادتهم قاموا بحجزه طوال الدوام في غرفة الانتظار، ويعد أسلوب الانتظار الطويل من أشهر أساليب الأجهزة القمعية لإتلاف أعصاب المعتقل وتوتيرها قبل جلسة التحقيق بغية تشتيت الذهن وعدم المقدرة على التركيز ومواجهة التحقيق مما يؤدي لانهيار المعتقل سريعًا والخضوع لمطالب ضباط المخابرات..

ومع نهاية الدوام قام ضابط المخابرات باستدعاء أخي ليطلب منه عبر جهاز التسجيل التعرف على هوية المتكلم في المحادثة الهاتفية مع أحد أقطاب المعارضة في لندن، والمتكلم يشرح ظروف استدعائي لمبنى المخابرات على خلفية الخطبة التي اتهمتُ فيها الحكومة بقتل الشهيد سعيد الإسكافي.

استمع أخي لنهاية الكاسيت ثم قال للضابط: الكشف عن هوية المتكلم من اختصاص أجهزة الأمن وأنا لا أعمل عندكم

حتى أكون مطالبًا بمعرفة هوية المتصل!!

اغتاظ الضابط وطلب من أخي القيام من الكرسي والوقوف بإزاء الجدار، ثم قال له مهددًا: سوف تواجه تهمة إيواء أحد الهاربين من قبضة القانون في شقتك في السنابس وستندم على عدم تعاونك معنا..

ومع إصرار أخي على موقفه قام الضابط بإخلاء سبيله على أن يحضر في اليوم التالي بصحبة أخي سعيد عاشور..

ومع ساعات الصباح الأولى وصل الأخَوَان سعيد وعبد الرسول لمبنى المخابرات الذي ترتل فيه آيات الرعب والإرهاب، فالداخل فيه مفقود والخارج منه مولود كما يُقال، فلا المعتقل يعرف متى ينتهي مصيره ولا الجلاد يعرف متى تنتهي مهمته!!

ومما يزيد من الشعور بالقلق ترقب المجهول القادم وساعات الانتظار الطويلة، إلا أن التعامل في هذه المرة اختلف تمامًا عن المرة السابقة، فلم يطل انتظار الأخَوَين كثيرًا، حتى وصل عنصر مباحث أمن الدولة برتبة وكيل أول والمكلف بمرافقة الأخوين إلى مكاتب التحقيق، وبوصولهما لمكتب٤٩ تم عزل الأخَوَين عن بعضهما البعض، وبدأت اللعبة القذرة مع الأخ عبد الرسول..

طلبوا منه تدوين أسماء من أخبرهم بأمر استدعائي إلى مبنى المخابرات، أو التعرف على صوت المتحدث في المكالمة الهاتفية، إلا أن أخي بقي على موقفه السابق من الإصرار وعدم الاكتراث بأساليبهم القذرة الوحشية..

لم تطل المسألة طويلاً، فقد ضاق ضابط المخابرات ذرعًا باستخفاف الأخ عبد الرسول بتلك التهديدات، فجاء القرار بتعليق الأخ عبد الرسول بالفلقة المعروفة..

أحاط الجلاوزة بالأخ عبد الرسول وجعلوه في وسط الحلقة، أمروه بالجلوس على الأرض بعد أن وضعوا القيد الحديدي في يديه، ويا لها من قيود، تلك القيود الأميركية الصنع اللامعة بلون التنكيل، لا سامحكم الله أيها الأميركان على هداياكم القذرة..

وما هي إلا لحظات حتى رفعوا الأخ عبد الرسول كالذبيحة بطريقة الفلقة، وبالنسبة للأخ سعيد فقد أبقوه في الغرفة المجاورة ولم يحرموه من أن ينعم بسماع صيحات الألم والعذاب، وكم هي مؤلمة تلك التعليقة، وأسوء ما يصيب الضحية وهو في حالة التعليق أثر القيد الحديدي الذي يضغط على عظم الرسغ واحتكاك خشبة التعليق مع العظم بلا رحمة، وبحسب شهادة الأخ

سعيد - الذي كان ينتظر دوره في التعليق- فإن مدة تعليق الأخ عبد الرسول لم تقل عن ٤٥ دقيقة، وهي كفيلة بوصول الضحية لدرجة الإغماء وفقدان الوعي نتيجة انحسار الدم عن منطقة الرأس..

وعندما يئس القوم من الأخ عبد الرسول جاء القرار بإنزاله من الفلقة، أنزلوه من الفلقة وهو لا يقوى على حمل رجليه، فقد كان يزحف على وجهه من شدة الوجع والألم، وقد كانت مدة التعليق كفيلة لسريان التنميل والخدر في يديه ورجليه، وقد بقي لأشهر عديدة وهو يشعر بالتنميل والخدر في يديه، كما يُحتمل أن أعصاب يديه قد تهتكتا بشكل كبير، ولفترة ليست بالبعيدة كنت ألاحظ أثر القيد الحديدي الذي انطبع في معصم يديه وهو يميل إلى السواد..

فصل من الاستبسال في الثبات والصمود أبداه الأخ عبد الرسول مما حدا بضابط المخابرات أن يعيش حالة التوتر والانزعاج النفسي، فضابط المخابرات موظف بأجر، وقوّته نابعة من صلاحياته في استخدام شتى وسائل التعذيب والقهر النفسي، بينما الأخ عبد الرسول يستمد قوته من إيمانه بعدالة قضيته؛ ولذا فإنه صاحب حق لا مأجور، ولهذا السبب بالتحديد فإن صمود

المعتقل يُفْقِدُ ضابط المخابرات توازنه العقلي، فتراه يعيش حالةً من الغيظ والحقد على المعتقل الضحية تتمثل في صراخه المرتفع الذي يخرجه عن طوره وعقلانيته، مما يُفْقِدُهُ التصرف بحكمة نتيجة العصبية..

وفي المقابل فإن المعتقل الضحية باجتيازه مرحلة التحقيق والتعذيب بسلام فإنه يزداد صلابة ومتانة وقوة واحترامًا، مما يزيده عزمًا على المواصلة..

اكتفتْ مباحث أمن الدولة -ممثلة بضباطها- بهذا المقدار من التعذيب مع الأخ عبد الرسول على أن يتابعوا الجولة في المرات القادمة بأساليب مختلفة، وكعادتهم قاموا بإجبار المعتقل على تحريك يديه ورجليه وممارسة بعض الحركات الرياضية منعًا لتكتل الدم في منطقة التعذيب وانحسارها عن اليدين والرجلين..

ومع نهاية الدوام أذنوا للأخوين بالانصراف شريطة الرجوع في اليوم التالي، وبصعوبة بالغة استطاع الأخ عبد الرسول أن يسحب نفسه سحبًا إلى خارج مبنى المخابرات ، وشاءت التقديرات الإلهية أن يتوقف أحد الإخوة المؤمنين بسيارته عند بوابة القلعة لمساعدة الأخوين في نقلهما حيث يريدان.

ويستمرّ مسلسل الروتين اليومي في حضور الأخوين إلى

مبنى المخابرات منذ الصباح الباكر، فقد حصلا على تهديد واضح بأن المخابرات غير عازمة على اعتقالهما ، وستقوم باستدعائهما للمخابرات بشكل يومي بغرض تكرار غيابهما عن العمل بدون عذر مقبول أملاً في أن تقوم جهة العمل في فصلهما عن العمل حتى لا يقول القائلون بأن مباحث أمن الدولة هي التي أوعزت لجهة العمل بفصلهما عن وظائفهما!!

والمستند القانوني يثبت أن الغياب المستمر هو الذي أدى لقرار فصلهما عن العمل، أرأيتم ذمة بهذا المستوى من النظافة؟!

لا أعتقد ذلك !!

اتجهت سياسة مباحث أمن الدولة في هذه المرة مع الأَخَوَيْن أن يعيشا ساعات الانتظار الطويلة حتى ينالوا من عزيمتهما وثباتهما..

وقبل نهاية الدوام بعشر دقائق فقط تم استدعاء الأخ سعيد منفردًا لمكتب٤٩، وطلبوا منه ما طلب من الأخ عبد الرسول، ولكن الجواب هو الجواب، استشاط الضابط غيظًا وحنقًا، والتفت إلى الجلاوزة -الذين يعيشون الأمان من يقظة الضمير والغفلة من سطوة الرقيب- قائلا: أنزلوا العدة! والمقصود بالعدة أدوات التعليق، وهي إشارة يفهمها المعتقل الضحية لبدء نوبة التعذيب..

صعد أحدهم إلى أعلى الستارة -والتي يغطيها ديكور خشبي عريض توضع عليه عدة التعليق- فلم يجد العدة، ما في عدة سيدي، قال الجلاد!!

صرخ الضابط بوجهه: اذهب وتصرف وأحضرها من مكتب آخر، ولحسن حظ الأخ سعيد لم يحصلوا إلا على القيد الحديدي..

وضعوه في يديه بانتظار بحث بقية الجلاوزة للحصول على خشبة التعليق، وأكثر ما يزعج مباحث أمن الدولة العمل الإضافي في الجزء الأخير من الدوام، وهذا ما جعلهم في حالة من الإرباك والتذمر النفسي، وغالبًا ما يمارسون التعذيب بكل قسوة ووحشية في هذه الفترة حتى يجبروا المعتقل على سرعة الاعتراف لتخليصهم من العناء الذي هم فيه، إلا أن وضعية الإرباك وانتهاء الدوام أنقذا الأخ سعيد من الموقف، وبذلك أفلتَ من وجبة التعذيب المنتظرة "وكأن يد اللطف الإلهي حينها امتدت لتخفيف عذابه".

استمر مسلسل الاستدعاءات اليومية لمدة تربو على الشهر متراوحة بين سياسة الترهيب والترغيب، كما لجأ جهاز المخابرات إلى إقحام كافة العائلة في القضية لإيجاد حالة من الاختلاف في

الوسط العائلي بسبب جرجرتهم لمكاتب التحقيق، فقامت المخابرات باستدعاء الإخوة الكبار، فتم استدعاء الأخ جاسم عاشور وهو أكبر الإخوة، كما أنه يشغل منصبًا إداريًا هامًا وحساسًا في البنك الأهلي في حينها، وكثرة استدعائه من قبل مباحث أمن الدولة -والتي تتطلب تخلفه عن العمل- تسبب له الكثير من الحرج والانزعاج بحكم منصبه الإداري الحساس، وقد عمد جهاز المخابرات لفتح الملف القديم مع الأخ جاسم عاشور؛ حيث إنه معارض سياسي سابق اعتقل لمدة خمس سنوات في سجن جدة سابقًا في فترة السبعينيات..

وزيادة في الضغط وأسلوب التهديد المبطن أوكلوا إليه مهمة نصح الأخ عبد الرسول في التعاون مع جهاز المخابرات، إلا أن الأخ جاسم عاشور لم يقبل بتلك المهمة معللاً ذلك بأن الأخ عبد الرسول رجل عاقل ورشيد ويستطيع موازنة الأمور، وباستطاعته تحديد مصلحته ولا سلطة له عليه، كما أنه ليس في وضع النصح والإرشاد، وبذلك لم تفلح المخابرات هذه المرة أيضًا مع الشقيق الأكبر.

استمرّ الوضع بهذه الصورة، وفي كلّ مرّة كانت المخابرات تتوسّل بأسلوب جديد، وكانت تأمر بإحضار أخ جديد

بالإضافة للإخوة الذين تستدعيهم بشكل يومي، حتى بلغ الأمر في بعض الحالات أن يحضر أربعة من الإخوة في وقت واحد بهدف الضغط على نفسية الوالدة، وهي سياسة خبيثة تهدف لعملية إيجاد الاختلاف بين الإخوة بتحميل الآخرين -الذين لا تربطهم علاقة بالموضوع- تبعات القضية، مما يوجد شرخًا في جدران العلاقة الأخوية، على أمل أن يقوم الآخرون بإلقاء اللائمة على الأخ عبد الرسول، إلا أنها سياسة باءت بالفشل كالعادة في فشل أساليب المخابرات.

صفقة المشيمع مع الحكومة

شهر بأكمله -والدنيا في عزّ الصيف- ولا زال إخوتي يترددون على مبنى المخابرات بشكل يومي، كان لزامًا عليهم التواجد قبل السابعة صباحًا من كل يوم! كما أنه لا يسمح لهم بالانصراف قبل الثانية ظهرًا، كان عليهم البقاء في غرفة الانتظار طوال اليوم، إنه عمل أشبه بتسجيل الحضور اليومي يهدف لتسجيل الغياب اليومي في سجلات العمل..

في هذا الوقت بالتحديد أفرجتْ أجهزة الأمن عن الأستاذ حسن المشيمع ومجموعة من رفاقه، وأشيع الخبر بأن الإفراج تم وفق صفقة أبرمتْ مع الحكومة مقابل التهدئة على أن تقوم الحكومة بالإفراج عن الأستاذ عبدالوهاب حسين مع ١٥٠ معتقلاً بتاريخ ٧ سبتمبر بينما يتم الإفراج عن الشيخ الجمري مع ٥٠٠ معتقل بتاريخ ٣٠ سبتمبر على شكل مجموعات حالة استتباب الهدوء في البلد..

استدعاني الأستاذ المشيمع لمنزله وشرح لي حيثيات الاتفاق مع الحكومة، إذ تقوم فكرة المبادرة على مرحلتين، الأولى هي المرحلة الأمنية، والثانية هي المرحلة السياسية، فالمرحلة الأمنية تقوم على التهدئة في مقابل الإفراج عن المعتقلين، تليها المرحلة السياسية، وهي مرحلة الحوار مع القيادة السياسية حول بقية المطالب الشعبية، والتي على رأسها إعادة الحياة النيابية والانتخابات الحرة في البلد، وقد طلب مني تغيير لغة الخطاب وحث الناس على التهدئة لضمان خروج آخر معتقل في السجون، على أن تليها بقية المطالب في المرحلة المقبلة.

ابتسمتُ بداخلي وعرفتُ سرّ الحلقة المفقودة التي دعت أجهزة الأمن لعدم اعتقالي!! فقد كان الفاصل الزمني بيني وبين ولادة مبادرة التهدئة ٤٠ يومًا بعدد ميقات موسى، إلا أن جهاز المخابرات لم يتوقف عن عملية الملاحقة والمطاردة، وما قضية الإخوة إلا أحد نماذجها ومصاديقها ، فلا زال الإخوة يعانون من مرارة التحقيق والاستجواب اليومي .

تكلمتُ مع الأستاذ حسن المشيمع حول هذه القضية وأن إجراء الاستدعاء اليومي وأسلوب الاستفزاز لا يتفق وأجواء المبادرة وأجواء الإفراجات التي تعم البلد!!

فقام الأستاذ حسن بالتحدث بشكل مباشر مع طاقم المخابرات في اليوم التالي، إلا أنّ المخابرات —وكعادتها- أنكرت القضية مدعية أن القضية انتهت، وأنه ـ وبسبب الغفلة والنسيان ـ لم يغلق الملف، وأخبروه باستطاعته استلام الإخوة ولا داعي للحضور في الأيام المقبلة، شهد الجميع في هذه الفترة مرحلة الانفراج السياسي، وعاشت الناس ذروة الابتهاجات لإطلاق سراح السجناء على شكل دفعات..

توالت تلك الأفراح وعاشت الناس جوًا من الحرية منقطع النظير، حيث كانت مسيرات استقبال المعتقلين تجوب المنطقة تتقدمها الرايات وصور الشهداء..

نجحت محاولات التهدئة والتزم الجميع بالهدوء وغابت أصوات انفجارات اسطوانات الغاز وأزيز الرصاص المتطاير في كل مكان، فقد تغاضت الناس عن مشاعرها محاولة تناسي جراحها النازفة حيث دماء الشهداء لم تجف بعد..

في كل هذه الأجواء من الهدنة حدثت الانتكاسة في قضية مبادرة التهدئة، حيث أنكرت الحكومة وفي نفس الشهر الذي أطلق فيه سراح المشيمع - على لسان وزير الإعلام السابق - محمد المطوع - في مقابلة مع إذاعة لندن- أنكرت حصول أي

اتفاق سياسي مع المعارضة من داخل السجن قائلاً العبارة الشهيرة: إن الحكومة لا تفاوض سجناء!!

وإن كل ما حصل أن الحكومة ارتأت الإفراج عن المعتقلين بعد أن قام السجناء بالتوقيع على التعهدات اللازمة المطلوبة منهم بعدم تكرار حوادث الشغب!!

وفي خطوة احتجاجية ـ على تلكؤ الحكومة في قضية الإفراج عن بقية المعتقلين والتنصل من وعوداتها في تنفيذ بقية البنود في المرحلة السياسيةـ أقدمت مجموعة المبادرة على خطوة الاعتصام والإضراب عن الطعام ببني جمرة بمنزل الشيخ الجمري وذلك بشهر اكتوبر لعام ١٩٩٥ م.

استمر الاعتصام لعشرة أيام بعدد أيام عشرة الفجر ..

كان دوري في هذه الفترة ـ مع مجموعة أخرى من الإخوةـ هو التنسيق بين الوفود ومجموعة المبادرة لترتيب عملية الزيارات ومواعيد الاستقبال وتأمين السيارات لنقل المعتصمين للمستشفى حالة الإعياء والضرورة، كما تم ترشيحي مع مجموعة أخرى لإلقاء بيان المبادرة غير الختامي في يوم الجمعة..

تم إيفادي لمنطقة النويدرات في المكان ذاته الذي

يصلّي فيه الأستاذ عبد الوهاب حسين، كما تم إيفاد آخرين لمسجد الصادق بمنطقة القفول وبقية المراكز الحساسة من أماكن الصلوات المركزية بالبلد، وبنهاية اليوم العاشر أُعلن عن نهاية الاعتصام وفك الإضراب عن الطعام والشراب بعد تحقيق رسالة الاعتصام، على أن يكون البيان الختامي ليلاً لسماحة الشيخ الجمري.

استدعاء مكتب وكيل وزارة الداخلية

اتجهت الأمور نحو التأزم..

فالحكومة متمسكة بهيبتها ولا تريد إقرار المطالب الشعبية، والناس متشبثة بمطالبها لا تريد التنازل عن حقوقها، خاصة بعد تقديم القرابين والتضحيات..

وبمرور الوقت بدأت الحكومة تلوح بالعصا بدون الجزرة عبر الصحافة، فصارت تتهمنا بتوظيف المساجد والمنابر لغرض التحريض، وفي خطوة ملفتة قامت أجهزة الأمن باستدعاء الأستاذ حسن المشيمع بمركز الخميس..

اجتمعنا في منزل الأستاذ المشيمع بجد حفص بانتظار عودته، وفي غضون الساعة عاد الأستاذ ليبلغنا رسالة واضحة لا

غموض فيها من قبل سلطات الأمن يخبرنا فيها بحظر ممارسة الخطابة!! وكل من يتعاطى السياسة في خطاباته سيكون أمام المساءلة القانونية!!

وقد كان الشيخ حسن سلطان أول من قام بتحدي وخرق هذا القانون عندما تناول في خطابه موضوع الشهداء في حفل تأبيني بمدينة حمد..

قامت إدارة التحقيقات الجنائية باستدعاء الشيخ سلطان وخيَّرته بين السجن وبين الغرامة المالية التي تقدر بخمسمائة دينار، بقي في السجن لمدة يومين كاملين وقد تم الاتفاق على عدم تسديد الغرامة المالية، إلا أن الشيخ سلطان -وبحسب تشخيصه للموضوع- وجد أن المصلحة في تسديد الغرامة المالية تفوق المصلحة في بقائه بالسجن.

اجتمعت كلمة المشائخ فيما بعد - لتفويت الفرصة على أجهزة الأمن في عدم إعطائهم أي ذريعة للاعتقال- على مركزية صلاة يوم الجمعة بإمامة الشيخ الجمري بجامع الإمام الصادق بالدراز على أن يقوم الجميع بحضور الصلاة والإعلان عن إلغاء بقية مراكز الصلاة في يوم الجمعة، وفي خطوة استباقية - وقبل تفعيل الخطوة- قامت أجهزة الأمن بتطويق جامع الإمام الصادق

بالدراز ومنعت الحشود البشرية من التوجه للجامع عبر الطوق الأمني، كما حظرت على الشيخ الجمري إمامة الجماعة بمنطقة الدراز وحددت له الصلاة بمنطقة بني جمرة فقط..

كما قامت بفرض طوق أمني أيضا يحول دون الوصول للجامع الذي يصلي فيه الشيخ الجمري إلا من قاطني منطقة بني جمرة، وقد كان من برنامج الشيخ الجمري أن تكون صلاته في مساء يوم الجمعة بمسجد الصادق بمنطقة القفول أيضًا، إلا أن الشيخ تفاجأ بالطوق الأمني أيضا مضروبا على محيط المسجد.

اتجهت الأمور نحو التأزم بشكل أكبر، وقد كان الوضع مرشحًا للانفجار في أي وقت، خاصةً أن الطوق الأمني المضروب على مسجد الصادق أدى لحصول تصادمات عنيفة بين الشباب ورجال الأمن حتى وصلت المطاردات لمداخل منطقة الزنج والبلاد القديم، وكان هذا المشهد يتكرر مساء كل جمعة، وفي خطوة احتجاجية يقوم بعض الشباب بحمل لافتات مكتوب عليها:
- نريد أن نصلي -!

وفي ضحى أحد أيام أواخر شهر ديسمبر من العام ١٩٩٥ م قام مكتب وزير الداخلية بالاتصال هاتفيًا بمنزل الوالد طالبًا من الوالد ضرورة إخباري بأهمية الحضور لمكتب وكيل الوزارة

الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة عند العاشرة صباحًا، لم يكن في تلك الفترة قد انتشرت تقنية الهواتف المحمولة كما هي عليه الآن، وكنا نستعين بتقنية البيجر – البليب –، وجدتُ رقم الوالد لأكثر من مرة في جهاز البيجر بمعدل كل خمس دقائق، أحسستُ بأن هناك أمرًا هامًا فتوجهت لبيت الوالد على وجه السرعة..

أخبرني الوالد بالأمر، وفي محاولة لطمأنتي قال لي الوالد بأن الاستدعاء شمل الشيخ الجمري والأستاذ عبد الوهاب والمشيمع وبقية المجموعة، شعرتُ بأن الحكومة ضاقت بنا ذرعًا وأن الأمور وصلت لذروتها وأن ساعة الصفر قد اقتربت، وعند العاشرة صباحًا توجهتُ لمكتب الوزير الذي يضم مكتب وكيل الوزارة.

كانت الوجوه متجهمة للغاية، وكأن الطير على رؤوسها، وكانت هناك حالة من الاستنفار والطوارئ بمكتب الوزير، فقوات مكافحة الشغب منتشرة في محيط المكتب وأصابعهم على زناد البنادق في حالة أشبه بدخول معركة قتالية، ولعلها رسالة واضحة على مدى الجهوزية والاستعداد..

اصطحبني موظف الاستقبال ذو اللباس المدني إلى قاعة كبيرة مجهزة بأحدث وسائل التقنية، وقد وجدتُ هناك الشيخ

الجمري وبقية المجموعة قد سبقوني الحضور، بقينا في تلك القاعة لمدة تجاوزت الساعة ونصف الساعة تقريبا..

بعد أذان الظهر بدأ الحاجب بالتصويت على الأسماء بشكل أحادي، وكل من قاموا بالتصويت على اسمه يطلبون منه المغادرة من بوابة خاصة لا تطل على قاعة الانتظار تحاشيا من الالتقاء.

.. الدموع الخرساء ..

كانت ديوانية كبيرة تحيطها الأرائك الفخمة المريحة من الجهات الثلاث، وقد كان وكيل الوزارة يتصدر الديوانية..

ساعة دخولي قام أحدهم بتحديد الموقع الذي أجلس فيه، ثم قام بتعريفي للحضور، كما قام بإخباري أن الحضور هو عبارة عن مجموعة من ضباط مباحث أمن الدولة بالإضافة إلى ضباط اللجنة الأمنية التي شكلتها وزارة الداخلية أبان فترة الانتفاضة، أمسك وكيل الوزارة بورقة وتلا فيها ما أسماه بالإخطار أو الإنذار النهائي!!

تضمن ذلك الإنذار عدة نقاط، وقد كان من أبرزها وأهمها عدم استغلال المساجد والمنابر بما وصفه بالخطابات التحريضية، وعدم الدعوة للمسيرات والاعتصامات والعصيان المدني بدون الحصول على إذن كتابي من الجهات المختصة بوزارة الداخلية، والالتزام بالهدوء وعدم إثارة الفوضى، وإلى

غيرها من البنود..

في النهاية قلت لوكيل الوزارة ـ عندما طلب مني التوقيع على الورقةـ ولكني لم أرتكب أيًا من تلك البنود، وتوقيعي يعني إقراري بما جاء فيها، فقال لي: أنت ستوقع على الاستماع لورقة الإنذار فقط، قلت له: سأكتب هذه الملاحظة بجوار توقيعي، لك ذلك، أجابني وكيل الوزارة وهو يشيح بوجهه عني..

بدأت بكتابة الملاحظة قبل التوقيع في أسفل الورقة..

انزعج ضابط مباحث أمن الدولة وقال لي بعصبية: لقد -عفست - مكان التوقيع! ثم أشار لي بإمكانية الخروج.

بعد الظهيرة التقينا جميعًا بمنزل الأستاذ المشيمع وعرفتُ أن الجميع قد قام بتدوين نفس الملاحظة بجوار التوقيع ولكن بألفاظ وتعابير مختلفة..

عدا الأستاذ عبد الوهاب حسين الذي رفض التوقيع من الأساس !!

وفي اليوم التالي قام مكتب الوزير باستدعاء الأستاذ عبد الوهاب حسين ثانية طالبًا منه التوقيع على ورقة الإخطار، فأجابه الأستاذ: وما هو الجديد حتى أقوم بالتوقيع؟! فخيَّروه بين التوقيع أو

السجن، فقال: ﴿ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾[1]، فتمّ إعطاء الأمر بإيداع الأستاذ بالسجن، فكان السجين الأول الذي افتتحت أجهزة الأمن به أبواب المعتقلات بعد مبادرة المشيمع ..

وفي وقت لاحق –وبعد صدور الأمر باعتقالنا– عرفنا بأن المخابرات قامت بإدراج أسمائنا وتوقيعاتنا في جريدة الأيام موهمةً الناس بأننا قمنا بالاعتراف بخطئنا وإقرارنا بما نسب إلينا، وقد تَصَدَّرَ الخبر الصفحة الأولى، وفي الأسبوع الثاني من اعتقال الأستاذ عبد الوهاب حسين تم اعتقال الشيخ محمد الرياش بعد خروجه من المسجد بعد صلاة المغرب وقد وافق ذلك التاريخ ليلة النصف من شعبان المعظم..

وبمرور أسبوعين كاملين صدر القرار السياسي باعتقال كامل المجموعة وتفريقها بالسجون الانفرادية..

وفي الليلة الأخيرة من شهر شعبان المعظم لعام ١٤١٦هـ الموافق ٢٠ يناير ١٩٩٦ م –ولا أنسى أنها كانت ليلة السبت– وبعد عودتي من البلاد القديم وبوصولي لمدينة حمد تلقيت مكالمة هاتفية عرّف فيها المتحدث نفسه بأنه من مباحث أمن الدولة، طلب مني ضرورة الحضور عند التاسعة مساءً إلى مركز الرفاع للالتقاء

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

بوفد أمن الدولة لخمس دقائق فقط..

قمتُ بمهاتفة ومخابرة بقية المجموعة فعرفتُ أن الاستدعاء شمل الجميع عدا الشيخ الجمري، وقبل خروجي من البيت أجريتُ مكالمةً هاتفيةً ودعّتُ فيها الشيخ الجمري، وقد أخبرتُ زوجتي بالأمر وأن الفراق سيطول..

خرجتُ بعائلتي البسيطة باتجاه البلاد القديم للوداع الأخير، وفي الطريق أوصيتُ أم سجاد بالوصايا الأخيرة طالبًا منها الصمود، وقد أجريتُ معها بعض الاتفاقات والترتيبات لمرحلة ما بعد السجن .

طفتُ على بيوتات العائلة والأهل للوداع الأخير، أطلتُ البقاء عند الوالدة محاولا تصبيرها ورفع معنوياتها، فكنتُ أتصنع الابتسامات على وجهي..

خرجتُ من عندها وأنا أحبس دموعي حتى لا تراها، وبالمقابل شعرتُ أنها كانت تحبس دموعها حتى لا أراها، إلا أن بريق الدموع يتلألأ في عينيها..

عدتُ إلى بيت عمي لتوديع زوجتي وأبنائي الوداع الأخير، احتضنتُ ابني سجاد ذا السنوات الخمس وأخبرته بأني

سأفتقده لأني سأدخل السجن، تعلق بعباءتي طالبا مني مرافقتي للسجن !

قلت له: أنت رجل كبير والماما بحاجتك فابقَ هنا، فقال لي: أريد أن أرى السجن، أشحتُ بوجهي عنه في محاولة للضغط على نفسي الضعيفة منعًا لانحدار دموعي على وجهه الطفولي.

صممتُ أن أبقى قويًا.. أن أبدو متماسكًا.. حتى أستطيع أن أقول لزوجتي كلمات تتذكرني بتلك الكلمات ولوقت بعيد ربما تخفف عنها عبء المسئولية..

حاولتُ أن أريها وجهي وأنا مبتسم.. حاولت اصطناع ابتسامة وان كانت ستولد ميتة على شفتي..حتى أطردَ القلق من نفسها.. لأن وجهي سيكون مرآتها في قوة التحمل والجلد وكنتُ أعلم تماما لو أني سمحت لنفسي ولو بالشيء البسيط فان تلك الساعة ستتحول إلى نياحة ومأتم لا ينتهي..

أوصيتها بأن تكون قوية أمام الآخرين وأمام الأبناء وأن تسعى لأن تبني من أبنائي جيلاً إسلاميًا فالمجتمع بحاجتهم. ودعتُ أهلي وعائلتي وعانقت أبنائي.. وطبعتُ على جباههم قبلات العطف والحنان وقد أوصيتُ خالهم في حينها وقلت له من الآن وصاعدًا وحتى رجوعي هؤلاء أيتامي أمانة في أعناقكم.. ثم

مسحتُ على رؤوسهم ودعوتُ لهم بالصبر ورباطة الجأش.. وعندما هممتُ بالخروج كانت نظرات ابنتي الصغيرة ذات الشـــهور الأربعة تلاحقني..

جذبتها إلى صدري وطوقتها بحنان وعاطفة ومسحتُ على رأسها وأنا أقرأ في أذنيها آيات الحفظ، كما أوصيتُ زوجتي بالصمود والصبر.

وبحق فقد كانت ساعةً من أصعب الساعات، والمرء يودع أهله وهو لا يملك لهم إلا الدعاء..

نظرتُ نظرة الوداع في عيني زوجتي فقرأتُ في عينيها خوف الزوجة على زوجها.. الزوجة التي تكن فائق الاحترام والتقدير لزوجها..

كنتُ أقرأ في عينيها تساؤلات عديدة.. كيف سيتعاملون مع هذه العمامة ؟؟

هل سيحترموها ؟؟ أم أنهم سيشبعوها قهرًا وإذلالاً ومهانة؟؟؟

شعرتُ بأن فؤادي يتفطر من الحزن والأسى العميق..

لعله اللقاء الأخير أحبتي جميعًا..

لا أرى إلا دموعًا خرساء أبتْ إلا أن تسيل بدون استئذان، وقد تركتُ العنان لدموعي بالتدفق كيفما شاءت لدرجة أنها كانت تغشى عيني عن الرؤية..

جلتُ ببصري على عائلتي البسيطة التي ستعيش حياة التشرد بعدي و خرجتُ وأنظار الجميع تشيعني.. خرجتُ لله.. واستودعتهم الله الذي لا تضيع ودائعه.

ملائكة الحفظ

لم يكن الوقت قد تجاوز الحادية عشر ليلا حين وصولي لمركز الرفاع، إلا أني تفاجأتُ بأن بلاغًا تم تعميمه على منافذ الحدود البرية والجوية عبر جسر البحرين ـ السعودية ومطار البحرين الدولي بمنع محاولة خروجي من البلد؛

جاء هذا التعميم ظنًا منهم بأني حاولت الهرب نتيجة لتأخري في تسليم نفسي للمركز، فقد تأخرتُ لأكثر من ساعتين، تخطيتُ العساكر المدججة بالسلاح لعلمي بأنهم لا يتقنون اللغة العربية ولا يفقهون ما يدور حولهم، فتقدمتُ من أحد عناصر مباحث أمن الدولة المنتشرة في المركز وعرَّفْتُه بنفسي فطلبَ مني الجلوس في غرفة الانتظار، وهناك التقيت بالشيخ حسن سلطان؛ إذ نحن الاثنين تم استدعاؤنا عبر مركز الرفاع؛ حيث المركز يتبع المنطقة التي نقطنها، بينما تم استدعاء بقية المجموعة عبر مركز الخميس، في هذه اللحظات أخبرني الشيخ حسن سلطان بأن أجهزة

أمن الدولة أقدمت على اعتقال جميع العاملين والناشطين في أنحاء البحرين بما فيهم أئمة الجماعة تمهيدا لاعتقال الشيخ الجمري في خطوة استباقية وهي ما تعرف بالاعتقال الاحترازي منعًا لقيام أي فعالية احتجاجية حالة اعتقال الشيخ الجمري..

وقد عُرِفَتْ تلك الاعتقالات بالقمعة الأمنية؛ إذ أن غالبية المعتقلين تم اعتقالهم بناءً على قانون الطوارئ، ولا توجد ضدهم أية جناية تستحق الاعتقال، وإنما هو اعتقال احترازي!!

في هذه الأثناء تقدم مني عنصران من مباحث أمن الدولة وطلبا مني مرافقتهما إلى مكتب المدير، كان العنصران يمشيان من ورائي، كما كان عنصران آخران مسلحان، أحدهما كان عن يميني والآخر عن يساري "كملائكة حفظ" ولكن ملامحهم تشبه الموت..!! يرافقاني إلى مكتب المدير..

أصعدوني للطابق العلوي عبر الدرج، أوصلوني لمكتب سكرتير المدير وطلبوا مني الانتظار لحين انتهاء مكالمة المدير الهاتفية، وبحسب ما عرفت من الجنود بأنها كانت مكالمة مع مخابرات أمن الدولة.

بعد انتهاء المكالمة أدخلوني لمكتب المدير، كان مكتبًا متواضعا، وكان المدير قد خلع قبعته العسكرية، وقد عرفتُ أنه

برتبة عقيد بدلالة الرتبة العسكرية، وهي علامتا التاج والنجمتان اللتان تستريحان على كتفيه، قام على قدميه وخرج من محيط مكتبه وصافحني بحرارة وابتسم بوجهي وهو يهز يدي مرحبًا بقدومي، أشار بيديه بكل ترحيب للإذن بالجلوس..

قدم لي التهاني والتبريكات بحلول شهر رمضان المبارك حتى دخل معي في حوار فقهي حول الاختلاف في إثبات هلال شهر رمضان المبارك، والفرق بين نظرية الإثبات الفلكي والرؤية المجردة محاولاً بذلك تلطيف الجو..

في الأثناء استدرك بحركة مصطنعة قائلا: آسف، لقد أَخَذْتَني بالكلام ونسيتُ سؤالك عن مشروب الضيافة، ماذا تشرب يا شيخ؟ سألني المدير..

قلت له: لا بأس بالماء من فضلك، عرض عليَّ العصيرات والمشروبات الساخنة إلا أني اكتفيت بالماء..

فتح درج مكتبه وأخرج عبوة المياه المعدنية ذات الحجم الصغير فوضعها على المكتب قائلا: تفضل..

لحظت أن المدير كان ينتظرني لمبادرته بالسؤال عن سبب الاستدعاء..

تجاهلتُ الأمر مبديا قدرًا كبيرًا من رباطة الجأش وعدم الاكتراث، حوَّلتُ مجرى الحديث وسألته عن قضايا السرقات والمخدرات وبقية الجرائم الجنائية التي مرَّتْ عليه كمديرٍ للمركز، فأخبرني بأن غالبية المسجونين لديه في سن الحدث نتيجة التفكك الأسري الذي تعيشه منطقة الرفاع..

في هذه الأثناء قطع حديثي المسترسل معه قائلا: على كل حال، تشرفنا بمعرفتك وأنا أعتذر على إزعاجك، وأنا لستُ من قام بطلبك، فأمن الدولة في طريقهم إليك يريدون التفاهم معك لبعض الوقت، فقلت له: أفهم ذلك جيّدًا.

أدار كرسيه الدوار للناحية اليمنى ثم ضغط على زر الجرس فدخل عنصر مسلح فطلب منه المدير مرافقتي لغرفة الانتظار، وبوصولي لغرفة الانتظار تفاجأت بعدم وجود الشيخ حسن سلطان، فعرفتُ أن القوم قد أخذوه للمكان المجهول..

بعد لحظات بسيطة وصل وفد عسكري، وهو عبارة عن ضابط برتبة نقيب وبرفقته أربعة عناصر مدججة بالسلاح، اثنان منهما مزودان بسلاح فردي يربطان حول خصرهما حزامًا يحمل الطلقات النارية، واثنان منهما يحملان السلاح الطويل ذو الفوهة الواسعة المعروف بسلاح –الشوزن-.

تقدم مني ضابط الكتيبة وبوجه عابس طلب مني مرافقته بسيارة – الديسكفري –، أجلسوني في وسط السيارة بينما جلس عن يميني وشمالي العنصران المسلحان كإجراء أمني معروف لدى أجهزة الأمن، بينما جلس النقيب في مقدمة السيارة، انطلقت السيارة، وكانت ترافقنا أربع سيارات عسكرية للحراسة، اثنتان منهما في المقدمة واثنتان في المؤخرة..

أخذوني للقلعة حيث العيادة العسكرية، أدخلوني على طبيب عسكري يرتدي الملابس المدنية بدليل أن النقيب ألقى له التحية العسكرية، فقام بفحصي ابتداءاً من الضغط والسكري ومرورًا بعينات الدم وانتهاءاً بتخطيط القلب، ثم سلم ورقة التقرير الطبي للنقيب..

تحرّكت السيارات والحراس المدججون بالسلاح نحو المجهول، فقد عرفتُ أنه حتى سائق السيارة لا يعرف إلى أين سيتجه، فالنقيب المسئول عن الكتيبة وعن اعتقالي يتلقى الأوامر العسكرية من إدارة المخابرات عبر اللاسلكي خطوة بخطوة..

وعند الواحدة فجرا تقريبًا وصلنا لسجن الحد القديم، وقد أودعوني الزنزانة الانفرادية التي قضيتُ فيها تسعة أشهر من عمري

"تمامًا كالجنين في بطن أمه" من دون أن أرى أحدا أو أعرف ما يدور حولي عدا الحشرات الزاحفة التي تتجول في الزنزانة.

الحصول على صحيفة

من الواضح أن جهاز المخابرات يلجأ لعقوبة السجن الانفرادي لتحطيم المعنويات وإرهاق النفسيات باليأس والهزيمة والتخلي عن الأفكار والمبادئ التي من أجلها دخل السجين المعتقل، فقد وجدتهم بشتى الأساليب والوسائل يحاولون إسماعي بعض الأخبار التي يريدونها، والتي توحي بأنني أصبحتُ وحيدًا؛ لذلك أقولها ـ ومن باب التجربة والمعاناة والمرارة ـ إن على السجناء التذكر دائما أن أصدقاءهم في الخارج لا ينسونهم، وأن أهلهم وعوائلهم يعتمدون على صمودهم..

برغم الحراسة المشددة علينا حاول الإخوة في سجن الحد القديم -لا سيما مجموعة قرى الدير وسماهيج- تكرارًا ومرارًا إخراجي من تلك العزلة الظالمة التي فرضتْ علي، وقد استطاعوا بالفعل ابتداع وسائل للتواصل وتمرير المعلومات المختلفة بيننا بطرق خاصة، فبواسطة وسيلة الضرب على الجدران

واستخدام وسيلة الكأس للتخاطب والمحادثة استطعتُ التعرف على جميع السجناء، وكنت أقومُ بالإجابة على تساؤلاتهم الفقهية والشرعية، وفي خطوةٍ جريئة قام الإخوة بتحديد وقت محدد للحديث معهم وجهًا لوجه عبر فتحة التهوية الموجودة بأعلى الزنزانة على أن يقوم البعض الآخر برقابة الوضع وسلامة الأجواء، وقد وقع الاختيار على الزنزانة الانفرادية الأخرى بهذه المهمة؛ لأنها تقع بالمقابل لمكتب السجانين، وعليه أن يعطي الإشارة للصعود أو النزول، وفي الوقت المحدد -وبعد إعطاء الإشارة- كنت أعتمد على السطل الموجود عندي للوقوف عليه، وذلك بالاستفادة من الفتحة الموجودة في نهاية باب الزنزانة، والتي تقدر بمقدار أربعة أصابع، وكنا غالبا ما نختار الأوقات المتأخرة من الليل، وربما أوقات السحر وما قبل الفجر، وفي بعض الأحايين وبفعل حرارة ورطوبة الجو استطعنا الإفلات من المراقبة الأمنية طوال الليل إذ لا قدرة لرجال الأمن على تحمّل الحرارة والرطوبة المرتفعة.. فكانت فرصتي الوحيدة لاختلاس الوقت لتبادل الأحاديث ومعرفة مستجدات الوضع، إلا أن صاحبي في الزنزانة الانفرادية الأخرى لم يكن ليحسن كيفية الوقوف على السطل، فكان يقف على وسط السطل بدلاً من أطرافه؛ لذلك كان سريعًا ما ينكسر السطل من الوسط، ونتيجة لتكرار استبدال السطل رفضتْ

إدارة المركز إعطاءه سطلاً خامسًا!!

وبصورة ذكية استطاع الشباب الحصول على جريدة الأيام من عقر دار رجال الأمن، فقد اعتاد رجال الأمن على استخدام وتوظيف الشباب الصغار السن في تنظيف المكتب والمطبخ التابع لحراس السجن، إلا أن الشباب قاموا بتنظيف المكتب تنظيفًا كاملاً، وقد جرى التنظيف على بعض أدوات المكتب من أقلام وأوراق بالإضافة للصفحة السياسية لجريدة الأيام، وقد اعتاد حراس السجن على إكرام الشباب بعد خدمة التنظيف بتقديم وجبة غداء من وجباتهم الخاصة، لذلك تجد الشباب يتنافسون على خدمة التنظيف ، وأحيانًا يتناوبون الأدوار، وفي المساء أخبروني بأنهم سيضعون الجريدة في دورة المياه على أن أستلمها ظهرًا وأقوم بإرجاعها مساءً..

وبحسب الاتفاق والإشارة فهمتُ أن العملية تمت، فقمت باستلام الجريدة لتقع عيني على تفاصيل قضية حزب الله مع مجموعة كبيرة من الصور المنشورة.

جريمة حمل القرآن!

كعادتي كنت أحمل قرآن الجيب بشكل دائم معي، وقد خدمتني هذه العادة الحسنة بشكل كبير عند دخول المعتقل، فقد استثنت إدارة مركز الحد قرآن الجيب من المصادرة وأبقته معي، فكنت المعتقل الوحيد الذي يحمل قرآنًا بتصريح رسمي بداخل السجن، وفي الأسبوع الأول من الاعتقال استجابت إدارة السجن لمطالبي المتواضعة والمتمثلة بالسماح بإدخال بعض الأمتعة الشخصية مع قرآن متوسط الحجم، وذلك بعد أن قمت بعملية الإضراب عن الطعام احتجاجًا على عدم التزام إدارة السجن بوعودها المتكررة بتوفير حاجياتي الشخصية واللازمة..

بعد نجاح خطوة الإضراب مع إدارة السجن حاول السجناء مرارًا وتكرارًا بإقناع إدارة السجن بتوفير نسخة واحدة فقط من القرآن الكريم في كل زنزانة، إلا أن جميع محاولاتهم اليائسة باءت بالفشل، بعد اليأس والإحباط النفسي الذي أصاب السجناء

لتجاهل الإدارة المشاعر الدينية للسجناء طلب مني صاحبي -الذي يجاورني في الانفرادية الأخرى- بأن أترك له قرآن الجيب في مكان ما ليقوم باستلامه، وقد اتفقنا على كلمة واحدة حال اكتشاف الأمر، وتمت العملية بأن تركتُ القرآن الكريم في المكان المحدد وقد نجحت المحاولة بأن تمّكن من استلامه بكل أمان، وقد بقي القرآن الكريم لفترة زمنية ليست باليسيرة مع صاحبي، وقد قام بختم القرآن لعدة مرات كعادة السجناء، إلا أنه سرعان ما انكشف أمره بعد أن سمع أحد السجانين صوته مرتفعا بقراءة القرآن، وقد ضبطه متلبسًا بجريمة قراءة القرآن!

ويا لها من جريمة يعاقب عليها القانون!

باغته بفتح الزنزانة ومصادرة القرآن الكريم، وبحركة سريعة أغلق زنزانته بكل عنف ثم فتح زنزانتي وسألني عن قرآن الجيب الذي أحتفظ به، فكانت إجابتي متطابقة مع صاحبي بأني تركتُ القرآن نسيانًا على الحائط عند غسيل الملابس وبدوره أجابهم صاحبي بأنه وجد القرآن على الحائط وحفاظًا على قدسية القرآن من البلل أخذه معه إلى الزنزانة قبل يومين، عندها أحسست بقذارة العمل الذي يعتبر وجود القرآن عند السجين جريمةً يعاقب عليها القانون، قام ذلك الجلف بمخابرة مسئول النوبة وإبلاغه

بقضية التهريب المزعومة، ولكن أي تهريب هذا وأي جناية هذه؟!

يا لها من جناية بحق الأمن، القرآن الكريم بحوزة أحد السجناء، وقديما قالوا: - شر البلية ما يضحك -، فقد ضحكت بداخلي من شدة الألم والقهر، مستوطن أجنبي يأتي من بلاده ليعاقبنا على قراءة القرآن!!

ولكن عناية الله لم تغب عنا، فقد شعرنا بأن هناك يدًا خفيةً وراء الموضوع، فقد حضر الضابط المناوب وهو يعلم بأننا في الانفرادي وفي أسوء درجاته وأقسى حالاته، فحتى التهوية كانت بمقدار معين للسماح بدخول كمية من الأكسجين ليؤمّن بقاءنا على قيد الحياة، ولا يوجد أسوء مما نحن فيه، وبأي شريعة وبأي قانون سيعاقبنا؟!

يا لها من سخرية ما بعدها سخرية!

فقد قام بتوبيخ السجان المرتزق وتظاهر بعدم معرفته بعدم وجود القرآن في الزنازين، وطلب من السجان توفير القرآن الكريم لكل معتقل لأن الدولة مسلمة والحكومة مسلمة وجميعنا مسلمون، ولا نمنع أحدًا من قراءة القرآن، وقد انقلب السحر على الساحر، وقد أراد السجان ضرًا فنفع؛ لذلك قام الجميع بشكره على هذه الخطوة الممتازة.

وفي حادث منفصل مشابه لهذه الواقعة كان هناك فرض حالة طوارئ في موسم عاشوراء، وذلك بمنع السجناء من التعزية واللطم على الصدور بأي شكل من الأشكال؛ وذلك لخوفهم من تفاعل السجناء وتحول الحالة العاطفية إلى حالة هستيرية تتحول إلى مصادمات مع السجانين، ولكن السجناء قاوموا المنع وقاموا بالتعزية في ليلة تاسوعاء ، قام السجان بإبلاغ مسئول النوبة بأن السجن تحول إلى حالة هستيرية من العاطفة والتفاعل مع المصيبة بدرجة يصعب السيطرة عليها، وفي أقل من نصف الساعة وصل مسئول النوبة -وكان معروفًا بشدته وغلاظته وقسوته- وقام بفتح الزنزانة وأخرج مجموعةً كبيرةً من الشباب وطلب منهم الوقوف بإزاء الجدار مع رفع اليدين والوقوف على رجل واحدة فقط بدون ملامسة الجدار، وطلب منهم معرفة اسم المنشد -على حد تعبيره- قاصدًا بذلك الرادود الحسيني، أجابه الجميع بالصمت، راح يسبهم ويشتمهم ويركلهم برجله بكل ما أوتي من قوة، ثم صار يسأل كل شاب على حدة والجميع يجيب بعدم معرفته بالرادود، حتى وصل لأصغر السجناء سنًا محاولاً استدراجه للاعتراف على الرادود الحسيني فوجده أكثرهم صلابة، لكمه لكمة قوية انخلع لها قلبي لشدتها وقوتها، فوقع على الأرض وهو يتلوى من شدة اللكمة القوية، حاول أن يتكلم الآخر للدفاع عن صاحبه إلا أن مسئول

النوبة أقفل له فمه بضربة خاطفة على وجهه حتى سمعت دوي الصفعة على خده فأخذ يترنح من جراء تلك اللكمة المفاجئة..

أحسَ بأنه فقد السيطرة على أعصابه وربما يقدم على جريمة، فانسحبَ من المعركة وهو يجر أذيال الهزيمة والخيبة..

وفي ليلة عاشوراء صارت النوبة على الزنزانة الأخرى في التعزية الحسينية مواساةً للزنزانة الأخرى التي أبدت صلابة وقوة في الموقف، بدأت التعزية بإخفات جميع أنوار السجن، ثم بدأت التعزية بصوت مرتفع بقصيدة الشيخ حسن الدمستاني..

أيها المهر توقف لا تحم حول الخيام

واترك الإعوال كي لا يسمع الآل الكرام

كيف تستقبلهم تعثر في فضل اللجام

وهم ينتظرون الآن إقبال الحسين

مرق المهر وجيعا عاليا منه الصهيل

يخبر النسوان أن السبط بالبوغا جديل

ودم المنحر جار خاضب الجسم يسيل

جاريا من نحره الدمُّ كما تنبع عين

تحوّل السجن إلى حالة هستيرية من البكاء والندب، وأكاد

أقسم بأن المسئول لو حاول أن يتدخل في تلك الليلة لكان في تدخله منيته لصعوبة السيطرة على الموقف، حتى أني وجدت بعض الحراس يحاول إخفاء دموعه والسيطرة على نفسه، وهكذا لا يمكن لأي قوة أن تكبت المشاعر الدينية بداخل أصحابها؛ لأمر لن يفهموه أبدًا.

حالة احتضار

بمقدار مرارة السجن الانفرادي إلا أنه بمثابة الفرصة الثمينة حيث انفراد المعتقل بخالقه، لا شيء يسد فراغ المعتقل ويؤنس وحشته سوى كتاب الله العزيز والارتباط بخالق السماوات والأرض، إنه شعور يطوي كل المسافات بين المعتقل وبين خالقه، شعور صادق بمدى قرب الخالق، ومدى رأفته ورحمته، وكيف أنه ربط على قلوب ساكني الزنزانات الانفرادية بالصبر والسلوان، فكانت عنايته لا تفارقنا، ولو لا رحمته لكنا من الهالكين..

فقد أحسست بوطأة الزمن لأول مرة في حياتي فطفقتُ أفكر في النهارات والليالي بعدما فرض التأمل عليّ نفسه..

لا زلت أتساءل كيف استطعتُ البقاء في ذلك القبر الموحش ٢٨٠ يومًا سعيدًا بسجن الحد !! نعم زهاء التسعة أشهر ذقت مرارتها وحنظل أيامها بصبر واحتساب، وجدت فيها أن عوامل الطبيعة لها أكبر الأثر سلبًا على الوضع الصحي والنفسي

للمعتقل، فعامل ارتفاع الرطوبة والحرارة يزيد حياة السجناء بؤسًا وشقاءً وقساوةً، ففي ذروة الصيف تشتد المعاناة بسبب ارتفاع درجة الحرارة إلى معدّل يتجاوز الأربعين، وضعٌ مرير ومقيت لا تطاق الحياة فيه بأي صورة من الصور، لا زالت ذكراه لاصقةً بذاكرتي.

كم كنتُ أستشعرُ مرارة الوضع بسبب الخصومة الشديدة بيني وبين النوم ، فالجو لا يطاق والرطوبة والحرارة في أعلى معدلاتهما ورائحة الهلاك تملأ المكان..

كنت أتقلب على الفراش، أشعرُ بالاختناق وضيق النفس، أشعرُ بالغثيان والرغبة في الترجيع، وأحيانًا أشعر بحالة الاحتضار وتسليم الروح، أكرر من قول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله، بعد استقبال القبلة وإغماض العينين، أكون بانتظار خروج الروح، ولكني أفتح عَيْنَيَّ ثانيةً لأجد نفسي بأني لا زلت على قيد الحياة، وتأبى روحي العروج إلى بارئها وخالقها..

كنت أرسلُ بصري إلى السماء أُشهد ملائكة الليل على حال ليس له مثيل..

كان العرق ينزل من جسمي بغزارة رهيبة، أشعرُ بأنه ينزل من رأسي و يسافر في جسدي، حتى غزتني الأمراض الجلدية

لحاجتي للاستحمام الدوري في كل ساعة، عندها قررت تمزيق الصمت والخروج عن حالة الهدوء ورفع الصوت عاليًا برفع اللوح الخشبي في القسم العلوي من باب الزنزانة وعدم حجب ما أباحه الله للعباد عني، ألا وهو الهواء الطلق..

استجابَ السجانون لي برفع اللوح الخشبي شريطة عدم الوقوف وعدم التحدث مع بقية السجناء على أن يقف السجان بجوار الزنزانة، وعند الظهيرة رفعوا اللوح الخشبي فجاءتني شمس أغسطس لتزيدني معاناةً على معاناتي، فكنتُ بين أمرين أحلاهما مرّ!!

الصبر على لهيب الشمس أو حجب التهوية، رجَّحتُ خيار مرارة الشمس وأشعتها القاسية، فكنتُ أقفُ لصلاة الظهر والشمس تصهرني مما زاد معاناة غزارة التعرّق عندي، شعرتُ بالجحيم الذي لا يطاق، ويبقى أن النفس الإنسانية اللطيفة التي يرتديها السجان إنما هي قناع جميل يخفي قبح وجهه المقيت، ولا أشكُ بأن له أنيابا أمضى من أنياب الذئاب المفترسة، وأن القلوب الرحيمة التي يتغنون بها إنما هي مخالب أغلظ وأقسى من مخالب السباع المتوحشة، حتى أنك لتجد أحدهم يضحك في حين أن قلبه مفعم بالأحقاد، وربما يتكلم عن الطهارة و لسانه غارق في وحل

الرذيلة، ويتكلم عن الجمال ونفسه مسكونة بالبشاعة، أشعرُ بمقتٍ هائلٍ لكل سخافات الحياة، وارحمتاه للوحوش المسكينة، كم هي مظلومة..

نخشاها ونحذر بطشها وافتراسها مع أنها أقل خطرًا وشرًا من بعض النفوس الإنسانية!

العناية الإلهيّة

عندما أودعوني تلك الزنزانة الانفرادية بسجن الحد القديم -ذلك المبنى المتهالك- كنتُ أولَ من افتتح ذلك المعتقل، ولا أبالغ إن قلت بأنه قبر مقفل، فطوله وعرضه لا يزيد على حجم القبر، عدا المساحة البسيطة التي لا تكفي لفتح الباب!!

طالبتُ تكرارًا ومرارًا بتحسين أوضاع ذلك القبر المقفل فيأتيني الجواب بأنك مجرد أمانة، ولا يحق لنا - كإدارة للسجن - اتخاذُ أي قرار من دون الرجوع لأمن الدولة، ففي النهار ـ وعبر الفتحة العلوية ـ تصليني شمس أغسطس بأشعتها الحارقة بلا رحمة، وفي الليل تكتم على أنفاسي الرطوبة العالية لدرجة الشعور بالغثيان، فلا إضاءة أستعين بها ليلاً سوى ضوء القمر، ولا مروحة تدفع عني بعض اللهيب..

فقمت بالإضراب عن الطعام لعدة مرات مطالبًا بتوفير أدوات النظافة وبعض الملابس الضرورية..

وصلت التقارير لأمن الدولة بأني أضربت عن الطعام لعدة مرات فجاءت الموافقة على فتح المجال للعائلة بإدخال الملابس وأدوات النظافة، فكانت الأدوات والملابس التي تصلني تمر عبر ثلاث محطات للمعاينة والتفتيش، فالمحطة الأولى مباحث شرطة الخميس، والمحطة الثانية مخابرات أمن الدولة، وأخيرًا محطة مباحث شرطة المحرق والتي بدورها تقوم بإرسالها إلى سجن الحد القديم.

كانت جميع هذه المحطات للتمويه على العائلة على مكان اعتقالي، وعلى الرغم من جميع هذه التحصينات الأمنية والإجراءات الشديدة إلا أن الأكياس التي تصلني من أم سجاد كانت نافذتي على العالم الخارجي، فبين الفينة والأخرى -وعبر تلك الأكياس- تصلني أم سجاد بقصاصة صغيرة بطريقة معينة لا تخلو من المجازفة والمغامرة قد اتفقتُ معها على طريقة إيصالها في ليلة الاعتقال..

وأجمل ما في الأمر وصول صورة ضحى ذات الشهور الأربعة مطبوعة على - فانيلة- بنفس طريقة ملابس الإعلانات التجارية، كنتُ أستقبلُ تلك الملابس بكل لهفة علني أجد تلك القصاصات الصغيرة التي تربطني بالعالم الخارجي، لذا أقدّر تلك

التضحيات والمجازفات التي تقوم بها أم سجاد، فهي تدرك تمامًا مدى خطورة الموقف، وكنا نستشعر ـ نحن الاثنين سوية ـ بأننا استطعنا اختراق التحصينات الأمنية المضروبة علينا، وكنا ندرك تماما ما تعنيه تلك المسألة.

في هذه الفترة العصيبة امتلأ سجن الحد القديم بالمعتقلين على شكل دفعات، ومن ناحية ثانية لم أتوقف عن المطالبة بالتحقيق والمحاكمة ولكن بدون جدوى.

وفي صباح يوم ١٩٩٦/٩/١٤م ـ وكعادته ـ وقف عنصر مباحث اللجنة العسكرية في وسط ساحة السجن وهو يصيح عاليًا باسمي، فقد اعتدنا على هذه الطريقة، ففي كل يوم يسحبون ضحية جديدة إلى التحقيق باللجنة العسكرية، وعلى كل من يستمع اسمه الاستعداد لتعصيب العينين وتقييد اليدين، وبالطريقة ذاتها قام ذلك العنصر بالتصويت على اسمي، فتح السجان الزنزانة وقال لي: أمامك عشر دقائق فقط، وبلهجة لا تخلو من التهديد والوعيد قال لي: لقد جاء دورك ..

أتذكر تماما ذلك التاريخ وتلك اللحظات، فلم تكن عندي ملابس للخروج بها، اكتفيتُ بالقميص العلمائي، وهو قميص ذو فتحات جانبية يصل لمستوى الركبة، تفاجأتُ بعنصر المباحث وهو

يحمل القيد الحديدي، مد يديه ناحيتي وأحاط بمعصمي ذلك القيد الحديدي اللامع، حشروني في سيارة تويوتا من نوع -تيرسل- ، سألت أحدهم: إلى أين تأخذونني؟

فقال: إلى التحقيق طبعًا، فقلت له: ولكنكم لستم الجهة التي اعتقلتني حتى تقوموا بالتحقيق معي، فأنتم مباحث اللجنة الأمنية وأنا تابع لمخابرات أمن الدولة وهي الجهة التي اعتقلتني، فقال: أنت مطلوب لدى اللجنة الأمنية للتحقيق.

هاجمتني الوساوس ودارت في رأسي عدة أفكار مجنونة، فقد استطاعَ عنصر المباحث أن ينال من أعصابي بعض الشيء، فالتحقيق لدى اللجنة الأمنية يعني أن هناك أمرًا جديدًا، هل اعتقلوا أم سجاد؟! قلت في نفسي الحائرة..

بوصولنا لأطراف المنامة سمعتُ صوتًا منبعثا من الجهاز اللاسلكي الذي يحمله عنصر المباحث وهو ينادي: رقم ١٦، رقم ١٦، أجب..

أجابه عنصر المباحث: نعم أسمعك، قال له: إلى أين وصلتم؟ فقال له: عند أطراف المنامة..

توجّه إلى بوابة الوزير، قال له الصوت المتحدث في

اللاسلكي..

تيقنتُ أن هذا العنصر لا يعرف طريقه بالتحديد ، وإنما يتلقى الأوامر والتعليمات عبر اللاسلكي، كما أيقنتُ بأن وجهتي لم تكن للجنة الأمنية ، وإنما هي محاولة لإتلاف أعصابي والنيل من معنوياتي..

عند وصول السيارة لبوابة الوزير توقفت السيارة هناك بانتظار التعليمات الجديدة، نزلَ العنصر من السيارة وتوجه لمكتب القيادة في المخابرات وعاد سريعًا، خرج ثانية من بوابة الوزير ودخل من بوابة المخابرات، وعند مدخل مبنى المخابرات استقلبني أحد ضباط المخابرات قائلاً لي: أنت على موعد اليوم لمقابلة أهلك..

قبل إدخالي لمكتب٤٩ بمبنى المخابرات لزيارة العائلة أبلغني عنصر مباحث أمن الدولة بعدة توصيات وتعليمات وربما إنذارات، والتي كان على رأسها منع التحدث في قضية الاعتقال أو ظروف السجن أو معاملة السجانين أو عمليات الإضراب عن الطعام وما شابه ذلك..

كما أخبرني بأن موعد الزيارة هي نصف الساعة فقط، وفيما يخص العائلة فقد أبلغوهم بخبر المقابلة قبل الموعد بنصف

الساعة فقط مشددين أن وقت التأخير سيحتسب من وقت الزيارة في محاولة لإرباكهم؛ ولعدم أخذ الاستعداد الكافي..

وبالمقابل فإن العائلة حصلتْ من مباحث أمن الدولة على حزمة من التوصيات والإنذارات ، والتي كان على رأسها منع تداول أخبار الساحة، وأن الكلام يجب أن لا يكون هامسًا ، وعلى المتحدث رفع صوته بما يكفي سماعه من قبل عناصر المخابرات، وأن هناك تقريرًا سيرفعه عناصر المخابرات عن مدى الالتزام بتلك التعليمات، ومتى ما حدث خرق لتلك الإنذارات فإن ذلك سينعكس سلبًا على الزيارة المقبلة، كما أن لرجال المخابرات كل الحق في إنهاء الزيارة في أي وقت يجدون فيه أي محاولة مريبة أو مشكوك فيها..

في كل هذه الأجواء والتدابير الأمنية المشددة قابلتُ أهلي وكأني فتى الأدغال!!

حيث شعر الرأس الذي لم يعانق المشط منذ تسعة أشهر، وكذا اللحية الكثيفة بالدرجة الرهيبة، وقد بدا أثر السهاد واضحًا على وجهي !!

جلس معنا في المقابلة ثلاثة من عناصر مخابرات أمن الدولة وكلهم من الشيعة أعرفهم بأسمائهم، وعلى رأسهم أحد

السادة من أكبر العوائل العلمائية المعروفة في البلد، وبسرعة البرق الخاطف انتهى وقت الزيارة..

ودَّعتُ العائلة بعد أن تبادلوا معي علامات وإشارات الصمود عبر قبضات اليد الموحية بالقوة والعزة.

سجن المكاتب بالمنامة

لم تكن الشمس قد ارتفعت إلى حدود الزوال من النهار حينما جاء قرار إخراجي من زنزانة الموت بسجن الحد القديم، وذلك بعد أسبوعين كاملين على موعد زيارة العائلة، كان الشعور يحدوني بالفرح لأن الله كتب لي الخروج من أحشاء زنزانة الحد الموحشة، ويبدو أن جميع تحركاتي وسكناتي وعدد مرات الإضراب عن الطعام قد رصدتها إدارة المركز في الملف الأصفر الذي يحتضنه عنصر أمن الدولة التابع لقيادة أمن المحرق، والمكلف بتوصيلي لإدارة سجن المنامة، وجدته يتصفح الملف الأصفر ويورقه بدم بارد وهو ينظر في وجهي، حينها ابتسمتُ بداخلي وقلت لنفسي: ستبقى قضيتي محفوظة في الكمبيوتر المركزي بوزارة الداخلية، وسيبقى الملف الأصفر مفتوحًا باسمي إلى أن أموت قبل أن يموت الملف..

بمجرّد وصولنا إلى إدارة سجن المنامة أخذوني إلى

موظف الحاسب الآلي لإدخال البيانات الشخصية، وبعدها نقلوني إلى غرفة الانتظار التي لم يطل انتظاري فيها حتى جاءني الضابط الإداري ورافقني إلى زنزانتي الجديدة في سجن المكاتب، وقد أطلقتْ عليه هذه التسمية لأنه يقع على مكاتب إدارة السجن بصورة مباشرة من الجهة الغربية، كما أننا نستطيع رؤية مبنى المخابرات بطوابقه الستة الذي يعانق مدينة المنامة، وهو ما يزيدنا عذابًا لوصول أصوات استغاثات وأنات الشباب لمسامعنا، قضينا ليالي طويلة لم نذق فيها طعم النوم؛ لأننا كنا نسمع أصوات الألم تصرخ وتستغيث.

كان قرار نقلي إلى سجن المكاتب بمثابة الانفراج والتطور الإيجابي قياسًا لوضعي السيئ في مقبرة الحد القديم، ومما زاد في ارتياحي أني التقيت بإخوتي وأعزائي مجموعة المبادرة في ذلك العنبر..

وبحق فقد كان لقاءً تاريخيًا؛ لأنه اللقاء الأول بعد عزلة استمرت لشهور تسعة، وبصعوبة بالغة استطعتُ التحدث إليهم ؛ فقد وضع كل فردٍ منهم في زنزانة انفرادية لا تمكنه من التحدث مع الشخص الآخر، وكان التشديد على الأستاذ حسن المشيمع بصورة أكثر صرامة، كانت زنزانته على يميني وأي زنزانة هي ؟؟

تلك الزنزانة التي يعتصرها الإيمان..

لذلك أستطيع أن ألمحه بشكل سريع عند خروجه لدورة المياه، ومع ذلك التضييق فقد عشتُ أيامًا هادئة، شعرتُ فيها بالهدوء والاستقرار النفسي بدرجة كبيرة.

اعتدنا على البرنامج الروتيني في الاستيقاظ تباعًا قبل الفجر بساعة واحدة ونصف الساعة تقريبا استعدادًا لقيام الليل وصلاة التهجد وتلاوة القرآن والمناجاة، فقد كنتُ أمر على الزنازين فأجدها تصدح بالذكر وتلاوة القرآن، وبصوتٍ واضح يصلني صوتُ الأستاذ المشيمع وهو يقرأ دعاء أبي حمزة الثمالي..

إنه المجتمع الإيماني، فقد تحولت الزنازين إلى دور عبادة، وقد اعتاد السجانون على هذا البرنامج بفتح أبواب الزنازين بشكل يومي بنفس التوقيت للتهيئة للوضوء.

بعد انقضاء الأسبوع الأول على إقامتي بسجن المكاتب شهدنا تطورًا جديدًا على مستوى الإدارة، فقد زارنا أحد ضباط إدارة السجن وأخبرنا بقرار تغيير نظام الأكل في السجن، وسوف تتغير وجبة الإفطار الصباحي من البقوليات والعدس إلى وجبة الجبن والبيض والعسل والمربى مع الخبز العربي، وسوف تدخل بعض التحسينات على وجبة الطعام، وذلك بتوفير الفاكهة بمعدل

ثلاثة أيام في الأسبوع، كما أن إدارة السجن سمحتْ لنا بإدخال الكتب الدينية بمعدل أربعة كتب في الشهر الواحد..

ومع مرور الوقت سمحوا لنا بإدخال حاجياتنا الشخصية من عوائلنا مع إمكانية التسوق من سوق الأمن العام عبر ورقة نكتب فيها ما نحتاجه من احتياجات شخصية، وبدوره يقوم رجل الأمن المسئول عن هذه المهمة بجلب احتياجاتنا المسموح بها.

في هذه الفترة بالتحديد نسيتُ أني بالسجن، وكنتُ أتمنى عدم الخروج من أحشائه، لاعتقادي أنهم لو أخرجوني في تلك الفترة فلن يطول بقائي خارج السجن وسيعيدونني لسيرتي الأولى!! لذلك كنت أنعمُ بالبقاء في أحشائه مع الإخوة الأعزاء بكل هدوء بعيدًا عن هاجس الاعتقال وكأن أفضل الأماكن أمنًا من الاعتقال هو المعتقل..!!..

بكل تأكيد من بالخارج لا ينعمون بالأمن الذي ننعم به نحن.

الحاجة

ذقت المرارات كلها فلم أجد أمّر من الحاجة إلى الناس
-أمير المؤمنين- عليه السلام.

في زيارتها الثانية لي -بعد مرور عام كامل على الاعتقال- وفي مبنى المخابرات أخبرتني أم سجاد بمرارة الحياة، وأن الدائرة بدأت تضيق عليها وعلى الأولاد، فالمنطقة التي نسكن بها بمدينة حمد لا توجد بها خدمات كافية، وأن أبسط متطلبات الحياة كالماء والخبز يحتاجان إلى سيارة فضلاً عن بقية الاحتياجات الأساسية، وخصوصًا أنها كانت تعتمد على وسيلة النقل العام أو المشي على الأقدام قاطعةً المسافات البعيدة مع الأولاد لزيارة المستشفى أو للذهاب إلى المدرسة بشكل يومي لتوصيل ابننا سجاد، لاسيما أن الوضع كان يزداد سوءاً في الجو الماطر والبارد..

كما أنها أخبرتني بتكرر رسائل الإنذار من وزارة الإسكان بضرورة تسديد القسط الشهري، فقام أخي – مشكورًا – بالتنسيق

مع إحدى المؤسسات الخيرية بالبلاد القديم لتسديد قسط البيت الشهري، وبالفعل قامت - المؤسسة الخيرية - مشكورة السعي - بتسديد قسط البيت لثلاثة شهور وربما يزيدون شهرًا واحدًا.. ولظروف خاصة علمتُ أن المؤسسة الخيرية توقفت عن تسديد الخمسة عشر دينارا لحساب وزارة الإسكان بعد الشهر الرابع من بدء التسديد !!.

صحيح أن المبلغ متواضع -وربما تافه- ولكنه كان يشكّل مشكلة كبيرة بالنسبة لظروف أم سجاد.

اضطرتْ أم سجاد بسبب الضائقة المالية لعرض البيت للإيجار، فقد كان من الصعب القبول بهذا الخيار، ولكني أشفقتُ على زوجتي وأولادي فوافقتُ على تأجير البيت لتسديد قسط الإسكان والاستفادة من بقية المبلغ .

وفي المقابلة التالية وصلتني أسماء الأشخاص المتقدمين لاستئجار البيت لترشيح الشخص الذي أثق به وأعرفه، فابتسمتُ بمرارة، حقًا إنها لحظات قاسية أن يشاهد المرء زوجته وأبناءه وهم يعيشون حياة التشرد والترحال والتنقل ولا ملجأ أمامه - والحال هذه - إلا رب العزة.

صارت الوساوس والأفكار تركض في رأسي كالخيول

المجنونة، فقد كثر انتقال سجاد من مدرسة لأخرى وهو لا يزال صغيرًا..

ومع مرور الوقت اضطرتْ أم سجاد -تحت قسوة الحياة وسياط الديون- للدراسة والعمل، وكان يتطلب منها هذا الوضع التحرك للحصول على رخصة سياقة.

اجتاحتني موجة داهمة من الحزن العميق، وكنتُ أحتضنُ القلق والأسى لتلك الوضعية المريرة، والذي آلمني أكثر وزاد من ألم جروحي النازفة أن أحدهم من منطقة البلاد القديم اتفق مع أم سجاد على تأجير شقته المعروضة للإيجار، وقد قام بتوقيع عقد الإيجار، وفي يوم تسليم المفاتيح عرفَ أن المرأة الواقفة أمامه هي زوجة المعتقل السياسي علي عاشور فقام بتمزيق ورقة عقد الإيجار وطرد أم سجاد بطريقة لبقة قائلا لها: نحن لا نؤجر لعوائل مساجين، كل ذلك خوفًا من عدم تسديد مبلغ الإيجار.

بعدما علمتُ بهذا الموقف قلت لأم سجاد: لا تقلقي، مهما تخلى عنا جميع الناس ونحن في هذه المحنة فالله معنا.

فأي مرٍ.. وأي عذابٍ.. وأي ضياعٍ.. يا له من مشهد مريع عندما يخذلك المجتمع ولا من ناصر سوى الله !!

بعد هذه التجربة استوعبتُ الدرس تمامًا، فقد طلبتُ من أم سجاد المبادرة للحصول على رخصة سياقة والبحث عن عمل..

فقد ذاقتْ أم سجاد الحاجة والبؤس والحرمان فهي بحق شريكة الحياة .. وشريكة الصبر .. شريكة المحنة ..

زوجتي التي تحملت خلال سنوات خمسماينوء على تحمله الكثير من الرجال .

وقد كنتُ أقول لها أن الدنيا لاتعطي نفسها الا لمن يدفع مهرها..

وفعلاً استطاعت هذه المرأة المؤمنة بكل جدارة واقتدار أن تدير شؤون الأطفال ومتطلباتهم، وأن تجمع بين ظروف العمل والعناية بالأولاد في تلك الشقة الصغيرة الواقعة بالقرب من مركز شرطة الخميس، والتي أطلق عليها الأولاد اسم - شقة الحرية-.

وهكذا تتابعت الأيام حتى مرّت من السنين أربع ويزيد عليها نيف من الشهور، مرّتْ بحلوها ومرّها وبدتْ فيها الحياة َمرةً حلوة ومرات مُرة، فمن داخل المعتقل كنت كباقي السجناء بحاجة كبيرة للقراءة وتثقيف الذات وكسر جمود العقل لكسر الانفرادي المضروب علينا، فكنا بحاجة للكتب والمجلات، كما كنا بحاجة

لرصيد شهري من المال نستعين به لشراء المستلزمات الأساسية ابتداءً من أدوات النظافة كمعاجين الأسنان والشامبو والصابون ومساحيق الغسيل، ومرورًا بالخضروات والفواكه للاستعاضة بها عن الأكل الرديء، حتى كدنا في فترة من الفترات أن نكون من النباتيين ، وانتهاءً بمستلزمات الحليب والسكر والتمر والحلويات الخاصة بشهر رمضان، كل ذلك كان يتطلب إمكانيات مادية كبيرة، وأحيانًا كثيرة كنت أستشعرُ مدى الإرهاق المادي على أم سجاد، وكنتُ أخشى أن يكون ذلك على حساب الأولاد، فهي تعمل طيلة الشهر لتأمين نفقاتي الخاصة، وقد انكشفَ لي ذلك جليًا بعد خروجي من المعتقل، فقد أحسستُ بأنها كانت تقدّم همي وألمي على هَم وألم الأولاد، وأنها تعتبر نفسها المسئول الأول عني وعن تلبية احتياجاتي، ولا سيما أني أرهقتها بطلباتي الشهرية.

والغريب أنه عندما حانت ساعة الإفراج وجدتُ الحفاوة والتقدير والحب والعطف والترحيب من الجميع، بل وجدتُ الكرم، فقد كان البعض يحشر تلك الدنانير في جيبي بسخاءٍ كبير مع الاعتذار عن الماضي، أحسستُ فعلاً بالدهشة والاستغراب، وقلت في نفسي: أين هذا الكرم والجود فترة السنوات الخمس الماضية؟! فترة الضيق والضنك؟! وبظني أن الأولاد كانوا أكثر

حاجة مني، ولكني من الحياة تعلمت أن المآسي كثيرة، وأن الآلام كبيرة، ورغم مآسي الليل وآلامه هناك فجر منير.

الأستاذ عبد الوهاب حسين

لم تطل فترة إقامتي بسجن المكاتب؛ إذ جاء قرار المخابرات بأن أكون رفيقًا للأستاذ عبد الوهاب حسين في زنزانته الواقعة على سجن المنامة بالقلعة في الطابق العلوي بشكل مباشر، و بمقدار ألمي لفراق أحبتي وإخوتي كان فرحي بلقاء الأستاذ العزيز.

عشتُ مع الأستاذ عبد الوهاب حسين قرابة سبعة أشهرٍ تبادلنا خلالها شتى الأحاديث والمواضيع، حتى شعرتُ بأن تجربة السجن بكل آلامها وإحباطاتها قد أنضجتني سياسيًا، وأستطيعُ القول إنه لو لا تلك التجارب تلو التجارب لما وصلتُ لتلك المرحلة من النضج والرشد السياسي، والتي يتعذر غالبًا الوصول إليها وأنا خارج تلك الأسوار الحديدية، فالنضج في السياسة كما النضج في الحياة لا يكون إلا بالممارسة..

وأستطيعُ القول بأن الأستاذ أتعب سجانيه، برغم القساوة التي عانى منها في الانفرادي والوضع المزري لأشهر ثمانية ولكنه

أبى أن يطالب إدارة السجن حتى بأبسط حقوقه الإنسانية كبقية المعتقلين والسجناء..

السجانون يبدون الشفقة على وضعه البائس ويقترحون عليه مقابلة الضابط الإداري ويبينون له أن تغيير وضعه بيده وبكلمة منه ولكنه يأبى ذلك، حتى أنه أخبرني بأن مسئول قسم التحقيق في المخابرات -وهو بأعلى رتبة عسكرية- زاره في الزنزانة وجلس معه على أرضية الزنزانة مدعيًا بعدم علمه بوضع الأستاذ محاولاً الاعتذار عن الماضي، إلا أن ذلك لم يغير من وضعه شيئًا، فأبى أن يطالبه بأبسط حقوقه الاعتيادية كمعتقل سياسي، فكان حديثه معه بابتسامة عريضة ورضًا كامل بقضاء الله وقدره.

وأمام كل هذا الصمود الذي أبداه الأستاذ عبد الوهاب حسين كنت أخجل من نفسي فكان يعطيني القدرة على الاحتمال وشدة الوثوق بالفرج القريب..

وبصورة عملية فإن المخابرات تصنفُ الأستاذ بأنه العقل المدبر لمجموعة المبادرة، وأنه صاحب القرار الأول والأخير، كما تعتبره بأنه إنسان عنيد، بمعنى أنه إذا اقتنع بخطوة ما فإنه لا يتراجع عنها..

عشتُ معه تلك الحقبة الزمنية التي كشفتْ لي بحق وعن

قرب مدى صلابته وجرأته وقوة إرادته وإيمانه المطلق بعدالة القضية التي يدافع عنها مما جعل معنوياته قوية عالية..

كانت وصيته الدائمة لي بعدم الاستغراق في التفكير في الأهل والاكتفاء بالدعاء لهم حتى لا يتعلق السجين نفسيًا بالإفراج والانشغال بالخارج مما يضعف من عزيمته وينال من ثباته وإصراره على المواصلة والثبات فتعلمتُ أن أنسى الهموم في السجن وأن أرفضَ السجن بداخلي فسنوات الاعتقال على قسوتها لم تذهبْ سدىً.

استثمرتُ وجودي مع الأستاذ عبد الوهاب استفادة تامة لدرجة أن الوقت كان لا يسعنا لإكمال البرنامج، فقد تحولت الزنزانة إلى ملتقى العلوم والخبرات، فنهلتُ الكثير من المواقف والتجارب عبر تلك الجلسات الخاصة على سرر متقابلين..

وبمرور الوقت صرنا نبتكر ألوانًا من الإبداع في الأعمال الفنية والحرفية، وفي كل رسالة نكتبها للأهل كنا نطلبُ منهم تزويدنا بإبر الخياطة مع خيوطها المختلفة، لا سيما الإبر يسم منها أو ما يسمى بخيوط الحرير، وفي الزيارات يسألوننا عن السرّ في الطلب المتزايد على الخيوط..

وقد استغربتْ إدارة السجن من تلك الطلبات ومن تلك

الأكوام من الخيوط فقامت بتكليف أحد عناصر رجال الأمن بشراء تلك الخيوط من أسواق المنامة في محاولة لمنع إدخال الخيوط من الأهالي، ونظرًا لأن عنصر الأمن لا يجيد اختيار نوعية الخيوط التي نريدها فقد اقترحتْ إدارة السجن تزويدها بنوعية الخيوط المطلوبة لتوفيرها في أسواق السجن الخاصة بالسجناء..

وهكذا قامت إدارة السجن بتوفير ما نريده من بكرات الخيوط وإبر الخياطة، ومن جهة ثانية فإن أعمالنا الفنية والحرفية كانت تعتمد على الأدوات البدائية إلا أنها نالت إعجاب واستحسان الآخرين..

ولم تعد النهارات تكفي لأداء الأعمال الفنية..

الطريف في الأمر أن بعض عناصر رجال الأمن كان يطالبنا بإهدائه بعض تلك الأعمال، وكانت النافذة المناسبة لكسب قلوب السجانين؛ إذ أن الأوامر صارمة بمنع تحدث السجانين مع السجناء، وبمرور الوقت كان السجان مصدر تزويدنا بأخبار الساحة، وأحيانًا يكون همزة الوصل مع بقية السجناء.

وفي حادثة طريفة قام أحد السجناء بوضع قصاصة رسالة صغيرة بداخل علبة العلكة الصغيرة وطلب من السجان إيصالها لسجين آخر بدون أن يعرف السجان ما هو داخل علبة العلكة،

ونتيجةً لطمع السجان لم يكتفِ بما حصله من السجين من فواكه ومجموعة أخرى من الحلويات المختلفة فقام أيضا بسرقة علبة العلكة، وبعد وجبة الغداء - وعندما كان سجان آخر برفقة السجان الرسول - قام بفتح العلكة بغية أكلها فتفاجأ بما وجده بداخل العلكة، فخارت قواه من شدة الخوف، والموقف أقوى من أن يكتب ببضع كلمات.

وخزات تأنيب الضمير

أنْ تحسن لغيرك فهي مسألة اعتيادية وأما أن تحسن لمن أساء إليك فهي قيمة أخلاقية كبيرة لا يتصف بها إلا أصحاب القلوب الكبيرة..

وبالتحديد فقد كان من أخلاقيات الأستاذ عبد الوهاب حسين الإحسان لسجانيه وعدم معاملتهم لكونهم سجانين بمقدار إنسانيتهم، وقد ترك هذا التعامل الإنساني النبيل أيما أثر على نفسيات السجانين، ولم أكد أصدق ما تشاهده عيناي من عناصر مكافحة الشغب المتسمة بالشراسة والوحشية عندما تأتي لحراسة زنزانة الأستاذ عبد الوهاب، فإنها تنزع لباس الوحشية والشراسة وتقف خاضعة مستكينة، وكأنها استسلمت لمروضها.

الملفت للانتباه أن جميع السجون يقوم بحراستها مجرد رجال أمن باستثناء حراسة الأستاذ عبد الوهاب، فإن المكلف بحراسته عناصر مكافحة الشغب، ومع ذلك فإن مشاهداتي

وملاحظاتي تكاد لا تصدق!! ولكن انطلاقًا من - أحسن إلى الناس تكن أميرهم - فإن التوسل بإنسانيتهم يكسر جبروتهم وشراستهم.

ومن أغرب الغرائب وأعجب العجائب أني وجدتُ ذلك البعض ـ وبالتحديد من عناصر مكافحة الشغب- يشعر بعقدة تأنيب الضمير!!

فقد جاء العنصر (ش) وهو مطأطئ برأسه للأسفل وهو يبدي الاعتذار والأسف عن كل الإساءات المجانية التي قدمها للأستاذ عبد الوهاب، وقد برّر جميع التصرفات التي قام بها بأنها مجرّد أوامر وعليه تنفيذها.

وقد تفاجأ بصورة أكبر عندما وجد رحابة الصدر من الأستاذ، وكان يريد التكفير عن الإساءات الماضية بتقديم ما في وسعه من خدمات ممكنة للأستاذ، لدرجة أنه يشتاق أن يجلس معنا على مائدة الإفطار في شهر رمضان ليكون بيننا وبينه ماء وملح، ولم يحرمه الأستاذ من هذه الأمنية، فقد رمى السلاح بكل ثقة وجلس متربعا معنا على مائدة الإفطار، والمضحك أني كنت أقوم بحراسته مخافة مباغتة مسئول النوبة !!

وفي مرات عديدة كان يجلب لنا بعض المأكولات الخاصة ليضعها على مائدة الإفطار..

ولكن من هو العنصر – ش - ؟!

العنصر – ش - أحد عناصر قوات مكافحة الشغب، وهو باكستاني الجنسية، وهو أحد العناصر المكلفة باقتحام منزل الأستاذ عبد الوهاب حسين قبل فترة المبادرة تمهيدًا لاعتقاله، وقد قام العنصر – ش - بتعمد تخريب ممتلكات الأستاذ وتكسير صورة الإمام الخميني المعلقة على جدار مجلس الأستاذ..

وقد قام بهذه الأعمال بحسب التعليمات الصادرة إليه على حد قوله، وقد كان يتصور الأستاذ بأنه شخص مخرب يريد الاستيلاء على نظام الحكم.

وعندما كلف بحراسة الأستاذ -وقد وجد ما وجد من الطيبة والأخلاق العالية في التعامل- صار يشعر بوخزات تأنيب الضمير، علمًا بأن الأستاذ لم يعرفه بأنه الشخص الذي قام بالتكسير أثناء الاعتقال ولكنه هو الذي أفصح عن نفسه!!

لذلك فقد كسرته أخلاق الأستاذ وأسرته المعاملة الإنسانية مما حرك ضميره..

فجاء معتذرًا نادمًا سائلاً الصفح والمغفرة، وكان يقسم على ترك الوظيفة بمجرّد انتهاء العقد!!

فقد أيقنَ بمظلومية السجناء وأنه يأبى أن يقوم بمهمة سجانٍ للأستاذ وأمثاله!

والعنصر - ش - واحد من ظاهرة تكررت في محيط السجن، لذلك أستطيع القول بأن السجانين كانوا يسجوننا لأن عليهم أوامر يجب تنفيذها، ولكنهم من الداخل كانوا يعتقدون أننا محقّون..

وقد تجلت هذه الحقيقة للعديد من السجانين بعد تبادل الأحاديث معهم، والأعجب من ذلك أنهم كانوا يتمنون لنا تحقيق مطالبنا الشرعية، لذا فإن عداءنا لهم كان لا يتخطى الإطار الوظيفي، بمعنى أننا كنا نعاملهم باحترام وإحسان خارج الإطار الوظيفي وخارج الدوام الرسمي!!

قائمة الأمراض

بجوار زنزانتنا توجد غرفة أخرى، وهي عبارة عن مصلى خاص برجال الأمن.

فبعد أداء واجبهم تجاه خالقهم ، فإنهم لا ينسون واجبهم تجاه السجناء والذي يفرض عليهم شتى أنواع التضييق والتنكيل .

وبسبب تزايد عدد السجناء وكثرتهم وضيق مباني السجون فقد تحول المصلى إلى غرفة انتظار للسجناء الجنائيين، وهم أصحاب قضايا القتل والمخدرات، وأحيانًا القضايا المالية وإصدار الشيكات ومشاكل البنوك..

يأتون بهم من أول الصباح الباكر إلى نهاية الدوام الرسمي، ويكون غرض بقائهم إما لزيارة مرتقبة مع عوائلهم أو لترحيلهم إلى المحكمة، وأحيانًا لاستكمال إجراءات الإفراج أو لموعد مع الطبيب، وطوال الفترة الصباحية إلى نهاية الدوام الرسمي

يحظر علينا الخروج إلى دورة المياه أو الاستحمام والغسيل؛ حتى لا نقوم بتدنيس وعي السجناء أو التأثير على قناعاتهم الفكرية!

وتزداد معاناتنا مع الجنائيين لأنهم يستخدمون نفس دورة المياه التي نستخدمها نحن، ووجه المعاناة وبيت القصيد ومربط الفرس العتيد يكمن في عدم محافظتهم على نظافة دورة المياه، والأنكى من ذلك بأنهم كانوا يقومون بعملية التوسيخ ونحن نقوم بعملية التنظيف بعد انصرافهم!!

وما يثير استياءنا أكثر عدم مراعاتهم لأحكام الطهارة، فترى دورة المياه مليئة بالنجاسة، وشيء يبعث على القرف والتقزز منظر القطن أو الشاش الطبي الملطخ بالدماء مرميًا على أرضية دورة المياه، عدا أعقاب السجائر المرمية بداخل المغسلة وبقية الأوساخ الأخرى، وروائح أقرب إلى الجيفة منبعثة من المرحاض تزكم الأنوف نتيجة عدم استخدامهم للماء بعد الانتهاء وتطاير النجاسة على الأرضية، كما أن ملابسنا لا ترى الشمس، فأبواب دورات المياه وخرطوم الماء الحديدي للمرذاذ (رشاش الماء) هو المكان الوحيد لنشر الغسيل..

ففي الوقت الذي تشتد حاجتنا فيه للشمس لنشر الغسيل منعًا لتكاثر الجراثيم وحساسية الجلد نجد أن روائح الدخان تعلق

بملابسنا، فكنا نتحمل هذه المرارات على مضض إلاّ أن الذي هوّن الخطب بأن الجنائيين عندما عرفوا بوجودنا كانوا كثيرًا ما يتعمدون ترك الأقلام وبعض الأوراق وأشياء أخرى يكون السجين بحاجتها، وكنت أذهب نهاية الدوام لجمع الغنائم.

وأحيانًا أترك الغنائم في مكانها لأنها المكان الآمن، فكان وجودهم بمثابة النافذة التي فُتحتْ لنا لنطل من خلالها على العالم الخارجي..

ففي عالم السجن الرهيب لا شيء يمتد أمام أعين السجناء سوى عناصر مكافحة الشغب أصحاب البدلات الداكنة والقيود الأنيقة اللامعة الأميركية الصنع، لذلك لا شيء في السجن يدخل من الباب الأمامي إلا السجين وحده!!

أما بقية الأشياء الأخرى فتدخل إلى السجن من الأبواب الخلفية، ولا زلتُ أؤمنُ بأنها يد الغيب والعناية الإلهية..

ويبقى غياب العناية الصحية هي القضية الأبرز في حياة السجناء، ففي المحطات التي زرتها في أقبية السجون لم تخلُ من مظاهر انعدام الرعاية الصحية، ولا زلت أتذكر ذلك الصحن الأبيض المعدني الذي نتناول فيه وجباتنا اليومية، والذي يحيطه الصدأ من كل جوانبه، كما أني لا أزال أشعر بالغثيان عندما أتذكر

تلك الحادثة التي تعرض لها بعض السجناء في أسوء المعتقلات عندما كانوا يشعرون بمرارة الطعم في الماء لأيام عديدة وإدارة السجن تُعرضْ عن شكواهم حتى استفحل الأمر وتفاقم فأرسلت إدارة السجن أحد الجنائيين من الجنسيات الآسيوية لكشف الخبر من خزان الماء الكبير الذي يستريح على سطح السجن..

فكانت الصاعقة أن رجع السجين الآسيوي ونفسه تلعب ويرغب في التقيؤ والترجيع؛ حيث كانت الصدمة أن قطًا متفسخًا كان بداخل خزان الماء!!

شيء يبعث على التقزز والرغبة في التقيؤ، إنها إحدى المآسي التي عايشها السجناء، فلا ندري نضحك أم نبكي!! وقائمة الأمراض التي خرجنا بها أكثر من أن توصف، فأي بلاء بعد هذا البلاء؟!!

منظمة الصليب الأحمر

بمجرد وصول لجنة الصليب الأحمر الدولي إلى سجن المنامة علا الاستبشار والفرح أرجاء سجن المنامة..

وذلك لأن مجيئه يعتبر اعترافًا دوليًا بنا كسجناء سياسيين وبأن اعتقالنا يمثل أزمة سياسية للحكومة، وقد كان ذلك بعد سنة واحدة وستة أشهر على الاعتقال، وبالتحديد في شهر يونيو لعام ١٩٩٧ م..

وأول خطوة قام بها الصليب الأحمر هو التأكد من المسح الشامل الموجود عندهم، فقد لاحظتُ أن الأسماء مكتوبة عندهم في قوائم خاصة بمنظمة الصليب الأحمر، وكانوا يقومون بالتأكد من صحة البيانات الموجودة عندهم، وتمت طريقة مقابلتنا على دفعتين، ففي المرة الأولى جلس معنا طاقم الصليب الأحمر الذي تعلو صدورهم شارة الصليب الأحمر، ويتكون هذا الطاقم من أربعة أفراد، وقد قدموا أنفسهم لنا على أنهم منظمة إنسانية تابعة

للأمم المتحدة مهمتهم الإنسانية هي التخفيف بقدر الإمكان عن معاناتنا..

وقد عرضوا علينا جوازات سفرهم الخاصة التابعة للأمم المتحدة، والتي تحمل شارة الصليب الأحمر بغرض طمأنتنا ليتم التجاوب معهم بشكل إيجابي بدون أية مخاوف، وقد استمرت الجلسة الأولى التعريفية لنصف الساعة تقريبًا..

قاموا خلالها بشرح موجز لعمل المنظمة داخل السجون، وقد أخبرونا عن استمرار هذه الزيارات للتأكد من تجاوب الحكومة مع توصيات المنظمة ومدى المخالفات الموجودة بالسجن، وعمدوا للتأكد من البيانات المكتوبة في سجلاتهم، والتي تدور حول تاريخ الاعتقال وظروف الاعتقال وغيرها من الأمور الروتينية، ولأن هذا المسح سيشمل جميع المراكز والمعتقلات فإنه سيستغرق بعض الوقت.

هذه هي المرّة الأولى التي جلسوا فيها معنا، وأما المرة الثانية فقد عادت المنظمة بعد انتهاء المسح الشامل بعد يومين من اللقاء الأول، ولا أنسى أن الزيارة الثانية كانت عصرًا، وكانت سياستهم تعتمد على سرية المعلومات، وأن جميع البيانات المدونة عندهم في سجلاتهم الخاصة تبقى طي الكتمان والسرية؛ لذلك

فقد كانوا يعتمدون على الحوار الأحادي مع كل سجين بأن يؤخذ كل سجين منفردًا للحديث مع الصليب الأحمر، ويكون الحديث بمطلق الحرية وبدون تدخل رجال الأمن، وهي المرة الأولى ـ منذ الاعتقال ـ التي يسمح لنا فيها بالاختلاء بشخص بعيدًا عن تدخلات رجال الأمن..

بل أستطيع القول بأن دور رجال الأمن باتَ هامشيًا في ظل وجود منظمة الصليب الأحمر، والشيء المضحك في الأمر أن السجناء كانوا يقومــون بتهديد السجانين بتقـــديم تقارير مفصلة عن سوء المعاملة، وقد كنتُ ألحظ بعض عناصر الأمن يتوجس خيفة؛ ولهذا السبب بالتحديد فقد أخذ السجناء مطلق حرياتهم في الحديث والاختلاء مع منظمة الصليب الأحمر، ومن الظريف أن أفراد منظمة الصليب الأحمر لا تتقن إلا العربية الفصحى فقط؛ لذلك تجدها لا تستوعب اللهجات المحلية لبعض القرى!!

وتكون بحاجة ملحّة لترجمة كلامهم خصوصًا إذا تكلموا بسرعة.

وقد تم اختيار سطح السجن - وتحت السماء المكشوفة- ليكون المكان المناسب للحديث مع السجناء، وهو المكان بعينه

الذي نزاول فيه رياضة المشي، وكانت فرصتنا الذهبية للالتقاء ببقية السجناء؛ لأننا -وببساطة- بمجرد خروجنا لدورة المياه أو للغسيل أو لممارسة رياضة المشي فإننا سنلتقي بالسجناء، وهذا ما وقع، فقد التقينا بالسيد جعفر العلوي وهو أقدم سجين سياسي فكانت فرصتنا للسلام عليه ومعانقته، وكذلك التقينا بمحمد جميل الجمري، ولم يفوّت الأستاذ معانقة محمد جميل الجمري، كما التقينا بالأخ حسن القصاب، وقد تمكنا من مشاهدة ومعرفة العديد من السجناء من خلال مظلة الصليب الأحمر القانونية، وكنا نستأذن المنظمة في السلام على بقية المعتقلين.

كما أن طاقم الصليب الأحمر قد توزع في أركان سطح السجن للالتقاء بالمساجين، وكلما وجد أحد الشباب أن الأستاذ عبد الوهاب بقبالته ترك عنصر الصليب الأحمر وذهب لمعانقة الأستاذ، وقد استمرت هذه العملية لثلاثة أيام تقريبا ونحن نتنفس الحرية بعيدًا عن تهديدات السجانين.

يشار بالذكر أنه كان لمجيء الصليب الأحمر الأثر البالغ على نفسيات السجناء، والحق يقال بأننا لمسنا التحسينات قبل وصول الصليب الأحمر، فقد عرفنا من منظمة الصليب الأحمر أن الاتفاقية وقعّت مع حكومة البحرين قبل أربعة أشهر من المجيء،

وهذا ما يفسر ظاهرة تحسن الطعام في الفترة السابقة وكذلك رفع حالة العزلة نوعًا ما.

شهادة الشيخ النجاس

في صباح يوم السبت ٢١ صفر ١٤١٨ هـ الموافق ٢٨ / ٦ / ١٩٩٧م، وفي ظل وجود منظمة الصليب الأحمر الدولي، كنا مع فاجعة أليمة، ففي ذات الصباح كانت نوبة الحراسة من نصيب صاحبنا العنصر -ش -، وبمجرد وصوله نقل لنا ذلك الخبر المفجع، وكان الارتباك باديًا عليه بوضوح، وكانت الحيرة وقلة الحيلة واضحة عليه، أسند رأسه إلى الباب وبصوت متقطع قال: مات الشيخ علي النجاس!!

يا إلهي!! صَرَخَتْ روحي في أعماقي..

تزحلقتْ نظراتي على الأستاذ، وسألني ما الخبر؟ فقلت له: استشهد الشيخ النجاس بسجن المكاتب..

وكانت تفاصيل الواقعة -وكما رواها مجموعة المبادرة- بأن شيخ الشهداء -وقبل يوم واحد من استشهاده وبالتحديد في

يوم العشرين من صفر وهي ذكرى أربعينية الإمام الحسين وشهداء الطف- كان يتمنى الشهادة، ويقول: أنتم بإمكانكم الاحتجاج عبر المسيرات والمظاهرات، وهنيئًا لمن نال وسام شرف الشهادة، أما أنا -والحديث لشيخ الشهداء - فإني مكفوف البصر، وكم تمنيتُ أن أكون كبقية الشهداء الذين تضرّجوا بدمائهم، وكان يكرر أسفه بأنه مكفوف البصر ومحروم من المشاركة في المسيرات والمظاهرات الاحتجاجية..

نعم هذه هي أمنيته في اليوم الأخير قبل استشهاده، وكأن همسة تسللت إلى أعماقي حينها همستها له بيني وبين نفسي: أي بصيرة لديك يفتقدها المبصرون؟!

وكان اعتقاله بعد عيد الأضحى المبارك بعد أن ألقى تلك الخطبة الشهيرة بالمسجد الرفيع والمشهور بالجمّالة بالبلاد القديم، والتي أدت لإعادة اعتقاله..

وبالتحديد كان اعتقاله الثاني بتاريخ ١٨ / ٤ / ١٩٩٧ م، وقد أودعوه سجن المكاتب مع الإخوة مجموعة المبادرة؛ ولأنه ضرير العين فقد وضعوا معه مرافقًا في نفس الزنزانة، وهو أحد المعتقلين الصغار ليقوم بخدمته، وبسبب السجن الانفرادي، ولأن الزنزانة محكمة الإغلاق، فقد عاودته نوبة الربو، وكان يشعر

بالاختناق وعدم القدرة على التنفس..

وفي الساعة التاسعة مساءً من ليلة الواقعة أخذوه إلى عيادة الأمن العام، ولكن جهاز التمريض في العيادة رفض علاجه وقالوا: بأنه يتمارض وصاروا يسخرون منه، وقد رجع منكسرًا يشكو حاله لإخوته مجموعة المبادرة.

ومع أولى ساعات الفجر اشتدت النوبة على الشيخ النجاس وكان تنفسه بصعوبة بالغة، والأدهى أن المرافق الصغير لم يُحسن التصرف ولم يكن ليعلم بخطورة الموقف، فصار الشيخ النجاس يضرب الباب بقوة وينادي بأعلى صوته، شيخ حسين، أستاذ حسن مشيمع ، سيد إبراهيم، الحقوني لا أستطيع التنفس!!

انتبه الإخوة على تلك الصرخات وماذا بوسعهم وهم محكومون بالانفرادي؟!

قام الأستاذ عمران بضرب الباب بقوة للاستعانة بالسجان لنقل الشيخ النجاس إلى العيادة..

وبحسب الأوامر فإن السجان مسلوب الصلاحيات وعليه الرجوع لمسئول النوبة لمعاينة الموقف، وقد أخذتْ هذه الإجراءات الوقت الطويل..

وبعد سلسلة الاتصالات الطويلة وصل مسئول النوبة لنقل الشيخ النجاس إلى العيادة، ولكنه وصل في الوقت المتأخر!!

ويبدو أن الشيخ النجاس قد وصل إلى حالة النزع وسكرات الموت، فكان يهتف - وبصوت متقطع -: س أ م و ت، س أ م و ت!!

ما هي إلا بضع خطوات - وقبل مغادرة العنبر، وعلى عتبات الدرج - صرخ بأعلى صوته ثلاث صرخات، يا علي، يا علي، يا علي!

ثم سكتَ عن الحركة والكلام ووقع في مكانه، وصعدتْ روحه الطاهرة إلى بارئها، وقد أراح الشيخ النجاس حراسه وسجانيه إلى الأبد وفارق الحياة بعيدًا عن أهله وأحبته في ظلمات زنزانة رقم ٦ بسجن المكاتب !!

ومع أولى ساعات الصباح قام الإخوة بطلب الضابط الإداري وسألوه عن مصير الشيخ النجاس فكانُ يعرضْ عن الإجابة، وبعد الإلحاح أخبرهم الضابط الإداري بوفاته، حينها أعلن الإخوة موقف الإضراب عن الطعام والشراب احتجاجًا على الإهمال المفرط من قبل الشرطة وجهاز التمريض الذي كان على علم بمرضه.

وقد بدا الإرباك على جميع أجهزة الداخلية وأمن الدولة، وخصوصًا أن منظمة الصليب الأحمر لم تغادر السجن بعد، ولم يطلْ الوقت حتى قام قسم المخابرات باستدعاء الأستاذ حسن المشيمع، وقد تفاجأ بوجود اثنين من رجال الدين..

وقد أراد قسم المخابرات أمام الضيوف الذين حضروا لاستلام الجثة أن يستشهد بشهادة الأستاذ حسن المشيمع بأن الشيخ النجاس مات حتف أنفه وأن لا علاقة للدولة بوفاته، فالتفت الأستاذ المشيمع لمسئول المخابرات ومن له اليد العليا في التحقيق قائلاً: بل أنتم الذين قتلتموه!!

قال الضابط باستغراب: نحن الذين قتلناه؟!

قال: نعم، ليس بالضرورة أن يكون القتل بالرصاص، أنتم قتلتموه بإهمالكم..

الشيخ مكفوف البصر وأنتم على علم بمرضه، فكيف يوضع في زنزانة انفرادية وهو يعاني من الربو؟!

أنتم من يتحمل كامل المسؤولية، طالما أنكم اعتقلتموه فأنتم تتحملون مسؤولية وفاته.

وعلى خلفية الشهادة الجريئة التي أدلى بها الأستاذ حسن

المشيمع جاء قرار ترحيله إلى سجن جو المركزي ليقبع بالزنزانة الانفرادية الواقعة في وسط مباني السجون ليعيش في تلك الزنزانة الانفرادية حياة العزلة والانقطاع عن المحيط الخارجي وبقية السجناء لأكثر من ثمانية شهور..

وهي الزنزانة بعينها التي أخرجوا منها الأستاذ عبدالوهاب حسين !!

حملة الاعتقال الاستباقي

ضمن القمعة الأمنية -أو الاعتقال الاستباقي كما يسمونه- اعتُقل الشيخ حامد عاشور. ويختلف الاعتقال بالشبهة عن الاعتقال الاستباقي، فالاعتقال الاستباقي يهدف إلى توجيه ضربة اعتقالية استباقية ضد الخصم قبل أن يبادر بأي تحرك أو نشاط، ويطلق على هذا الاعتقال أيضًا الاعتقال الاحترازي، ويكون المعتقل تحت رحمة قانون أمن الدولة، وليس بالضرورة أن توجد تهمة محددة، وإنما هي إجراءات وقائية طالما أن البلد تعيش قانون الطوارئ..

وقد جرى هذا النوع من الاعتقال على قسم كبير من رجال الدين والطبقة المثقفة، وهو ما عرف في تلك الليلة بالقمعة الأمنية، وقد شمل هذا الاعتقال الأخ الشيخ حامد عاشور، والذي اقتيد إلى سجن جو المركزي مقيد اليدين معصوب العينين، وعند بوابة سجن رقم ٢ استقبله طابور من الجلاوزة والجلادين وهم يحملون في أيديهم آلات القمع والتنكيل، وبوصول الشيخ حامد

عاشور لبوابة السجن انهالوا عليه ضربًا وتلويعًا بخراطيم المياه السود والهراوات باليمين والشمال، وهو ما عرف لدى السجناء بحفل الاستقبال!

والمعتقل لا يعرف كيف يتقي تلك الضربات ؛ لأنه معصوب العينين مكبل اليدين، والضربات تأتيه من الجانبين ذات اليمين وذات الشمال؛ لذلك غالبًا ما تقع الضربات بشكل مباشر على جسد المعتقل، وبصورة عشوائية وحالة هستيرية أشبه بالجنون قام أحد الجلاوزة بخلع الحذاء العسكري صافعًا الشيخ حامد عاشور على وجهه، فوقعت الضربة على عين الشيخ حامد عاشور..

استمر الألم والوجع لأيام وأسابيع عديدة بالشيخ حامد، ولكنه لا يملك من أمره شيئًا؛ فالرعاية الطبية مفقودة..

ومع مرور الوقت تدهورت حالته الصحية وساء نظره وصار لا يبصر القريب فضلاً عن البعيد ، فقد كان لا يرى سوى شبح الشيء فقط!

وبعد فوات الأوان قررت إدارة السجن -مشكورةً- نقل الشيخ حامد عاشور إلى العيادة، والتي بدورها أحالته إلى المستشفى العسكري لأخصائي العيون، وبعد العديد من الجلسات الطبية والفحوصات المستمرة والكشوفات المتواصلة جاء تقرير

الطبيب المختص بأن قرنية العين قد تلفت بنسبة ٧٠ ٪ ولا بد من تبديل العين!

والأمر المثير للسخرية أن إدارة السجن -وهي المتورطة بتلف عين الشيخ حامد- طلبت من عائلة الشيخ حامد شراء العين على أن تقوم إدارة السجن بتحمل تكاليف العملية الجراحية!!

ولم تملك العائلة سوى الاستجابة للأمر الواقع بشراء تلك العين من إحدى المستشفيات الكندية بمبلغ ٦٠٠ دينارٍ ، وقد أجريت عملية استبدال العين التالفة بالعين السليمة..

وبعد ستة أشهر -وهو الموعد المحدد للكشف على العين الجديدة لمعرفة استجابة الجسم لذلك العضو الغريب- اكتشف الطبيب بأن العين الأخرى قد تضررت أيضًا وتلفت، وهي الأخرى بحاجة لاستبدال حتى لا تؤثر على العين السليمة، وعند مجيء منظمة الصليب الأحمر قام طبيب المنظمة -وهو بدرجة بروفسور- بفحص الشيخ حامد عاشور وقد أعد تقريرًا كاملاً سلمه لإدارة السجن، ومفاده بأن الوضع الصحي للشيخ حامد لا يستدعي التأخير؛ لذلك فهو يقترح إطلاق سراحه بأسرع وقت ممكن حتى يتابع علاجه في الخارج، إلاّ أن إدارة السجن لم تستجب لتلك التوصية؛ لأن الأمر ليس بيدها؛ لأن توقيف الشيخ حامد عاشور

توقيف احترازي ولا يمكن إطلاق سراحه، وقد أشار طبيب منظمة الصليب الأحمر على الشيخ حامد بأن يطالب إدارة السجن بتحمل تكاليف شراء العين وأنها مسؤوليتهم طالما أنه قيد الاعتقال، ولكن الوقت لم يكن بصالح الشيخ حامد وهو يعرف أن إدارة السجن لن تتجاوب معه، ولو تجاوبت معه فسيكون بعد فوات الوقت، لذلك سارع أهله بشراء العين الأخرى على نفقتهم الخاصة، كما تبرعت إدارة السجن أيضًا بنفقات تكاليف العملية الجراحية، حقًا إن الشرطة في خدمة الشعب!

الدعاء والدعم النفسي

السجن بيت الأحزان، ومقبرة الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء، هذا ما كتبه يوسف الصديق على جدران السجن عند خروجه من المعتقل، ولو شئت أن أكتب عن كل فقرة من فقرات هذه المقطوعة لملأت هذا الكتاب بحديث طويل عن المضامين التي تحويها هذه المقالة..

ولعل السجناء هم أدرى بما أقصد، فالسجين السياسي -وخصوصًا من يسمون بمعتقلي الضمير أو معتقلي الرأي- أناس ناضلوا من أجل حقهم في الحرية، وكلمة كنتُ أسمعها مرارًا وتكرارًا من الأخ العزيز الأستاذ عبد الوهاب حسين وهو يقول: إنني أرى بوضوح تام أن المعتقل هو المنتصر الآن وفي المستقبل.

سألته: وكيف؟ فقال مجيبًا: تمامًا كساعات المخاض على المرأة، بمقدار ألمها فإنها تفرح ساعة الوضع وتستبشر بالمولود، نحن تماما - والحديث للأستاذ - نعيش ساعات المخاض، وربما

نحتاج للعملية القيصرية، ولكننا في الأخير سنشعر بنشوة الصبر والألم معًا..

وبعيدًا عن لغة الخطابات، برغم كل الظروف القاسية، إلا أننا في السجن كنا نقضي أمتع الأوقات التي لا ملل فيها، وكنا لا نحسب للزمن أي حساب، وما الفائدة من الحساب وما جدوى رقابة الأرقام؟!

كسرنا العزلة المضروبة علينا بالأعمال الفنية الحرفية، والحق أن الأستاذ هو من أرشدني لتلك الأفكار التي قمت بها ، في البداية قمنا بانتزاع الخيوط من الملابس والمناشف القماشية..

وقد تطور الأمر عندنا بطلب خيوط الخياطة من الأهل، وقمنا بالعديد من الأشكال التي نالت استحسان الأهل والأصدقاء، حتى أنني كنت أستلم بعض الطلبات من الخارج لإنجاز بعض الأعمال، وأحيانًا كان الوقت يضايقنا فلا نستطيع إنجاز بعض المهمات، وخصوصًا الأعمال الدقيقة، لم نكن نشعر بمرور الوقت..

ولا أبالغ إن قلت إننا نتضايق لاقتراب موعد الزيارة لأن الوقت كان لا يسعفنا لإنجاز بعض الأعمال الفنية، وكنت أكررها على مسامع الأستاذ بأن أهلنا في الخارج لا يدركون مدى الأنس

والسعادة التي نعيشها، هم يعيشون الهم والألم من أجلنا..

وفعلاً كنا نحتضن القلق والألم؛ لأننا كنا نسمع عن الكثير من الأمهات يبكين أثناء الليل الطويل على فلذات أكبادهن أو على فقدان أزواجهن أو إخوانهن، لا شك أن كل امرأة فقدتْ من بيتها عزيزًا من أعزتها تعيش الحسرة، وخصوصًا في المناسبات السعيدة كالأعياد أو الأوقات الخاصة التي تذكرهن بالعزيز المفقود، ولا يخفى على أي عاقل أن هذا الوضع يقود إلى ضعف المعنويات وهبوط الحالة النفسية عند السجين..

وما يعزز الصمود والثبات رسائل الأهل التي تحمل معاني الصمود والثبات، معنوياتنا مرتفعة، والدتك لا تنساك من الدعاء، الأهالي يدعون لك بالفرج في صلوات الجماعة، والدك صابر وفخور بك، زوجتك ستواصل المسير في ذات الطريق، أبناؤك الصغار يبتهلون لله بالفرج العاجل عند كل غروب، ما أروع هذه الكلمات التي تصلنا، إنه المحرك الحقيقي للاستمرار والصمود والثبات.

المراسلة نصف المشاهدة

المراسلة نصف المشاهدة.. هكذا يقولون..

وبدرجة كبيرة انطبقتْ هذه المقولة على وضعي وأنا في المعتقل فالسجين يدرك أهمية الرسالة الواردة من الأحباب.. إلا أن الذين في الخارج لا يعون ولا يفقهون هذا المعنى!

فالرسالة هي همزة الوصل بين السجين ومن هم في الخارج حتى أن السجناء يقومون بتهنئة ومعانقة من تصله الرسالة وربما يغبطوه على السعادة التي يعيشها وهو يمسك بتلك الرسالة المتواضعة..

وترى بعض السجناء يرابطون على بوابة العنبر في نهاية كل دوام انتظاراً لذلك الشرطي المسئول عن بريد السجناء..

وكم يؤلم النفس أن ترى الانكسار بادٍ على البعض وهو ينتظر تلك الرسالة المرتقبة ولكن المصيبة أن الذين في الخارج

يتعاملون مع إيصال الرسالة بكل برود..

حتى أن بعضهم وهو من الذين يحظون بمكانة كبيرة في نفسي بل ويتربعون على عرش قلبي كتب لي رسالة بعد محاولات مريرة كتب لي ليقول في تلك الرسالة المتواضعة بأنه يعتذر عن مواصلة الكتابة تحت دعوى بأن نفسيتي قوية ومعنوياتي مرتفعة كما نقلت له أم سجاد على حد تعبيره لذلك ما حاجتي للرسالة ؟! وماذا عسى أن تنفعني تلك الأسطر القليلة ؟!

والأسوأ من ذلك أن البعض لم يصلني طيلة السنوات الخمس ولو بسلام عبر الورق.. وهو يعلم عن الحالة المأساوية التي أعيشها.. والفترات العصيبة وخصوصًا فترة الامتناع عن الزيارة.. وكم أحمل في نفسي من الإعجاب والتقدير لذلك الصديق القديم الذي انقطعت علاقتي به قبل دخولي المعتقل بما لا يقل عن تسع من السنوات!

ولكني لمستُ منه الوفاء والصدق والإخلاص.. فوضعه ومركزه لايأذنان له بمراسلتي ولكنه كان يراسلني باسم مستعار وأحيانًا يدمج رسالته مع رسالة أم سجاد.. فكنتُ ولاأزالُ أقّدر له هذه الخطوة الجريئة والشجاعة حقًا انها مجازفة تستحق التقدير..

أخي العزيز.. ثق أني أحمل لك في نفسي أجمل صورة وأروع موقف..وأحتفظ لك في قرارة نفسي بأصدق صورة ستبقى أبدًا رمز إعجاب وتقدير..

سماحة الشيخ الجمري

كلّ الذي أعرفه عن قضية اعتقالي بأن توقيفي ضمن قانون - الاعتقال الإداري -، وهو القانون الذي يخول جهاز المخابرات لاعتقال أي فرد وبدون أي تهمة ولفترات طويلة، وكانوا يقومون بتجديد المدة كل ثلاث سنوات إلى ما لا نهاية بدون عرض المتهم على المحكمة تحت مسمى - الاعتقال الاحترازي -، وعلى هذا الضوء فقد ألغينا كلمة الإفراج أو الخروج من بوابة المعتقل من قاموس حياتنا طالما أننا محكومون بقانون أمن الدولة..

وفي ضحى أحد الأيام الحارة بحرارة أغسطس، وبعد إرجاعي لزنزانة المكتب مع صاحبي الشيخ حسين الديهي ليبقى الأستاذ عبد الوهاب حسين وحيدًا..

أبلغني مسئول النوبة الباكستاني الجنسية بأني مطلوب لمباحث أمن الدولة، في الوقت الذي تعكر مزاجي استبشرَ صاحبي

الشيخ حسين الديهي وقال: لعله الإفراج! ولكن نفسي كانت تحدثني بأن خيوط القدر بدأت تتدلى حول رقبتي..

أخذوني لمبنى المخابرات وأنا أُكثرُ من الاسترجاع ومن كل ما أحفظه من آيات وأذكار حتى لحظة وصولي دائمًا وأبدًا لمكتب ٤٩ بمبنى المخابرات..

وبعد نصف الساعة من الانتظار والترقب حضر مسئول قسم التحقيق وهو برتبة مقدم في حينها وله اليد العليا في قسم التحقيق ، حاول ملاطفتي في الحديث ثم أبلغني بأن صحة سماحة العلامة الشيخ الجمري ليست على ما يرام وأنه بحاجة لمن يقوم بخدمته، وبناءًا على ذلك فقد تم اختياري لهذه المهمة لمدة شهر واحد فقط، وقد أعطى تعليماته للمباحث بعدم إرجاعي لزنزانة رقم ٤ مع الشيخ حسين الديهي، بل أن يتم نقلي بشكل مباشر إلى زنزانة الشيخ الجمري.

وكان الفاصل بيننا - سجن المكاتب - وبين زنزانة الشيخ سلم من الحديد، فنحن نقع معه في نفس المبنى بفارق أن سماحة الشيخ الجمري كان يستخدم السلم الحديدي وكنا نستخدم الدرج الاعتيادي..

قام عنصر الأمن المخابراتي بتسليمي لمسئول النوبة عند

بوابة إدارة السجن وأخبره بقرار نقلي لزنزانة الشيخ بشكل مباشر، وقام المسئول الباكستاني بهز رأسه دون أن يفهم للعنصر اليماني !

استثمرتُ فرصة فارق اللغة وقلت له: المخابرات تريد منك إيصالي لزنزانة رقم ٤ بشكل سريع لتجهيز ما أحتاجه من لوازم طيلة بقائي مع الشيخ..

وقد لفتَ انتباهي استغرابه من قرار نقلي لزنزانة الشيخ، مما يعني أنه لم يفهم ما قاله رجل المخابرات اليماني، وإنما اعتمد على ما نقلته له!

أوصلني للعسكري – السجان - وأخبره بإعطائي مهلة نصف الساعة لتجهيز نفسي..

و من الواضح أن المخابرات كانت تهدف من وراء عدم إرجاعي لزنزانة رقم٤ لحجب المعلومات عن الشيخ الديهي وبقية الإخوة العلماء لإيهامهم بالإفراج عني، وربما لتشكيكهم بأني تعاونتُ مع المخابرات وقد أطلق سراحي! وذلك للنيل من عزيمتهم وقوة إرادتهم؛

لذلك كنتُ مضطرًا لعمل ما قمت به لقطع الطريق على ألاعيب المخابرات المعروفة..

قمتُ بتوديع الإخوة الأعزاء، وقد حمّلوني التياعهم وأشواقهم الحارقة لسماحة الشيخ الجمري..

عشرُ خطواتٍ فقط للانتقال من زنزانة رقم ٤ إلى زنزانة سماحة الشيخ الجمري، وبعد هذا الانتقال أكون قد انتقلتُ إلى محطةٍ جديدةٍ من المعتقل لا يحق لي فيها رؤية الإخوة أو السلام عليهم، وهناك إجراءات أمنية مشددة لعدم الالتقاء..

وفي لحظة واحدة انحشرتُ في زنزانة الشيخ الجمري، تلك الزنزانة التي كانت أشبه بقبر مقفل، بنوافذ ذات ستائر خشبية مقطعة من الخارج لايستطيع من في الخارج أن يمد بصره إلى الداخل لأنها مغلقة ومنطوية على أسرارها..

لم يكن سماحة الشيخ على علم بالموضوع، تفاجأ باللقاء، عانقني طويلاً وبحرارة وبكى بحرقة حتى أبكاني.

وقد كانت عيناه غارقتين في التعب..

لقد كانت خدمتي لسماحة الشيخ الجمري إحدى ثمرات المحنة، والتي اعتبرتها بحق منحة بفضل الله ، وسريعًا ما تلاشت فرحتي بخدمة الشيخ، فقد أخبرني الشيخ -والحسرة تعتصره- أن الزنزانة مزودة بجهاز تنصت، وأنه قد وقع لعملية ابتزاز

واحتيال وخيانة!

نعم هكذا نقل لي سماحة الشيخ بالحرف الواحد..

وقد استثمرتُ فترة التشميس -وهي الفترة التي يخرج فيها الشيخ للمشي في محيط إدارة السجن- للحديث مع الشيخ بكل حرية بعيدًا عن تلصص المتطفلين والحشو رين ، وقد صعقني سماحة الشيخ بحقائق مرة، وقد أخبرني بجميع تفاصيل مؤامرة المحكمة وظروف التوقيع على إفادة المخابرات..

وتدور تفاصيل المؤامرة بتخيير سماحة الشيخ الجمري بين التوقيع على لائحة الاتهام المتضمنة لعدة اتهامات خطيرة، والتي من أبرزها أن الشيخ الجمري لم يكن هدفه المطالبة بتفعيل الدستور وإعادة الحياة النيابية، وما تلك المطالب إلا غطاءاً شرعيًا للسعي نحو زعزعة واستقرار أمن البلد في محاولة لإسقاط نظام الحكم..

كما وجهّتْ إليه تهمة التمويل المادي لعمليات التفجير التي عصفت بالبلد وغيرها من التهم الخطيرة..

خيَّرته بين التوقيع على لائحة الاتهام هذه وبين التوقيع على الاعتراف على نفسه بإساءته للحكومة عبر الإدلاء ببعض

التصريحات لمن كانوا معه في الزنزانة في وقت سابق .

وبدورها قامت المخابرات بتسجيل تلك التصريحات والمحادثات عبر جهاز التصنت، وتحت الضغط النفسي وتحت وطأة هول الصدمة وعنصر المفاجأة اختار الشيخ الجمري التوقيع على لائحة الاتهام الصادرة من جهاز المخابرات في محاولة لنفي تلك الاتهامات أمام قاضي التحقيق..

شعرتُ بالانهيار، فقدتُ السيطرة على أعصابي، شعرتُ بحاجتي للبكاء، لكن الوقت والزمان لا يأذنان بذلك، وقد شعرتُ بالأسى من أجل سماحة الشيخ الجمري المظلوم..

شيء مروع ما سمعته من سماحة الشيخ، شيء يبعثُ على الغثيان، عملية نتنة وقذرة تعرض لها سماحة الشيخ الجمري، إنها الساعة التي تمنيت فيها انطباق السماء على الأرض، وقد شعرتُ باستياء وقلة حيلة..

قمتُ بتدوين تلك المعلومات الخطيرة في كتاب مفاتيح الجنان بين أسطر دعاء الندبة بخط ناعم وصغير لا يلفت الانتباه أو هكذا ظننت.

الرجوع للزنزانة رقم ٤

بمزيد من اللوعة والأسى حانت ساعة الوداع؛ إذ جاءني مسئول النوبة ليبلغني بقرار إرجاعي إلى زنزانة رقم ٤ ..

لا زلت أتذكر تلك الساعة الرهيبة على نفسي، شعرتُ بأن فؤادي يكاد ينفطر من الحزن والأسى العميق..

وضع يده الكريمة على كتفي بأبوة وقد اختنق الكلام على شفتي وأنا أجد دموع الشيخ تتسابق من عينيه بدون استئذان !!

أطرقتُ برأسي والأسى يملأني والحسرة تعتصر قلبي، تركتُ العنان لدموعي تسطّر آيات اللوعة والبكاء،

انحنيتُ على يد الشيخ وقبلّتها وتقاطرتْ دموعي على يده الكريمة..

أغمضتُ عيني أعصر دموعها ثم فتحتها ثانية لأمسح دموعها المنهمرة فالدمعة تجر الدمعة..

وبخطىً ثقيلة خرجتُ من زنزانة الشيخ الجمري متوجهًا إلى الزنزانة ٤ ..

أقبلَ علّي الإخوة الأعزاء بكل شغف وشوق لعلمهم بأني أحمل الكثير من أخبار سماحة الشيخ..

اجتمعنا في الزنزانة٤ وبدأت أحكي لهم مسلسل العناء الذي لاقاه الشيخ، وحجم المؤامرة ودناءة الخيانة..

كانت المعلومات التي قدمتها في غاية الدقة، نزل الخبر على الجميع كالصاعقة، وأخبرتهم بأن جميع المعلومات مسجلة في كتاب مفاتيح الجنان في دعاء الندبة، ولا أنسى أن السيد إبراهيم العلوي طلب مني الكتاب لمراجعة المعلومات وقد أمهلته لليوم الثاني، وشاءت مشيئة الله أن أتأخر في إعطاء الكتاب لسماحة السيد إبراهيم العلوي.

وفي الساعات الأولى من صباح اليوم الثاني باغتني رجال المخابرات يتقدمهم النقيب (أ.ز) برفقة أربعة من مباحث أمن الدولة متفاوتي الرتب..

اقتحموا زنزانتي التي أقيم فيها مع الشيخ حسين الديهي، وراحوا يعبثون بحاجياتي الخاصة، وقد جلس النقيب في قبالتي

برفقة عنصر مخابراتي وراح يقلب الكتب والمجلات ورقة ورقة..

وكان عنصر المخابرات يقوم بتوريق الكتب بشكل سريع بينما النقيب كان يقوم بتوريق الكتب والمجلات بشكل هادئ..

وقد أرهقتني برودة أعصابه في تقليب الكتب..

استمرتْ العملية لأكثر من ساعتين، وعندما جاءت النوبة على كتاب مفاتيح الجنان للتفتيش وضعته أمام العنصر المخابراتي لعدم تدقيقه في توريق وتقليب الكتب، ولكن شاءت الأقدار بأن عنصر المخابرات أعجبَ بإحدى المجلات الطبية وصار يتصفحُ الصور وأخذ يسألني بعض الأسئلة العلمية، وكان يقلبُ الصور وهو يعلق على الصور الموجودة بها..

في هذا الوقت بالتحديد انتهى النقيب من الكتاب الذي كان بين يديه وطلب مني مناولته كتاب مفاتيح الجنان، وصار يورق مفاتيح الجنان ورقة ورقة، وراح الشيخ حسين الديهي يبادلني النظرات لعلمه بخطورة الموقف..

اعتدلتُ في جلستي استعدادًا للمفاجأة..

تنفستُ الصعداء، واستعددتُ نفسيًا وجسديًا للمعركة التي تنتظرني..

حاولتُ إشغال النقيب بأمور أخرى، كان متشبثًا بالكتاب، نشرتُ الرسائل التي تصلني من الأهل بين يديه وكان عددها يفوق المائة رسالة، ولكنه لا يريد ترك الكتاب، وراح يواصل التوريق بأعصاب هادئة حتى قطع شوطًا كبيرًا من الكتاب، وفي القسم الأخير من الكتاب حيث يقع دعاء الندبة، هناك وقع نظره على ما قمت بتدوينه من أرقام وحقائق حول محاكمة سماحة الشيخ الجمري.

رمقني بنظرة شزرة ملؤها القسوة والإرهاب قائلاً بصوت مخيف: ما هذا؟!

قلت له بكل هدوء: لائحة اتهام الشيخ الجمري..

وكيف حصلت عليها ؟ النقيب متسائل ..

فقلت له: أخبرني عنها الشيخ الجمري..

الجمري !! قالها مشدوهًا..

أكدتُ عليه.. نعم الشيخ الجمري !!

وهل طلبَ منك تهريبها للخارج؟ سألني النقيب.

فقلت له: كتبتها من باب الفضول وحب الاستطلاع..

لم يلحظ النقيب أي ارتباك في موقفي ولم يبدُ علي الخوف نتيجة نظراته الحادة وأسلوبه المخيف!

وحرصت على: عدم اللعثمة، وعدم التعرق ، وعدم تفادي نظرات النقيب ومخابرات أمن الدولة، والهدوء النفسي، وكأن العملية لا يوجد بها ما هو خطأ..

قام النقيب وأطبق الكتاب بقوة وصفق بيده اليمنى على ظهر الكتاب وطلب من المباحث مضاعفة الجهد في التفتيش، وطلب مني عدم التحرك من مكاني وخرج مسرعًا وهو يصفق الباب وراءه، وطلب من السجان إقفال جميع الزنازين الأخرى وعدم السماح لأحد بالخروج.

ضبط عملية تهريب

دبّ النشاط والحماس لدى مباحث أمن الدولة بعد العثور على الكتابات الموجودة بمفاتيح الجنان..

استمر القوم في تقليب الكتب والأمتعة والعبث برسائلي الخاصة، فصاروا يخرجون الصور العائلية من الألبومات ويلقون بها على الأرض؛ وذلك للتأكد من خلو الصور من أي كتابات أو شفرات خاصة أو رموز غير مفهومة؛ ولضمان عدم حشر أي ورقة بظهر الصور، إلاّ أن الفشل كان حليفهم، فلم يعثروا على شيء من هذا القبيل.

قاموا بتفريغ حقيبة الملابس، حتى امتلأت أرضية الزنزانة بالأمتعة المتناثرة، وتحول منظر الزنزانة إلى كومة من الفوضى..

وفي أقل من نصف الساعة على انصراف النقيب جاء

مسئول النوبة ليخبرني بأني مطلوب في مكتب مدير السجون، وكانت الزنزانة تقع على مبنى إدارة السجن من الجهة الشرقية مباشرة.

اقتادني مسئول النوبة لمكتب المدير، وعلى عتبات الدرج في أثناء النزول طلبت منه أن يأخذني إلى دورة المياه لحاجتي الملحة لذلك..

ارتبكَ وبدا عليه الخوف، تظاهرتُ بالوقوع وأني لا أتمالك نفسي، أخذني للحمام المخصوص لإدارة السجن، والذي يقع بالمقابل لمكتب المدير.

أخرجتُ الرسالة التي سلمني إياها سماحة الشيخ الجمري -والتي أمرني بإيصالها إلى الإخوة العلماء- وقمتُ بتقطيعها ورميها في المرحاض ثم أجريت عليها السيفون، وحمدتُ الله أن الجميع قام بقراءة الرسالة لكونها على قدر كبير من الأهمية.

خرجتُ من الحمام سريعًا بعد أن تأكدتُ من زوال أي أثر لبقايا القصاصات، وبخطوات منتظمة دخلنا غرفة الضابط الإداري، وقد كانت ممتلئة بوجوه غير مريحة فتعوذت بالله من شر ما خلق، وقرأت في وجوههم: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ

﴿خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1]، كانت عشرة أزواج من الأعين تراقبني وتلاحظني..

فصرتُ أتلو جميع ما أحفظ من الأذكار وأحراز الحفظ والنجاة..

كان الصمت يسود الموقف، فلا تسمع إلا أصوات الأنفاس، استمر بنا الحال على هذا الوضع لربع الساعة تقريبًا، والقوم جلوس وأنا واقف، بعدها دخل علينا أحد عناصر مباحث أمن الدولة وناداني باسمي وقال لي: حياك معاي..

اقتادني إلى باب يفضي إلى مكتب مدير السجون، فما إن ولجتُ غرفة المكتب تفاجأتُ بوجود العلامة سماحة الشيخ الجمري حيث كان جالسًا على الكرسي الجانبي التابع لمكتب مدير السجون ويقابله في الجلوس مسئول قسم التحقيق بمخابرات أمن الدولة ، وهو المدير الفعلي لجهاز المخابرات بعد هندرسون مباشرة ، وكان لا يزال برتبة مقدم في حينها، بينما كان مدير السجون -والذي تستريح على كتفيه علامة التاج والنجمتين مما يعني أنه برتبة مقدم- يجلس على مكتبه بكرسيه الدوار، وعلى الأريكة المريحة المكسوة بالجلد الطبيعي ذات اللون الأسود كانت

---

(١) سورة يس، الآية: ٩.

تجلس الشخصية التي كان يشير اليها سماحة الشيخ الجمري بأن لها الدور الأكبر مما جرى عليه !!

ابتدرتُ بالسلام على سماحة الشيخ الجمري، وبقيتُ واقفًا

في وسط المكتب بدون أن يُؤذن لي بالجلوس..

استقبلني المقدم -المدير الفعلي لجهاز المخابرات بعد هندرسون مباشرة- بالصراخ وارتفاع الصوت قائلاً: أهذه نتيجة الثقة؟!

تقوم بالتآمر ضد الوطن مع جهات أجنبية؟!

قلت له باستغراب: عن أي مؤامرة تتحدث؟!

قال بانفعال: وبكل وقاحة تجرؤ على رد الحديث بعد أن ضبطناك متلبسًا بجريمتك؟! لصالح من تقوم بتهريب هذه المعلومات؟ قالها بعصبية..

قلت له: صحيح أني ضد سياسة النظام ولكني لا أعمل ضد الوطن..

فقال : أنتم تكنون الولاء لجهات أجنبية وتعملون على زعزعة الأمن في البلد !

وهنا بدأ يفقد توازنه وبدأت أعصابه في الانفلات، وصار يتكلم في التنظير السياسي ويقول: أنتم تتحالفون وتتعاملون مع الشيوعيين ضد الوطن، وهم يترفهون في المناصب العليا وأنتم هنا في السجن لا تعرفون مصلحتكم من أجل الخرابيط والبرلمان.

وصار يسترسل في الكلام وقد تلبسته حالة من الهستيريا..

ومباشرة انتقل إلى موضوع آخر وقال: ولماذا تتهم (فلانًا) -وهو يشير إلى الشخصية المشار اليها الجالسة على الأريكة- بالعمالة وأنه يعمل لصالح المخابرات؟! قلت له: لم أتهمه بذلك !

فقال لي بعصبية: أتقسم على القرآن بأنك لا تتهمه بالعمالة؟

رفضت الحلف وقلت له: لم أتعود الحلف لأمور دنيوية..

تبسم ونظر في وجه الشخصية المشار اليها وقال: ألم أقل لك؟!

هذا هو علي عاشور، لا يستطيع الحلف..

حينها شعرتُ بأنه قد ترك في نفسي ثقبًا غزيرا لا يمكن حشوه مرة أخرى، كيف يسمح لنفسه بأن يقوم ذلك رجل

المخابرات بالدفاع عنه محاولاً إذلالي وإهانتي وهو في موقف المتفرج؟! وبأي عنوان يأذن للمخابرات بأن تتولى الدفاع عنه !!!

بدون أن يأبه أو يبدي أي انزعاج من ذلك الموقف؟!

لقد أصبتُ بخيبة أمل فقد جرت الأمور على غير ما توقعت..

عندها التفتَ لي ذلك الرجل المسئول الأول في مخابرات أمن الدولة وقال لي: لن تفلتْ من قبضة العقاب..

حينها استثمرتُ فترة هدوئه حتى أقوم بتطمين سماحة الشيخ على عدم حصولهم على تلك الرسالة، فقلت - وأنا أنظر في وجه سماحة الشيخ-: أنتم وجدتم مجرد كتابات عادية في مفاتيح الجنان ولم تعثروا على أي شيء آخر، ولم تعثروا على ما يدل بأني أقوم بالتهريب.. قلتُ ذلك لأن أمانة الشيخ طوق حديدي في عنقي..

فقال لي مهددًا: يجب أن تعترف بجريمتك، لا بد وأن تكتب أقوالك على إفادة وسنقوم بمحاكمتك، فأنت لا تستحق الثقة ولا بد من ترحيلك إلى سجن جو.

الإفادة

كانت الساعة تقترب من الحادية عشر والدقيقة الثلاثين عندما فاجأتني مباحث أمن الدولة للمرة الثانية في زنزانتي العامرة!

طلبوا مني مرافقتهم إلى مبنى المخابرات؛ وذلك لتسجيل الإفادة..

نزلتُ معهم إلى ساحة الإدارة، وهناك كان أحد ضباط المخابرات بانتظاري..

وضعوا القيد الحديدي في معصمي واقتادوني مكبل اليد بقيد حديدي أحد طرفيه بيدي اليمنى والطرف الآخر بمعصم أحد عناصر المخابرات..

وفي مبنى المخابرات أدخلوني من البوابة الإلكترونية المتشعبة القضبان التي لا تنفتح إلا بتمرير البطاقة الممغنطة فيها، وكانت العادة أنهم يأخذونني عبر المصعد الكهربائي، ولكنهم في

هذه المرة بالتحديد أخذوني عبر الدرج.

وفي أحد أروقة المبنى وقع بصري على أحد الشباب، ويبدو أنه أحد العملاء؛ لأنه كان بدون حراسة خارجًا من أحد المكاتب.

حاول أن يتحاشاني لكنه لم يتمكن من ذلك فقد فات الأوان، فزجرني ضابط المخابرات قائلاً بلغة آمرة: أنزل رأسك للأسفل، بصرك تحت قدميك، فهويت بنظري إلى الأرض..

وعندما وصلنا إلى المكتب ٤٩ سمعنا صوت الأذان، فقال لهم الضابط: نحن لا نمنع أحدًا من الصلاة، أعطوه حريته للصلاة، أعطوني سجادة الصلاة وقالوا لي: خذ وقتك الكافي للصلاة.

كانت فرصتي المناسبة للانقطاع إلى الله، قمتُ بأداء فريضة الظهرين وبعدها صليت ركعتي الحاجة، قرأت في قنوتها دعاء التوسل وفي سجودها دعاء الفرج، واستحضرتُ معاني البلاء، وقررت بداخل نفسي أن أكون مع الله بحفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، واستحضرتُ في ذهني أن الأمة لو اجتمعت لترفع عني هذا البلاء لم تستطع ذلك إلا أن يشاء الله ذلك، ولو أنها اجتمعت لتضرني لم تستطع ذلك إلا أن يشاء الله، وكان ذلك مما زادني يقينًا بأن جهاز المخابرات لا يستطيع إيذائي ما لم يشأ الله

ذلك، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1]، حاولتُ أن أرفع من معنوياتي النفسية باستحضار صمود الأولياء والصلحاء السجناء والذي يفرض عليهم شتى أنواع التضييق والتنكيل على البلاء، وأن الصمود إرادة، وأنه بإمكان الإنسان التحمل متى ما أراد ذلك ، وأن الصمود صمود الروح لا الجسد، وخصوصًا أن الواجب الشرعي يحتم علي الصمود والثبات، وأنه من الواجب الأخلاقي تحويل الصمود والثبات إلى سلوك عملي، وفي حالة الانهيار – لا سمح الله- كيف سينظر لي الآخرون؟ وكيف سيكون موقفي أمام الشيخ الجمري؟!

وكيف سيكون منظري إذا لم تثبت رجلاي في مواقع الابتلاء والامتحان !!

لازالت معنوياتي عصية على الانهزام والتراجع.. وروحي مشحونة بثقافة الارتفاع على الشدة والسجن..

كانت هذه الثقافة تدور في رأسي بشكل كبير خاصة أني سأكون المسئول بالدرجة الأولى عن أي مكروه يصاب به الشيخ الجمري فكان لزامًا علي المقاومة والصمود وعدم ترك الأمور تجري على أعنتها..

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥١.

وبمجرد أن طويت سجادة الصلاة دخل المحقق وسألني: هل انتهيت من الصلاة؟ فأجبته بالإيجاب..

جلس على كرسيه المتحرك الدوار وطلب مني الجلوس، وأخرج من درجه الأوراق الخاصة بتسجيل الأقوال والتي تسمى بالإفادة، وحاول أن يصيغ القضية بطريقة ذكية تستبطن الخبث لتوريطي في قضية تسريب معلومات خطيرة من داخل السجن إلى جهات أجنبية بواسطة زوجتي!

أزحتُ الورقة من أمامي وقلت له بانفعال ظاهر: أنت تفترض أشياء لم تحدث و تريد الوصول إلى نتيجة معينة مقررة سلفًا..

فأبديتُ رفضي الشديد للإمضاء على هذه الإفادة وقلت له: هذه وصفات جاهزة لا علاقة لي بها وقد بدا لي بشكل واضح خبثه وسوء سريرته التي تفوح من نظراته..

وراح ينقر بأصابعه على طاولة المكتب وهو يغرز عينيه في وجهي..

ثم فتح درج المكتب وأخرج منها بيانين، الأول لحركة أحرار البحرين، والآخر للشيخ عيسى أحمد قاسم، ويبدو أن

البيانين قد تناولا قضية الشيخ الجمري، إلا أنه لم يسمح لي بقراءتهما..

هز رأسه وهو يزم شفتيه وقال لي: كيف خرجتْ هذه المعلومات من زنزانة الشيخ الجمري؟

في الوقت الذي حصرني فيه في زاوية حادة فرحت بذلك الخبر لصدور تلك البيانات التي أظهرت ظلامة الشيخ الجمري..

ومن هنا بدأت أفهم أن كل هذا الاستنفار وحالة الطوارئ والتفتيش المفاجئ كان بسبب هذه البيانات الصادرة صبيحة ذلك اليوم، عندها بدأتُ أتوقعُ أسوأ الاحتمالات، ولم تنفعْ معه جميع المخارج التي قلتها له، وكنت أكثر ما أخشاه بعد توقيعي على هذه الإفادة استدعاء أم سجاد وإيهامها بأني اعترفتُ عليها وأني قمت بالتوقيع على الإفادة، فيقومون بابتزازها لتوريط آخرين في القضية، وخصوصًا أنها لا علم لها بهذه الأساليب.

تصورتُ نفسي وأنا بهذا المنظر وكيف سيكون موقف أم سجاد مني؟! وكيف قمت بكل سذاجة بتوريطها بقضية لا علاقة لها بها؟!

كما أنّ الاعتراف ولو بشيء بسيط يجر الفرد إلى اعترافات أخرى ..

وبالتالي فإن نوبات التعذيب وأساليبه سوف تتضاعف وتشتد خلافاً للوهم السائد بأن الاعتراف قد ينهي التعذيب أو يخفف من حدته لأن الجلاد بمجرد حصوله على أول اعتراف فانه سيضاعف من الضغط لانتزاع اعترافات أخرى !!

ولن يقتنع أبدًا بأن هذا الاعتراف هو كل ما لدى المعتقل ..

بينما الصمود والمقاومة والتمسك بالموقف الثابت والصلب يقنع الجلاد شيئاً فشيئاً بأن السجين لا يمتلك شيئاً ليعترف به ..

لذا كنت بحاجة لإعادة تنظيم وترتيب أفكاري المبعثرة..

وتجنبًا لمغامرة الوقوع في فخ الرمال المتحركة عمدت إلى الفكرة التالية..

رميتُ القلم على مكتب المحقق ووضعتُ يدي على جبهتي وقلت له: سأعترف لك بالحقيقة!

أسندَ ظهره للكرسي الدوار وهو يتنهد بارتياح بعد أن انفرجتْ أساريرُ وجهه قائلاً لي: تكلم بكل وضوح، وثق بأني

سأطالب بتخفيف العقوبة عنك، والآن أخبرني من الذي قام بتسريب تلك المعلومات؟ ومن هو الوسيط في تهريبها؟ قال المحقق..

قلت له: لا أحد، والحقيقة أني قمتُ بالاتفاق مع الشيخ الجمري بأن أقوم بدور الوسيط بينه وبين المعارضة في الخارج على أن يتنازل الشيخ عن المطالبة بالبرلمان مقابل إسقاط التهم المنسوبة إليه وإطلاق سراحه، وقد أردفت بكلامي: زنزانة الشيخ مزودة بجهاز تنصّت وأنتم أدرى بما جرى، كما يمكنكم التحقق من صحة هذا الكلام من الجمري مباشرة..

كان يستمع لحديثي دون مقاطعة ودون احتجاج وبشيء من الإيجابية تجاه ما أقول أحيانًا لدرجة الإصغاء باهتمام..

وقد بدتْ له حكايتي منطقية ومترابطة، وقد قام بتمزيق الإفادة الأولى ليغيرها إلى الصياغة الجديدة..

ولا أذيع سرًا إن قلت بأني قمت بتمثيل هذه المسرحية -التي لا وجود لها إلا في خيالي- لأني اكتشفتُ من خلال أسئلة المحقق بأن جهاز التصنت لم يكن فعالاً حين تواجدي مع الشيخ، بدليل خفاء الكثير من التفاصيل عليهم، ومما زاد يقيني هو حكايتي لهم لهذه القصة، والواقع أنهم من اضطرني لذلك لممارستهم

الأساليب الابتزازية والوصفات الجاهزة، ولم يقتنعوا بكلام الصدق، واقتنعوا بعدم الصدق منه !

لذلك شعرتُ باللطف الإلهي وأحسستُ أن الله معي، ومع ذلك فإن المقّدم لم يعفني من العقوبة، وقد نفذ تهديده بحقي لأنه اعتبرني قد قمت بمحاولة لتضليل الحكومة بمعلومات كاذبة.

البرج والفئران البوليسية

مع نهاية الدوام الرسمي قمت بالتوقيع على الإفادة، وقد لحظت أن جميع عناصر جهاز المخابرات يشعرون بالحنق ضدي لأني كنت السبب في تأخيرهم عن الانصراف بنصف الساعة تقريبًا.

صدر القانون ضدي بإيداعي في الحجز الانفرادي، حيث تتم الإجراءات الشكلية بأن تقوم مباحث أمن الدولة بتسليمي إلى إدارة السجن الموقرة باعتبارها الجهاز التنفيذي لأوامر وتعليمات المخابرات، وهي بدورها تقوم بتنفيذ قرار المخابرات بتطبيق عقوبة الحجز الانفرادي..

ونتيجة لإرباك نهاية الدوام وخروج جميع ضباط إدارة السجن نسي عنصر المخابرات أن يبلغ مسئول النوبة بتسجيل قرار عقوبة الحجز الانفرادي في دفتر سجل الأحداث اليومية حتى يقوم الضابط الإداري في اليوم التالي بإصدار قراره بتنفيذ العقوبة.

أرجعوني بشكل سريع إلى الزنزانة رقم٤ حيث الإخوة هناك يعانقون القلق بشكل كبير بشأن تأخيري، وبمجرد وصولي أخبرتهم بقرار عقوبة الحجز الانفرادي.

وبعد أسبوع كامل على الحادثة، وفي اليوم الثامن من المحرم الحرام لعام ١٩٩٨ م على وجه التحديد، وفي الوقت الذي كنا مجتمعين فيه في الزنزانة رقم٤ ـ حيث إن إدارة السجن قد أكرمتنا بفتح أبواب الزنازين في وقت الوجبات لمدة ساعة ونصف الساعة تقريبًا مما يتيح لنا حرية الالتقاء ـ باغتنا مسئول قسم التحقيق في مبنى المخابرات وهو المقدم المعهود، وقد وقف على شباك الزنزانة وقد بقي الجميع في مكانه من دون أن نغير من وضعيتنا أو نهتم لوصوله.

تفاجأ لوجودي في الزنزانة وقال باندهاش كبير: أنت أيضًا هنا؟ وكيف جئت إلى هنا؟ ومن الذي جاء بك إلى هنا؟!

قلت له ببساطة: لأن هذه زنزانتي، وهذا هو مكاني الطبيعي.

فقال : أنت لا تستحق هذا المكان، يجب أن يكون مكانك في البرج وليس هنا، وانصرف سريعًا..

تلقيت تهديده بابتسامة مصطنعة..

وفي صباح اليوم الثاني -وهو يوم التاسع من محرم الحرام- جاءني مسئول النوبة وأخبرني بقرار نقلي إلى البرج، وهو الزنزانة الانفرادية الرهيبة، والتي قضى فيها الأستاذ حسن المشيمع لأكثر من ستة أشهر متواصلة.

منحني نصف الساعة من الزمن لحزم أمتعتي بالكامل بلا استثناء ، وقد جرت العادة على من صدرت بحقه عقوبة الانفرادي ألا يصطحب معه أي شيء مما يوحي بجدية نقلي إلى سجن آخر.

وعندما حاولت الاستفسار أكثر عن غرابة القرار قال لي مسئول النوبة: يمكنك مراجعة الضابط المناوب في حالة الاعتراض على القرار.

ابتسمتُ بسخرية وقلت في نفسي: أي اعتراض هذا ؟!

إنه قرار صادر من الجهات العليا ، إنها الجهة التشريعية، إنه قرار المخابرات، وما هؤلاء المرتزقة إلا عبارة عن آلة الجهاز التنفيذي التي تستعين بها إدارة السجن، يضاف على ذلك أن تنفيذ القرار تزامن ويوم التاسع من المحرم يوم الإجازة الرسمية!!

نعم عليّ أن أمارس الحرمان لسنوات طويلة.. هكذا أوحيت لنفسي..

حزمتُ أمتعتي بسرعة وصار الإخوة يقتربون مني واحدًا تلو الآخر يودعونني ويثبتونني ويسمعونني كلمات التصبير والمواساة، وأنا أودعهم وداع الفراق.

إنها لحظات يصعب وصفها، إنه الشعور بمرارة الفراق، فراق الأحبة، وكم هو منظر مؤلم ونحن لا نعلم ما إذا كنا سنلتقي على وجه الأرض أم في بطن الأرض ؟!

ودعتهم بحرارة والحسرة تعتصر قلبي، ومسئول النوبة المكلف بنقلي إلى البرج ينتظرني ونظراته مليئة بالشفقة؛ لأنه يعلم جيدًا إلى أين سيأخذني، كان يرافقني ونظرات تأنيب الضمير لا تفارق عينيه..

ومع أذان الظهر ليوم التاسع من المحرم وصلت البرج، وما أدراك ما البرج !!

كنت أسمع كثيرًا عن البرج ولكني الآن عاينته على الطبيعة، إنه دائري الشكل، شاهق الارتفاع، تصميمه الهندسي يقترب بدرجة كبيرة من قلعة البحرين الأثرية، ويبدو أنه يُستخدم كبرج مراقبة فيما سبق؛ لأنه يقع في زوايا القلعة، وتوجد في جداره فتحة صغيرة يبدو لي أنها مهيأة للمراقبة، وربما لفوهات بعض الأسلحة، إلا أنها قد سدت بشبك من الحديد.

ويقع البرج مقابلاً لمكتب سجن المنامة بشكل مباشر، وتوجد ببابه الحديدي فتحة صغيرة كنا نعتبرها بمثابة النافذة التي نرى من خلالها العالم خارج أسوار البرج.

وعلى يميني تقع اللجنة الأمنية للتحقيق ، حيث أصوات الشباب وصرخات الألم التي أسمعها ليلاً ونهارًا، إنها أصوات صراخ وأصوات استغاثة، إنهم شباب يئنون، أصواتهم تنفذ إلى قلبي، لينتشر رنينها في العروق، وأنّاتهم تنخر في الضلوع، أصوات تمزقني من الداخل.

ومن قوانين البرج أنه بدون حراسة، فلا نجد العسكري واقفًا خلف الباب، ولا يُسمحُ لنا بارتياد دورة المياه إلا في أوقات الصلاة فقط وفقط، وعندما يمرض أحدنا فالله معه، مهما ضربنا على الباب الحديدي بكل ما أوتينا من قوة فلا أحد يسمع، أي قسوة هذه؟! وأي قلوب هذه؟! لقد قاموا بحسن الضيافة إهانة وإذلالاً حتى نلت حظي بسخاء كبير!! فعلاً إن البرج مقبرة الأحياء، ومعقل الشرفاء، إنها الزنزانة التي تعزل ساكنيها تماما عن العالم الخارجي بمعنى الكلمة، فلا نرى العسكري إلا وقت الصلاة لفتح الباب، والكلام معه أيضًا من قائمة الممنوعات، ولا توجد بالبرج دورة مياه، فهم أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن يأخذوا المعتقل

إلى دورات مياه سجن المنامة أو إلى اللجنة العسكرية، فاعتقال البرج يعني تجريد رائديه وساكنيه حتى من الحقوق الإنسانية، فالمعاملة لا تختلف عن معاملة البهائم والحيوانات بفارق الحفاظ على حياة المعتقل بتوفير الطعام والشراب حفاظًا على حياته من الموت..

فقد قضيتُ أسوأ وأفظع أيام اعتقالي بسجن البرج !!

إنها محاولة لتكميم الأفواه، يريدون لكل معتقل أن يتحول إلى شخص جبان عديم الفائدة، شخص هامشي لا يفكر إلا في طعامه وحسب، لا يتحرك لنصرة دينه ومبادئه، يريدون أن يتحول هذا المعتقل بعد تجربة البرج إلى صفر على الشمال، محاولين وأد المعتقل وهو على قيد الحياة..

إنهم يحاولون تحطيم الإنسانية بداخل المعتقل، يحاولون إذلاله حتى في أبسط حقوقه، أي معاناة يتحملها معتقل البرج وهو يشعر بحاجته للحمام ولا مجيب، مهما تصرخ ومهما تستغيث فلا يجيبك إلا انعدام حتى صدى الصوت، والشيء السيئ الآخر هو الفئران الكبيرة جدا جدا، فو الله العظيم -بكسر الهاء- وجدت القطط تبتعد عنها لكبر حجمها.

و لا أبالغ إذا قلت إنها - الفئران البوليسية - !

كان منظرها يرعبني، كيف أتصرف لو اقتحم أحدها الزنزانة؟!

إنها تسرح وتمرح على عتبات درج البرج، منظر فظيع، رباه رحماك، رباه عفوك، إنها ليلة العاشر من المحرم.

انتهاء خيوط المسرحية

المفاجأة الكبيرة التي لم تكن بالحسبان -والتي احتفظت بها بجيبي لساعة كتابة هذه المذكرة- أني تفاجأتُ بوجود الشخصية الأخرى التي أخبرني عنها سماحة الشيخ الجمري ، وهي الشخصية التي وصفها بأنها شريكة الشخصية المشار اليها والتي التقيتها بمكتب مدير السجون في التآمر على الشيخ كما نقل لي ذلك سماحة الشيخ الجمري، وجدتُ تلك الشخصية في البرج !!

وقد قام جهاز المخابرات بإسماع سماحة الشيخ الجمري -عبر جهاز التسجيل- صوت تلك الشخصية الموجودة معي بالبرج وهي تتحدث إلى وزير الداخلية مدلية له بمعلومات في غاية الأهمية والسرية عن الشيخ الجمري ، وهي المعلومات بعينها التي تحدث فيها الشيخ الجمري مع تلك الشخصية ولم يتحدث قط لأحد بمثل هذه المعلومات، وعلى ضوء هذا التسجيل قامت المخابرات بتخيير سماحة الشيخ الجمري بين أن يوقع على هذا

المستند الصوتي لتقديمه لمحكمة أمن الدولة وبين أن يوقّع على لائحة الاتهام التي أعدتها المخابرات، والتي تحتوي على العديد من التهم الخطيرة، كاتهامه بأنه استخدم المطالبة بالبرلمان كغطاء قانوني وشرعي للقيام بقلب وإسقاط نظام الحكم، وأنه يقوم بتمويل الانتفاضة ماديًا، إلى غير ذلك من التهم الجاهزة والمعدة مسبقًا.

وقد قامت المخابرات بالتلويح للشيخ الجمري بأن التوقيع على لائحة اتهام المخابرات هي الأقل ضررًا وأنها ستخفف عليه في الحكم، وخصوصًا أنهم أخبروه بأن الشخصية المشار اليها أبدت استعدادها للشهادة ضد الشيخ الجمري في المحكمة وقد حاولتُ حينها إقناع الشيخ الجمري أنها من ألاعيب المخابرات الهادفة النيل من عزيمتكم وقوتكم إلا أنه رفض هذا التبرير ومقتنعًا تمام الاقتناع مما يقوله !!

وبسبب الضغوط النفسية الكبيرة - والذهول وهول المفاجأة وشدة الصدمة التي وقعت على قلب الشيخ الجمري - اختلت الموازين -، لا سيما أنه يعيش العزلة، فحجم الإرهاب النفسي الذي لاقاه من جهاز المخابرات كان كفيلاً بأن يرجح الخيار الثاني، وهو خيار التوقيع على لائحة الاتهام الجاهزة التي

أعدتها المخابرات، والتي بسببها أخذوني إلى البرج، وعلى حد زعم المخابرات فإن وزير الداخلية سيقوم بإطلاق سراح هذا الرجل الموجود معي بالبرج مكافأة له على هذه المعلومات الثمينة التي أدلى بها في مكتب الوزير..

بعد هذه المفاجأة المذهلة -والتي جعلتني أرى أني سأعيش مع هذه الشخصية في زنزانة واحدة- هجمتْ علي التساؤلات والمخاوف والهواجس دفعة واحدة وبلا رحمة، أيكون هذا الرجل الذي سأعيش معه في زنزانة واحدة هو الذي أوصل الشيخ الجمري إلى المحكمة؟!

ولكنهم لماذا يا ترى جمعوه معي في زنزانة البرج؟!

أيكون فصلاً جديدًا من فصول المسرحية التي لم تكتمل فصولها بعد؟!

ولكنها حماقة، أيعقل أن ترتكب المخابرات حماقة كهذه الحماقة لتلعب معي على المكشوف؟! فالمخابرات تدرك تمامًا بأني كشفت خيوط المسرحية، وسيبقى هذا الفصل سخيفًا لأنه على المكشوف، بدأت أتحدث مع الرجل بتحفظ كبير وحذر شديد وأنا لا أصدق نفسي، وبذريعة التنظيف رحت أفتش في كل ركن من أركان البرج علني أعثر على جهاز التصنت الموجود..

وبعد اليأس قررتُ أن أحاصره بالأسئلة وأفاجئه بالموقف لأرى مدى الإرباك الذي سيطرأ عليه، فالموقف لا يحتمل الصمت أو المداهنة، ولن يحدثْ لي أسوأ مما أنا فيه، وبدون أي حساب للعواقب قررتُ أن أستخدم معه جميع أسلحة الدمار الشامل، وأن أبدأ بالهجوم وأتركه في موقف الدفاع، حاصرته بجميع ما بحوزتي من قنابل عنقودية، وبلهجة حادة قلت له: ألم يعدوك بالإفراج؟! وقد كان اتهامًا أكثر منه سؤالاً..

تطلع لي وعليه سيماء الحزن ثم قال: لا! لم يعدوني بالإفراج !!

قلت له : أين كنت طوال تلك الفترة بعد نقلك من سجن المكاتب ؟

فقال: أخذوني إلى زنزانة الشيخ الجمري ..

وبدون أن أعطيه فرصة لإكمال الحديث قلت له: وبعد زنزانة الشيخ الجمري إلى أين أخذوك؟

فقال : إلى هنا حيث البرج..

ولم البرج ؟ قلت له باستغراب !!

فقال: لا أعرف ما القصة، فمنذ شهرين وأنا هنا!

عندها تنفستُ الصعداء وشعرتُ بأن الرجل لا علم له بما جرى وهو يعيش في عالم آخر..

فقلت له: الشيخ الجمري يتهمك بالجاسوسية، وأن الشخصية المشار اليها والتي تربطك بها علاقة صداقة تؤكد بأنك قابلتَ وزير الداخلية وقد اعترفت على الشيخ الجمري بما دار بينكما من حديث، وأنك قمت باستدراج الشيخ الجمري في الحديث، وقد سمع الشيخ الجمري صوتك بكل وضوح عبر جهاز التسجيل وأنت تقوم بالاعتراف عليه وقد قلت كذا وكذا وكذا، وأنك أخبرتهم عن الحادثة الفلانية التي لا يعلم بها غيرك، فكيف وصلت جميع هذه المعلومات للمخابرات وبصوتك؟؟ وماذا يعني أن وزير الداخلية يعدك بالإفراج؟!

نظرتُ في وجهه مليًا فوجدته قد أصيب بالذهول وقد امتقع لونه واكفهر وجهه وجحظت عيناه وهو يستمع لذلك الخبر الذي نزل على رأسه كالصاعقة..

فقد تلقى الخبر بذعر شديد وهو في حالة أشبه بمن فقد لبه..

وقد سيطرتْ عليه حالة من الألم العميق والحزن الصادر من الأحشاء..

فوضع المصحف الشريف على رأسه وأقسم بالله العظيم وأقسم بحرمة ليلة العاشر من المحرم وبدماء عبد الله الرضيع بأنه بريء من هذه الرواية براءة الذئب من دم يوسف، وأنه لا علم له بجميع ما سمعه، وأن الصوت الموجود في شريط التسجيل صوت مدبلج ، وأنه على أتم الاستعداد لطلب المخابرات وطلب لقاء يجمع بينه وبين الشيخ الجمري والشخصية المشار إليها حتى يقوم بتكذيب المخابرات بحضور الشيخ الجمري، ويقوم بتكذيب الشخصية المشار إليها، وأنه على أتم الاستعداد لتحمل عواقب هذا الأمر.

وضعتُ يدي على رأسي وقلت له: لا علاقة لك بالشخصية المشار إليها ؟

ألم تره ؟ فقال: لم أره ولا علاقة لي به..

فقلت له: الإفراج عنك في هذا التوقيت بالتحديد يعني القضاء على شخصيتك، فالجميع يشير بأصابع الاتهام إليك..

تضامنتُ معه وقلت له: يجب أن تعمل شيئًا وأن تقوم بإثبات براءتك، وكان من لطف الله أننا على موعد قريب لزيارة الأهل، فموعدي لمقابلة الأهل كان يوم الثاني عشر من المحرم وموعده للزيارة كان يوم الثالث عشر من المحرم..

وفي يوم الزيارة طلبت من الشرطي المسئول أن يجعل وقتي المخصص لزيارة الأهل نصف الساعة فقط وأن يجعل بقية الوقت -وهو على مدار الساعة الكاملة- لزوجتي أم سجاد فقط..

كما طلبتُ من زوجتي إخراج الأولاد مع العائلة حتى نستطيع الحديث بهدوء، شرحتُ لها المعاناة الشديدة التي نعانيها، وأخبرتها بحقيقة موضوع الشريط المدبلج حتى تقوم بزيارة أم جميل زوجة الشيخ الجمري لتروي لها حقيقة الموضوع، وأن المخابرات قامت بتغرير الشيخ وإيهامه بعمالة الشخصية الموجودة معي في البرج وأنه لا علاقة له بالشخصية المشار اليها ، وأن الموضوع ما هو إلا مسرحية وعليه أن ينتبه لتبعاتها..

كما طلبتُ منها الالتقاء بعوائل العلماء الموجودين في سجن المكاتب وإخبارهم بحقيقة الأمر حتى يقوموا بالتصحيح..

وهكذا انتهت خيوط المسرحية وكان وجودي مع هذه الشخصية في البرج هو السبب الحقيقي لانكشاف الحقيقة، وأن ما قامتْ به المخابرات هو عين الحماقة.

الترحيل إلى سجن جو المركزي

بعد حادثة عقوبة البرج على خلفية نقلي مع الشيخ الجمري قررتْ إدارة المخابرات نقلي إلى المحطة الثالثة، وهي سجن جو المركزي، وذلك بعد تمام الأسبوع على العقوبة، وبالتحديد في نهاية الدوام جاء مسئول النوبة وأخبرني مع صاحبي بقرار النقل..

حاولنا حزم الأمتعة بشكل سريع استعدادًا للتفتيش قبل المغادرة، وبعد أقل من نصف الساعة جاء الشرطي المسئول عن تفتيش أمتعتنا وبدء بتقليب الصور والرسائل ظاهرًا وباطنًا، وبسبب حرارة الجو اضطر لاختصار التفتيش وترك بقية الأمتعة بدون تفتيش لعلمه أننا سنخضع لإعادة التفتيش في محطة سجن جو..

أمرنا بركوب السيارة المخصصة لنقلنا إلى السجن الجديد.

ويتكون سجن جو المركزي من أربعة سجون، فالسجن

رقم ١ تم تخصيصه للمحكومين، وقد تم تقسيمه عبر الحاجز الخشبي إلى قسمين، فالقسم الأول خاص بالأحكام الطويلة، والقسم الثاني للأحكام المتوسطة، بينما تم تخصيص السجن رقم ٢ لأصحاب الجنايات كقضايا القتل والسرقات والمخدرات، والسجن رقم ٣ أعد لأصحاب القضايا الخطيرة، أما السجن رقم ٤ فقد تم بناؤه حديثًا بضغط من منظمة الصليب الأحمر الدولي، وتم بناؤه طبقًا للمواصفات التي اشترطتها المنظمة من تكييف مركزي وساحة مخصصة للتشميس واللعب ومنشرة للملابس تحت أشعة الشمس.

قام ببناء هذا السجن أحد أثرياء الطائفة وممن يشار إليهم بالبنان، فلم يجد أفضل من عمل يتقرب به إلى الله سوى بناء السجون، وكلما ضاقت بنا الدنيا وكلما اشتد الخناق والتضييق علينا ترحمنا على ذلك الرجل وسألنا الله له المغفرة والرضوان وأن يسكنه الله فسيح جنانه عوض ما نحن فيه..

تبلغ الطاقة الاستيعابية للسجن رقم ٤ ما يقرب من ٣٠٠ معتقل، ويحتوي على ٦ عنابر، ويضم كل عنبر ١٨ زنزانة، عدا العنبر رقم ٤ فقد أعد للعقوبات، فهو أصغر مساحة، وتطل ساحة الملعب التابعة له على البحر..

تم تخصيص هذا السجن للموقوفين الذين لم تصدر بحقهم أحكام قضائية، ونظرًا لتزايد أعداد السجناء وضيق الطاقة الاستيعابية لبقية السجون تم تخصيص العنبر رقم ٦ للمحكومين أصحاب الأحكام البسيطة التي لا تتجاوز ست سنوات.

مع الساعة الثانية ظهرًا وصلنا إلى سجن جو مرورًا بقريتي جو وعسكر، حيث تلك القلعة الحصينة التي تحوطها الأبراج الأربعة في زواياها الشامخة.

أوصلتنا السيارة إلى السجن رقم٤ وطلبوا منا ترك أمتعتنا في قاعة السجن والتوجه للعنبر رقم ٤ ..

رافقنا الضابط المناوب إلى العنبر٤، وهو الجناح المخصص لضيافتنا فترة إقامتنا بهذه المحطة!!

وبحق فإن الجناح أكثر من فاخر، حيث التكييف المركزي والتصميم الرائع الذي يليق بنا كمواطنين نستحق التقدير والإكرام..

وفي أثناء اجتيازنا إلى الزنزانة رقم ٨ -وهي الغرفة التي حجزتْ لنا- لاحظت الأستاذ حسن المشيمع يلوح لي بيده من داخل الزنزانة رقم ٢ عبر زجاجة مربعة صغيرة بحجم أصابع اليد الأربع..

يا لها من مفاجأة، فالأستاذ المشيمع سبقنا بالتكريم وحسن الضيافة..

أودعونا في الزنزانة رقم ٨، وقد كان الوضع غريبًا بالنسبة لنا، فالسجن يحيطه الهدوء ولا يوجد أحد غيرنا في السجن..

والزنزانة يوجد بها خزانة ملابس خشبية تسع لشخصين فقط، كما يوجد بها سرير حديدي بطبقتين، كما لا أنسى أن الزنزانة تحتوي على حمام بنصف باب!!

نعم؛ لأن الربع الفوقي من الباب مكشوف، ويستطيع من ينام في الطبقة العليا من السرير ببساطة أن يكشف من بداخل الحمام، وخصوصًا أن السرير ملاصق لجدار الحمام..

وبكلمة موجزة ، إذا أراد صاحبي دخول الحمام فإني أقوم بالنزول من السرير، وأحيانًا يوقظني من النوم حتى يتسنى له دخول الحمام.

والشيء المضحك أن مقبض باب الحمام تعطل عندنا في الزنزانة منذ الشهر الأول ، ولسوء حظ صاحبي فإن مزلاج الباب قد تعطل عن الحركة بشكل نهائي وهو بداخل الحمام، استنفدنا جميع الطرق والوسائل لفتح الباب، والوضع كان يتعقد أكثر فأكثر؛ حيث

إنه في محاولة لعلاج المشكلة انخلع مقبض الباب ووقع في يدي، قمت بالطرق على باب الزنزانة الحديدي وهو أشبه بباب ثلاجة اللحوم!!

ولكن الحارس –ولبعد المسافة- كان لا يسمع، وربما كان لا يريد أن يسمع.

واصلت الطرق بمقبض باب الحمام المنخلع، جاء الحارس صاحب الكتلة اللحمية الضخمة مهرولاً حتى لا يصل صوت الطرق لمسئول النوبة..

طخيتوا الباب ؟! قالت الكتلة اللحمية الضخمة..

فقلت: نعم، طخيت الباب!

وبلهجته الشامية رد قائلاً: شو فيه؟!

قلت له –وأنا ألوح بمقبض الباب المنخلع-: صاحبي بداخل الحمام، وقد انقفل عليه الباب ولا يستطيع الخروج من الحمام..

فقال ببرودة: شو بيطلع بيدي؟!

لـم أتمالك نفسي وانفجرت بالضحك على تلك البلاهة من

جهة وعلى صاحبي المحبوس من جهة أخرى!!

قلت له: تصرف يا أخي، هذه مسؤوليتك كسجان..

الصباح رباح ، قالها وهو يغلق الباب ثم انصرف..

وبعد طول انتظار ، قرر صاحبي القفز من خلال القسم المفتوح من الباب من الجهة العليا ، ولأن السرير مجاور للحمام استطاع الوقوف على مقبض الباب والاستعانة بالسرير للخروج من المأزق، وبنفس الطريقة نقوم بالدخول للحمام!!

***

في نهاية العنبر توجد قاعة كبيرة مغلقة بباب خشبي تحتوي على ثمانية حمامات استحمام ..

وبنظر السجناء فإن هذه القاعة أنسب مكان لإقامة الفعاليات الدينية والمهرجانات الخطابية؛ حيث المساحة الكبيرة التي تتمتع بها هذه القاعة قياسًا للزنزانات الضيقة، وبإمكان القاعة احتواء جميع السجناء في وقت واحد.

وما يهمني في الموضوع -وهو مما يضحك- في حمامات الاستحمام أبوابها!!

إذا صح أن نطلق عليها أبواب ! فهي قصيرة لدرجة مضحكة، وهي أشبه بأبواب حظائر الخيول، وارتفاعها لا يتجاوز خمسة أشبار لا شريك لها، وهي مثبتة في منتصف مدخل الحمام، بمعنى أنها مرتفعة عن أرضية الحمام بمقدار ثلاثة أشبار تقريبًا، وهذا يعني أنّ باستطاعتك رؤية ساقَيْ من بداخل الحمام لمقدار الركبتين تقريبًا ! لذلك لا يستطيع من بداخل الحمام وضع الصابون أو علبة الشامبو على الأرض، والويل لمن وقع منه الصابون أو علبة الشامبو !!

والحال لا يقل سخرية بالنسبة للأعلى ؛ فباب الحمام لا يستر الوجه، وباستطاعة من بقاعة الحمامات كشف من بداخل الحمام !

وبعبارة أخرى: إن باب الحمام يستر مقدار وسط الجسم فقط، وأما بقية الجسم فهو حلال مباح..

ولا أعتقد بأني سأرى أروع من هذا التصميم الرائع المصنوع على النمط الغربي الكلاسيكي !

لذلك فإني أعتقد بأن المقاول صاحب التصميم سينعم بقبره لأنه أدخل السرور على نفوسنا ! ولأنه ساهم في أعظم ابتكار بشري، إنه السجن النموذجي الرائع بتصميماته الرائعة!! لذلك فـهو

يستحق كل تقدير!

والأمر المضحك الآخر في حمامات الاستحمام طريقة تدفق الماء من المرذاذ -رشاش الماء-، حيث بعده الفاحش عن الرأس..

ونتيجة لقوة الماء المندفع من المرذاذ فإنه يصب في خارج حمام الاستحمام لدرجة أن من بالخارج تبتل ملابسه أكثر ممن بالداخل!!

قمنا بتوجيه المرذاذ المتحرك في جميع الاتجاهات ، ولأن الجدار الجانبي مشترك مع الحمام الآخر، ولأنه قصير، فإن الماء يتوجه للحمام الآخر..

عمدنا لفتح وعاء المرذاذ منعًا لتدفق الماء في الاتجاهات الأخرى؛ وليكون انسياب الماء بشكل عمودي ومباشر على الرأس، فكانت المصيبة - لقوة تدفق الماء- أن الماء ينزل على رؤوسنا بشكل مؤلم نتيجة بعده الفاحش..

وبعد إنهاء الاستحمام نكون بحاجة لتدليك الرأس من وجع الماء!!

وأخيرًا عمدنا لتركيب قطعة من خرطوم الماء لتقريب

مسافة الماء إلى الرأس، وقد نجحتْ هذه المحاولة في منع تدفق الماء على الآخرين بينما يبقى من بداخل الحمام بدون ماء!

وبقيتْ مشكلة انعدام الساتر المشكلة التي تؤرقنا وتمنعنا من استخدام الحمام، قمنا بالاستغناء عن شرشف- غطاء- السرير لنضعه كساتر على بوابة الحمام، وذلك بعد أن أجرينا له بعض اللمسات الفنية بخياطة حاشية الشر شف وعمل حبل محلي بواسطة الخيوط وربط الشرشف بواسطة الحبل المحلي في أعلى جدران الباب، وقديمًا قالوا: شر البلية ما يضحك !

عنبر العقوبات

سجن جو مرفأ وادع تداعبه نسمات البحر، وشمسه ليست عنيفة كما في سجن المنامة..

إلا أنه بمجرد وصولنا صدرت بحقنا قرارات صارمة حرمتنا الكثير من الحقوق المهمة التي اكتسبناها من ذي قبل، وكل ذلك بدعوى أن إدارة سجن المنامة تختلف عن إدارة سجن جو، وكل إدارة لها أساليبها الخاصة بها في التعامل..

وبذلك فقدنا جميع الصلاحيات التي حصلنا عليها في سجن المنامة ابتداءاً من فتح الأبواب وانتهاءاً بالتشميس والرياضة اليومية ، وبات علينا أن نرجع للمربع الأول في المطالبات، وعلينا مقابلة الضابط الإداري وإقناعه بأن فتح الأبواب لن يشكل أي خطورة أمنية على الدولة ! وأن السلام على بعضنا البعض كسجناء حق طبيعي، وهو واجب شرعي، ولا نستطيع التخلي عن الحكم الشرعي برد التحية وما أشبه ذلك من الكلام المكرر.

وبدوره يقوم الضابط الإداري متفضلاً بالنظر في مطالب السجناء، وبعد عدة إضرابات عن الطعام وعدة مصادمات مع حراس السجن يتكرم الضابط الإداري علينا بمنحنا صلاحية السلام على بعضنا البعض..

هذا هو روتين السجون، وهذا هو هدف التنقيلات بين السجون، كل ذلك لإرباك وضعية السجين وسلبه بعض الامتيازات السابقة؛ ومعاملته في السجن الجديد وكأنه معتقل لليوم الأول!

بعد مرور شهرين من الزمان على نقلنا إلى سجن جو ـ وفي ظل القرارات الصارمة ـ سمعنا ذات صباح صرير الزنزانة المجاورة وهي تفتح دون أن نعرف الحكاية، فالأبواب مغلقة والحديث مع الزنزانة الأخرى من كبائر المحرمات في أنظمة وقوانين السجن الجديد، وفي محاولة لمعرفة الخبر قمنا بالضرب على جدار الزنزانة لعدة مرات، ومع تكرار المحاولة سمعنا التجاوب بالضرب على الجدار كرد لتحيتنا التي بدأناها..

تأكدنا من وجود شخصية جديدة موجودة معنا بالعنبر، وبسبب الفاصل بيننا وبينهم كان الضرب يصلنا ضعيفًا، وبطريقتنا الخاصة قمنا بالحديث معهم من خلال فتحة التكييف المركزي، وقد عرفنا أن الضيفين هما الشيخ حسين الديهي والأستاذ عمران،

وبذلك بلغ مجموعنا في العنبر ستة أفراد، فالمشيمع وصاحبه والديهي وصاحبه وأنا وصاحبي، حاولنا الحديث مع بعضنا البعض في فترة الخروج للاستحمام وغسيل الملابس، ولكن السجان كان يضايقنا موعزاً ذلك إلى أوامر الإدارة..

أخبرناه بأننا مجموعة واحدة وفي عنبر واحد وبعضنا في زنزانة واحدة في سجن المنامة، ولكن لسان حال السجان يقول: أنا عبد مأمور والمأمور معذور!!

وفي خطوة جريئة قمنا بالتمرد على تعليمات الإدارة -والتي كانت بغير وجه حق- وتعمدنا السلام على بعضنا البعض بشكل علني ، فليس من المعقول بأننا نتجاهل بعضنا البعض ولا نلقي التحية على بعضنا أو نتجاهل رد التحية، وعندما يعترضنا السجان كنا نقول له: نحن في عنبر العقوبات وفي الانفرادي، ولا يوجد أسوأ مما نحن فيه، ونحن لم نرتكب ما هو خطأ، بإمكانك إرسال التقرير لإدارة السجن أو لأي جهة أخرى مسئولة لتخبرها بأننا خالفنا وسنبقى نخالف قوانين وأنظمة السجن طالما أنها تتعارض وحكم الشرع الإسلامي! فلسنا على استعداد بتجاهل بعضنا البعض وسنقوم برد التحية الإسلامية وعليك تنفيذ القرارات العليا الصادرة بمعاقبتنا على جريمة السلام ورد التحية الإسلامية، وقد

استطعنا إحراج إدارة السجن وسجانيها؛ لأن العنبر ٤ -وهو المكان الذي أودعونا فيه- هو عنبر مخصص للعقوبات، ولا يوجد عنبر آخر خاص بالعقوبات، فكيف سيتعاملون معنا؟!

بالإضافة لحراجة الموقف لنية التفكير بمعاقبتنا لمجرد السلام ورد التحية!!

وعلى ضوء ذلك قمنا بالتمادي في عصيان أوامر الإدارة التي كانت على غير وجه حق، وذلك في البقاء في ممر العنبر وعدم الدخول إلى الزنزانة، وخصوصًا أن عنابر السجن الستة قد امتلأت بالمساجين، وهم يمارسون مطلق حرياتهم في الدخول والخروج وبقية الصلاحيات، وأن العقوبة خاصة على العنبر ٤ فقط.

قمنا بالضغط على السجانين بإحراجهم وعدم الامتثال لأوامرهم، وصار الحديث معهم بلغة أشبه بالتحدي، وأننا سنواصل الحديث مع بعضنا البعض، وعليكم إما منحنا حقوق أبسط السجناء وإما تفريقنا ومعاقبتنا؛ لأننا لن نصبر أن نرى بعضنا البعض ولا نتحدث!

وعند اشتداد الأزمة قام مسئول النوبة بإبلاغنا بقرار إدارة السجن بأنها تعليمات المخابرات والإدارة عاجزة عن تخطي هذه التعليمات، ومما زاد الطين بلة بأن السجان حاول أن يدفعني بالقوة

فاحتد معه الأستاذ المشيمع وطلب منه مقابلة الضابط الإداري، وقد حاولتْ الإدارة تهدئة الموقف وقد وعدتْ بمحاولة جادة لحلحلته، وفي اليوم الثاني جاء القرار من إدارة المخابرات الموقرة بالسماح للأستاذ المشيمع وصاحبه بزيارة زنزانة الديهي وصاحبه على أن تقفل عليهما الزنزانة وهم بداخلها!

ويبقى الحال كما هو عليه بالنسبة لي مع صاحبي! وكانت الحادثة المضحكة أن المشيمع في اليوم الثاني طلب زيارة الديهي في زنزانته فاستجاب السجان لذلك بناءاً على القرار الجديد، فقام بإدخال المشيمع وصاحبه إلى زنزانة الديهي وقد أقفلها عليهم، في هذه الأثناء تم تغيير نوبة حراس السجن وقد نسي السجان الأول إخبار السجان الآخر بوجود المشيمع في زنزانة الديهي..

المضحك أنه عندما أراد المشيمع الخروج من زنزانة الديهي والعودة إلى زنزانته رفض السجان إخراجه، حاول المشيمع إفهام السجان بأن مكانه في الزنزانة الأخرى وليس هنا، لم يقتنع السجان..

قال له: انظر إلى الزنزانة الأخرى، هناك أمتعتي وحاجياتي وهي فارغة وأنا هنا!

لم يقتنع السجان، فقال المشيمع: انظر، الزنزانة لا تحتمل

أكثر من شخصين ونحن الآن أربعة، فأين سننام؟!

ما في أمر، رد السجان الباكستاني الجنسية !!

حاول القوم إفهامه بشتى الأساليب والطرق ولكنه قد تعود أن يسمع الأوامر من الضابط الإداري وحسب!!

هذا هو وضعنا مع السجانين وهذا هو حالنا مع حراس البلد! هؤلاء الذين سيحمون البلد، هنيئًا لنا وهنيئا لحكومتنا، أعز الله الجميع!

الإضراب عن الطعام

لا زلنا مع مشكلة تقييد الحريات الشخصية ونظام العقوبة اللامعقول، والذي يحظر علينا السلام على بعضنا البعض في عنبر واحد..

وذات صباح استيقظنا على أصوات وصراخ العنابر المجاورة مع السجانين، وبعد كشف الخبر تبين لنا أن السجناء في جميع العنابر قاموا بإرسال عريضة مدعومة بتواقيع السجناء مرفوعة لمدير السجون يطالبون فيها بتحسين أوضاع السجن وفتح الأبواب والسماح لهم بممارسة الرياضة والخروج للتشميس وتخصيص أماكن مخصصة لنشر الغسيل، وقد قابلت إدارة السجن العريضة بالتهميش..

وبعد تمام الأسبوع على رفع العريضة اتفق الجميع على خطوة الإضراب عن الطعام والشراب، وفي ذلك الصباح بالتحديد رفضت جميع العنابر إدخال وجبة الإفطار إلى داخل العنابر كعلامة

بارزة على رفض الطعام، وأصرت على إبقاء الوجبة خلف بوابة العنبر من الخارج..

وفي وقت الضحى تم استدعاء من يمثل العنابر من كبار القوم وعلى رأسهم المهندس عبد الحسين المتغوي –عضو مجلس النواب لانتخابات ٢٠٠٦ - ، وقد التقوا بالضابط الإداري، وقد وجه إليهم تهمة تحريض السجناء على الإخلال بالأمن، كما حملهّم مسؤولية الاستمرار في الإضراب عن الطعام وما ينتج عن ذلك من مشاكل صحية، وبلهجة شديدة طلب منهم إنهاء حالة التمرد والإضراب عن الطعام.

ولكن ممثلي العنابر تجاهلوا الأمر وطالبوا بالنظر في مطالب العريضة وقالوا بأنها مطالب لن تشكل أي خطورة على أمن البلد على حد تعبيرهم، ولكن الضابط الإداري بدوره أصرّ على عدم التفاوض مع متمردين على أوامر الإدارة ومع مضربين عن الطعام، وعلى السجناء فكّ الإضراب عن الطعام أولاً وفيما بعد تنظر الإدارة في مطالبهم، حتى لا تكون الإدارة في موقف ضعف وابتزاز بحسب ما عبر عنه الضابط الإداري..

لم يقتنع السجناء بمبررات إدارة السجن وأصرّوا على مواصلة الإضراب عن الطعام والشراب أيضًا..

وفي فجر اليوم الثالث ومع تتالي سقوط السجناء من شدة الإعياء والإجهاد نتيجة الإضراب المتواصل، ولأن المرضى هم أول من سقط، وبسبب ارتفاع حالة السخط والاحتجاجات على تجاهل إدارة السجن لوضع المرضى، وبسبب حالة التمرد التي سادت السجن، فكلما وقع سجين أو أغمي عليه قام السجناء بالضرب المتواصل على أبواب الزنازين فيحدث بذلك ضجة كبيرة، وربما تسري العدوى لبقية العنابر فيتجاوبون مع إخوانهم وأصدقائهم بالضرب الشديد والمتواصل على الأبواب مما يحدث حالة هستيرية لدى السجناء..

بسبب ذلك كله قامت إدارة السجن بتدارك الموقف بإعطاء السجناء الضمانات الأكيدة بتنفيذ مطالب العريضة، وعلى السجناء إنهاء حالة التمرد لتتمكن الإدارة من استصدار القوانين الجديدة..

وبالفعل التزمت إدارة السجن بوعودها لئلا تصطدم مع ٣٠٠ سجين مضرب عن الطعام في وقت واحد!

وفي ظهيرة ذلك اليوم صدرت القرارات الجديدة بفتح أبواب الزنازين والسماح بالخروج للرياضة والتشميس وتخصيص أماكن مخصصة لنشر الغسيل وغيرها من بقية الصلاحيات، وقد

استثنى هذا القرار العنبر ٢، فلم يشملنا القرار وبقي الحظر ساريًا علينا، وكالعادة: إنه قرار صادر من جهاز المخابرات.

المساس بالخطّ الأحمر

إنها ليلة الرابع من المحرم الحرام لعام ١٩٩٩ م، ولا أنسى أنها التاسعة مساءً، بينما كنت مفترشًا بساط الحديث مع صاحبي الشيخ حسين الديهي حول الوضع الجديد الذي فرضته علينا إدارة السجن -وذلك بعد أن نقلتْ الأستاذ حسن المشيمع مع صاحبي القديم إلى مكان مجهول على خلفية المطالبة بمساواتنا مع بقية السجناء في الحقوق، ورفع حالة العزلة والأحكام العرفية بحقنا- في هذا الوقت بالتحديد سمعنا أصواتًا مرتفعة يصاحبها الضرب على أبواب زنازين السجن بكل قوة بشكل متلاحق وجماعي، مما ينبئ بحادثة خطيرة..

ساد السجن رقم٤ الهدوء لفترة لمعرفة تفاصيل الحادثة، وقد أفادنا الإخوة بأن الصوت مصدره السجن رقم١، وهو السجن المخصص للمحكومين.

شعرنا بأن المحكومين قاموا بانتفاضة حقيقية، فأصوات

اصطفاق الأبواب الحديدية بالجدران واصطكاك الحديد بالحديد يصم الآذان، وقد تزامنت مع هذه الأصوات صرخات وهتافات مدوية تنادي: يا حسين، يا حسين!!

تبادلت مع صاحبي النظرات، وسألته ما الذي يمكن أن يكون قد وقع؟!

وراحت الشكوك والظنون تتقاذفنا يمينا وشمالا، أهي حالة وفاة جديدة بالسجن؟! أهو اعتداء على أحد السجناء؟! أهي أخبار سيئة عن الشيخ الجمري؟!

استمر هذا الوضع من أصوات التكسير واصطفاق الأبواب بالجدران لمدة تزيد على العشرين دقيقة..

في هذه الأثناء سمعنا أصوات الطلق، ويبدو أنه منطلق من قوات مكافحة الشعب، وبصورة سريعة تسربتْ إلينا روائح قنابل الغازات المسيلة للدموع، ومع استمرار تسرب الروائح الخانقة ارتفع الصراخ من بقية العنابر في السجن رقم ٤ مطالبين بإيقاف الطلق العشوائي لئلا يموت إخوتنا في السجن رقم ١ اختناقًا..

تتابعتْ الصيحات المطالبة بإخراج السجناء وكف أيدي قوات مكافحة الشغب عن الطلق، ولكن يبدو أن السجن رقم ٤ من

دون سجان، فجميع العساكر ورجال الأمن هرولت ناحية السجن رقم ١ للمشاركة في قمع تلك الانتفاضة..

وعندما يئس سجناء السجن رقم٤ من التجاوب قاموا بمساندة السجن رقم ١، وذلك بالضرب على أبواب الزنازين بما يملكون من الكؤوس والصحون الحديدية بشكل متواصل..

واشتد الضرب على الأبواب حتى شعرنا باهتزاز الجدران، وبسبب غياب الحراسة واضطراب الوضع قام بعض السجناء بالتحدث مع السجن رقم١ لمعرفة الحادثة.

أفادت الأنباء الواردة من السجن رقم ١ أن سبب انتفاضة السجناء قيام أحد ضباط الإدارة بالإساءة للمذهب وتعمد سب أئمة أهل البيت بشكل استفزازي.

وقد طلب من أحد المعتقلين ـ عندما كان موجودًا في مبنى الإدارةـ بأن يقوم بسب أئمة أهل البيت، ولكن المعتقل رفض ذلك، فحاول الضابط أن ينال من المعتقل بالاعتداء عليه متعمدًا بإسقاطه أرضًا، ولكنه لم يتمكن من ذلك لقوة بنية المعتقل؛ ولأنه يجيد التكواندو والكونفو، وكان الضابط يبدو أمام المعتقل بأنه قزم صغير لنحافته، أشار الضابط على الجلاوزة بتكبيل يدي المعتقل

بالقيد الحديدي من خلف ظهره، الأمر الذي مكنهم من طرحه أرضًا، فقام الضابط بشكل استفزازي بركله على أنحاء متفرقة من جسمه ثم وضع رجله على رأس المعتقل محاولاً سحق وجه المعتقل بالحذاء العسكري بغية إذلاله بهدف الاستجابة لسب أئمة أهل البيت، إلا أن جميع محاولاته باءت بالفشل، أودع المعتقل في الحجز الانفرادي بدون أن يعرف أصحابه ملابسات الموضوع، وبعد انتهاء فترة عقوبة الحجز الانفرادي عاد لزملائه ليروي لهم تلك الحادثة..

اجتمع السجناء واتفقوا على اتخاذ موقف يتناسب والحادثة مع الضابط الناصبي ، فكانت كلمتهم على عدم التجاوب مع ذلك الضابط الناصبي الحاقد وعدم استقباله في العنبر، على أن يتم تشكيل وفد لمقابلة الضابط الإداري لإبلاغه بشكوى رسمية ضد الضابط الناصبي الحاقد لإساءته المتعمدة للمذهب وأئمة المذهب بشكل يثير حفيظة السجناء، وقد تم ترشيح الشيخ جاسم الخياط على رأس الوفد..

وبعد محاولات عديدة استجاب الضابط الإداري لمقابلة الوفد.

في مكتب الضابط الإداري ابتدر الشيخ الخياط الضابط

الإداري بالسؤال قائلاً: ما حكم من سب الخليفة الأول؟

فأجاب الضابط بلا تردد: كافر..

فسأله ثانية الشيخ الخياط: وما حكم من سب الخليفة الثاني؟

فأجاب الضـــابط وهو يحدق في وجـــه الوفد : أيضًا كافر.

فعاوده الشيخ الخياط: وما حكم من سب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؟

فأجاب الضابط الإداري بنبرة لا تخلو من الاستغراب: كافر بإجماع المسلمين!

فقال الشيخ الخياط: إن الضابط الفلاني -وبحضور مسئول النوبة- قام بسب أئمة أهل البيت، وفي عقيدتنا بأن من يسب النبي ﷺ أو أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام فحكمه القتل ودمه هدر مباح، وباستطاعتك التأكد من هذا الحكم بسؤالك لأصغر معتقل سياسي في جميع سجون البحرين حتى لا تتهمني بالتحريض!! وأن هذا من أوليات ثقافتنا الفقهية، وبدون حاجة لتعليم أو تحريض.

تفاجأ الضابط الإداري بهذه الشكوى واعتدل في جلسته ووعد بإحضار مسئول النوبة للاستماع لشهادته على الحادثة، وبعد أيام قلائل قام مدير السجن باستدعاء الشيخ جاسم الخياط والوفد المرافق، وفي إدارة سـجن المنامة قام الضـابط الإداري بمقابلة الوفد نيابة عـن مدير السجن، وبدوره قام الشيخ الخياط بإبلاغ رسالة السجناء مطالبًا باتخاذ الإجراءات اللازمة لمعاقبة الضـابط الناصـبي الحاقد، فقال الضـابط الإداري: لستم من يحدّد نوعية الإجراء، أنتم هنا فقط لنستمع منكُم.

فقال الشيخ الخياط: إن السجن يحوي عدة أمزجة، فمنها البارد، ومنها العصبي، ومنها المزاجي، كما أن السجن يحوي عدة مستويات متفاوتة، فمنهم الجامعي والأكاديمي، ومنهم المثقف والمتعلم، ومنهم الأمي غير المتعلم، كما أنه يضم عدة أحكام، فهناك الأحكام القاسية كالمحكومين بالإعدام وينتظرون تحديد مصيرهم، وهناك المؤبد والأحكام الطويلة التي تزيد على ١٥ سنة، وهناك الأحكام المتوسطة والقصيرة، وأحد لا يستطيع ضبط جميع هذه النفوس فيما إذا حاول ذلك الضابط الدخول للسجن؛ لأننا سنعتبره استفزازا للمشاعر وتحدٍّ لمشاعرنا الدينية، فمن يضمن سلامة الضابط في السجن؟

لذلك فإن الجميع يعرف بأن الضابط الفلاني مهدور الدم..

حاول الضابط التخفيف من وطأة الموضوع واصفًا إياه بأنها مبالغات ولا توجد أي نية بهذا الاتجاه.

ثورة السجناء

شهر بأكمله مضى على حادثة الالتقاء بالضابط الإداري للتقدم بشكوى رسمية ضد الضابط الناصبي دون أن يسفر ذلك عن أية إجراءات تذكر، وقد اعتاد السجناء على تناول وجباتهم اليومية بشكل جماعي، وبينما كان أحد السجناء خارجًا من زنزانته قاصدًا إحدى الزنزانات المجاورة لمح الضابط الناصبي داخلاً إلى العنبر، توجه ذلك المعتقل وبشكل سريع إلى بقية الزنزانات ليخبر السجناء بقدوم ذلك الضابط..

خرج جميع السجناء من زنزاناتهم وقد تجمهروا حول الضابط وهم يهتفون بصوت واحد : برّه، برّه، برّه، وأصابعهم تشير إلى وجهه كتعبير عن التهديد..

تفاجأ الضابط بالموقف وصار يتراجع للوراء والسجناء يلاحقونه بهتافاتهم حتى أوصلوه إلى خارج السجن..

وبعد ساعة كاملة، جاء مسئول النوبة مع مجموعة من العساكر المحيطين به وهم يحملون الهراوات وخراطيم المياه السود وأدوات القمع الأخرى، وقد وقف مسئول النوبة قبالة الشيخ جاسم الخياط وطلب منه مرافقته لمبنى الإدارة بناء على طلب الضابط المطرود..

رفض الشيخ الخياط مقابلة الضابط المطرود معللاً ذلك بأن ذلك الضابط لا يمتلك مقومات الحوار والتفاهم، فأصرّ مسئول النوبة على تنفيذ القرار وهدّد باستخدام القوة والعنف..

بعد مداولات ومناورات دارتْ بين مسئول النوبة والشيخ الخياط أشار كبار العقلاء على الشيخ جاسم بالاستجابة لمسئول النوبة، فاقتنع بمشورة القوم واستجاب لجلاديه وذهب مع مسئول النوبة.

عند بوابة العنبر توقف لبرهة من الوقت ، وفيما يبدو أنها الإجراءات الروتينية لتكبيل اليدين بالقيد الحديدي ، وقد توهم البعض بأن مسئول النوبة قام بالاعتداء على الشيخ الخياط، فقام بإبلاغ بقية السجناء بأن الشيخ جاسم الخياط قد اعتدي عليه..

وبمجرد خروج الشيخ جاسم الخياط من العنبر انقلب السجن رأسًا على عقب، فلا تسمع إلا اصطفاق الأبواب بالجدران،

ولا تسمع إلا اصطكاك الحديد بالحديد، والخزانات الخشبية قد تناثرت، وحالة هستيرية يصعب السيطرة عليها قد سادت أجواء السجن، وبما أن ساحة السجن مكشوفة على السماء فقد انتشرتْ قوات مكافحة الشغب على الساحة المطلة على السجن وراحوا يرمون السجناء من على سطح السجن بالحجارة والعصي والقاذورات، وبدورهم قام السجناء برد الاعتداء برمي العساكر وقوات الشغب بالكؤوس والصحون الحديدية وكل ما وقع بأيديهم، فالحجارة من الأعلى والصحون والكؤوس الحديدية من الأسفل..

وعلى الجانب الآخر فقد اقتيد الشيخ جاسم الخياط لمبنى الإدارة وهو معصوب العينين مكبل اليدين، وقد استطاع أن يلمح بعض المظاهر، كانتشار قوات مكافحة الشغب على امتداد ساحة السجن بأعداد كبيرة، وهم مزودون بكامل ذخائرهم واستعدادهم، كما أنه لمح العساكر قد خرجتْ بلباسها المدني وهي تهرول ناحية السجن رقم ١ وهم بحالة مضحكة، فالبعض بالإزار وآخرون حفاة، والبعض يحمل بيديه الآلات الحديدية والبعض يحمل الخشب والألواح، والبعض الآخر يحمل المطارق !!

وكلّ جلاد حمل بيديه ما وقع نظره عليه، مما يشعر بأن

انقلابًا عسكريًا قد وقع.. بمجرد وصول الشيخ جاسم الخياط لبوابة الإدارة استقبله رجال قوات الشغب بالضرب على أنحاء متفرقة من جسمه بالهراوات وخراطيم المياه السود ولم يتركوه إلا بعد النزيف الدموي الذي خرج من أذنيه..

في هذه الأثناء توجهتْ بقية أفراد القوة إلى أعلى سطح السجن وقاموا بإطلاق القنابل الغازية المسيلة للدموع على السجناء، وقد وصلتنا هذه الغازات الخانقة إلى مبنى السجن رقم٤، وقد تضامن السجن رقم ٤ مع السجن رقم ١ لتخفيف الضغط عنهم، ولكن القوات لم تعبأ بالسجن رقم ٤!!

استمر الضرب على السجن رقم١ بشكل متواصل..

في هذا الوقت بالتحديد وصل مدير السجن مع مجموعة من الضباط وراح الضابط الإداري يهتف بالسجناء: جئنا للتفاهم معكم، توقفوا عن التمرد والتكسير.

عمليّة الهرب

أدرك مدير السجن مع ضباط الإدارة خطورة الموقف، كما أدركوا أن الضابط المطرود بفضل سياسته العدائية لأهل البيت قد أشعل لهيب المشاعر، والوضع لا يحتمل بقاءه لأكثر من ذلك، فالمساس بالعقيدة خط أحمر لا يمكن الاقتراب منه فضلاً عن تجاوزه؛ لأن الدماء حينئذ ستكون رخيصة فيما لو حاول أمثال ذلك الضابط المطرود تخطي الخطوط الحمر..

ومن جانبه فقد نفى مدير السجن علمه بالاعتداء على الشيخ جاسم الخياط بالضرب المبرح، وقد استبعد الشيخ جاسم تصرف قوات مكافحة الشغب بمثل ذلك التصرف دون أوامر عسكرية؛ وذلك لسبب بسيط، وهو أن قانون الجندية والعسكرية يفرض عدم التحرك خطوة واحدة للأمام بدون أوامر عليا فضلاً عن مثل ذلك التصرف، وقد استثمر الشيخ الخياط تظاهر مدير السجن بعدم معرفته وعلمه بضربه بطلب محاسبة من قام بالاعتداء

وخصوصًا لعدم علاقته بما جرى في السجن، فالحادثة وقعت وهو في طريقه لمبنى الإدارة..

مدير السجن كان حريصًا على تهدئة الوضع بأي شكل من الأشكال وذلك بإرجاع الشيخ جاسم إلى العنبر سريعًا، كما أنه طلب من قوات الأمن المبادرة بنقله إلى المستشفى بشكل سريع لتطبيب الندوب والجروح التي أحدثتها سياط القوم، وتدارك وضع نزيف الأذن.

في عرف إدارة السجن لا يمكن أن تمر هذه الحادثة دون عقاب، ولكن الوضع لا يحتمل أية عقوبات على السجن، فالضابط المطرود هو من قام باستفزاز مشاعر السجناء عندما تحدى إرادتهم بدخوله للعنبر مع علمه المسبق بعدم رغبة السجناء بمقابلته أو التعامل معه، وذلك من خلال تحذيرات الوفد لإدارة السجن، إلا أن إدارة السجن لم تأخذ تحذيرات الوفد على محمل الجد، ولم تقم باتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة باستثناء شيء واحد فقط، وهو طلب التعزيزات العسكرية بشكل مسبق للاحتياط..

وقد نجحتْ في هذا الإجراء، فبمجرد وصول الشيخ جاسم لمبنى الإدارة فقد استقبلوه بالحفاوة والتكريم المنقطع النظير..

بعد انصرام أسبوع كامل على الحادثة قامت إدارة السجن بنقل مجموعة الوفد مع شخصيات أخرى إلى زنزانات العقوبة بسجن المنامة، وقد استمر بهم الوضع لعدة أشهر، وقد استنكر الشيخ جاسم الخياط ذلك الوضع متسائلا: ولماذا يطبق عليَّ نظام العقوبة؟! فأجابه الضابط الإداري بأنها ليست عقوبة، وأن من حق إدارة السجن تغيير مكان السجين متى ما شاءت..

لم يقتنع الشيخ جاسم بالجواب؛ وذلك لأن معاملة المحكوم تختلف عن معاملة سجناء زنزانات العقوبة، فراح يطالب الضابط بحقوقه كمحكوم..

فأين اشتراطات منظمة الصليب الأحمر في توفير البيئة الصالحة وغيرها من الشروط الأخرى؟

إلا أن الضابط يصر على القول بعدم العقوبة !

وعندما يئس الشيخ جاسم مع الأربعة الذين يرافقونه في الزنزانة من إصلاح الوضع خططوا لعملية الهرب من السجن، وقد نجحوا بنسبة ٩٥٪ من المحاولة، فقد قاموا وعلى عدة مراحل بالتسلق إلى نوافذ الزنزانة ومحاولة قطع القضبان الحديدية، وبالفعل نجحوا في قطع جميع القضبان الحديدية بواسطة آلة حادة كانوا يمتلكونها، وقد أبقوا القضبان على هيئتها حتى لا ينكشف الأمر،

وقد قاموا بدراسة الأجواء لفترة زمنية لاختبار الوقت المناسب للهرب..

وعند ساعة الصفر تسلق أحدهم للنافذة محاولاً إزاحة الحديد للبدء في القفز والهرب، إلا أن سوء حظه العاثر جعل أحد الحراس يلمحه وهو يزيح جميع الحديد، فبدأ الحارس بالتصفير من خلال صفارة الشرطة..

اجتمعت العساكر وقامت بتطويق الزنزانة وتكبيل الخياط ومن معه..

لم تتخذ إدارة السجن أية عقوبات إضافية سوى تكبيل البعض بسلاسل حديدية تمتد من الرقبة حتى الرجلين تماما كما هو الحال بمحكومي الإعدام حتى تعيق تلك السلاسل من حركتهم وتعيق هربهم حتى من أنفسهم...

الإحصاء

شبك حديدي سميك هو ما يفصل بين السجن رقم ٣ والبحر، وتعد محاولة الهرب من سجن جو المركزي أشبه بالمستحيل للحراسة المشددة حول السجن، كما أن السجن يقع في منطقة معزولة ونائية، ولكن الحكم المؤبد هو ما دفع - عبد الله الطوق- للتفكير بمجازفة الهرب!

أيام وأسابيع وهو يخطط لهذه العملية للهروب من جحيم السجن والسجان..

وقد جرت العادة على خروج السجناء بشكل يومي إلى الساحة المطلة على البحر بشكل مباشر للتشميس والرياضة لمدة ساعة كاملة..

وفي اليوم المحدد -وبعد انتهاء فترة التشميس- لم يعد الطوق مع بقية السجناء إلى العنبر، بل اختبأ في مخزن الأدوات

الرياضية في وسط البطانيات القديمة..

ومع حلول المساء ـ وبعد الاطمئنان بإغلاق الساحة الرياضية ـ خرج الطوق من المخزن مستعينًا بآلة قطع الحديد محاولاً إيجاد ثغرة في الشبك الحديدي ليتمكن من الخروج عبرها، وقد تمكن من ذلك واستطاع الخروج من تلك الثغرة، وقد أعانته ظلمة الليل على الاختباء، ويبدو أنه لم يتعطل كثيرًا؛ لأن الخطة قد رسمتْ من ذي قبل، فقد استضافه أحد المؤمنين السادة من قرى شارع البديع وهو الذي سهل له عملية الهرب عن طريق البحر إلى لبنان.

وأما الوضع في السجن رقم ٣ فقد كاد السجان أن يفقد صوابه لنقصان عدد السجناء، وفي كل مرة يعيد عملية العد والإحصاء يجده ناقصًا..

فاستعان بسجان آخر للتأكد من عملية العد والإحصاء ولكن النتيجة واحدة..

اضطر المسئول لإبلاغ إدارة السجن بهروب أحد السجناء، فقامت إدارة السجن بتحويل مسئول النوبة عن السجن رقم ٣ إلى المحكمة العسكرية التي قضت بحبسه ستة شهور.

بعد تكرار محاولات الهرب من السجن واختراق جميع التحصينات الأمنية شددتْ إدارة السجن على عملية عد وإحصاء عدد السجناء لأكثر من مرة في اليوم الواحد، وتختلف طريقة العدّ والإحصاء باختلاف مسئولي النوبات، فالبعض ينتابه الوسواس، فتراه يقوم بالعد والإحصاء لأكثر من مرة، وأحيانًا لا يثق بإحصاء وعد نائبه المساعد، فتراه يرسل النائب المساعد وبعد فترة من الزمن يقوم بإعادة العد والحساب، والبعض الآخر يكاد يفقد صوابه عندما يخطئ في العد والإحصاء، ويقوم بتكرار العد والإحصاء ولا يزال العدد ناقصًا مما يضطره للاستعانة بمسئول النوبة للتأكد من الموضوع، لتكون النتيجة في نهاية المطاف أن نائب المسئول لا يجيد عملية الجمع الحسابية!!

وكثيرًا ما نراه وهو يمسك بالقلم والورق -وهو يتفقد الزنازين- لتسجيل عدد السجناء، وفي نهاية المطاف يخطئ في عملية الجمع، فيضطر لإعادة العد والإحصاء للتأكد من عدد السجناء، وأكثر ما يضايق السجناء المسئول الوسواسي ، وبالأخص فترة الصباح الباكر مع تغيير النوبات، فالبعض منهم لا يكتفي برؤية السجين النائم من خلال نافذة الباب الزجاجية المعدة لهذا الغرض، وإنما يقوم بفتح الباب محدثًا إزعاجًا كبيرًا؛ وذلك للتأكد من وجه السجين النائم..

ويعمد بعض السجناء لعمل بعض المقالب الفكاهية مع بعض مسئولي النوبات ، فقد يتعمد البعض دخول حمام الإستحمام في وقت العد والإحصاء، وفي نهاية العد والإحصاء -الذي يستغرق نصف الساعة- يكتشف مسئول النوبة بأن العدد ناقص، ويجن جنونه ليقوم بتكرار عملية العد ليتفاجأ في الأثناء أن ذلك السجين قد أقبل من نهاية العنبر وهو يحمل منشفته !

وفي أحيان أُخر يستعين المسئول بأحد السجناء لإعانته في عملية العد والإحصاء ليصحح له عملية الجمع الحسابية..

وفي مقلب آخر يقوم أحدهم بالمبيت في الزنزانة المجاورة علمًا بأن الزنزانة لا تحتمل أكثر من أربعة سجناء، وفي الصباح الباكر مع عملية العد والإحصاء لا يلتفت المسئول للشخص الزائد في تلك الزنزانة ولكنه يلتفت للشخص الناقص في الزنزانة الأخرى، فيقوم بإيقاظ النائمين وتقليب محتويات الزنزانة بحثًا عن الشخص الرابع، وربما اضطر لفتحِ الخزانات للتأكد من خلوها!!

وفي كل مرة يقوم فيها بإعادة العد والإحصاء -ونتيجة للإرباك الكبير - لا يلتفت للزنزانة التي تحتوي على خمسة أفراد، وكل ما يثير انتباهه زنزانة الثلاثة أفراد! وذلك لسبب بسيط جدًا، وهو أن مسئول النوبة -واعتمادًا على أن كل زنزانة لا تحتمل أكثر

من أربعة أفراد- لا يطرأ على باله العدد الزائد، وإنما يكون جميع تركيزه على الزنزانة صاحبة السرير الخالي من صاحبها! فتكون النتيجة في كل مرة أن جميع الزنازين تحتوي على أربعة أفراد سوى زنزانة واحدة مكونة من ثلاثة أفراد فقط!

الإضراب عن الزيارات

سنوات ثلاث مضت ويزيد عليها أربعة من الشهور ولا زلت مع الإخوة الأعزاء في السجن الانفرادي، وتم التعامل معنا بناءًا على تعليمات المخابرات معاملة تختلف عن بقية السجناء، حيث يحظر علينا الالتقاء ببقية السجناء، وحتى في حالة نقلنا إلى المنامة لمقابلة أهلنا يتم نقلنا في سيارة خاصة بحيث لا يتسنى لنا الالتقاء مع بقية السجناء..

وفي بعض الظروف -عندما تكون هناك أزمة مواصلات- ينقلوننا للزيارة في سيارة إسعاف!

وفي ذات صباح -ولا أنسى أنه في شهر - ٥ - لعام ١٩٩٩ - جاءنا مسئول النوبة وهو يسرع الخطى وطلب منا الاستعداد للانتقال إلى عنبر رقم٥، وأخبرنا بقرار المخابرات برفع عقوبة الانفرادي والسماح لنا بالاختلاط مع سائر السجناء ورفع جميع الإجراءات المصاحبة للانفرادي، وهكذا استبشرنا بالخير القادم،

واعتبرناها خطوة إيجابية، وخصوصا أن منظمة الصليب الأحمر تعاطفت مع محنتنا ووعدتنا بالتحرك لكسر العزلة المفروضة علينا، ولكن المأساة لم تنته بنهاية الانفرادي، بل إن المأساة قد بدأت من هنا!

ففي صباح يوم ٢ / ٦ / ١٩٩٩ م حيث كان موعد مقابلتي أنا والصديق العزيز الشيخ حسين الديهي مع الأهل، جاءنا مسئول النوبة بكل استفزاز طالبا منا التفتيش الكامل حتى التعرية للسماح لنا بالزيارة..

قمنا برفض المقابلة بهذا الأسلوب المهين، فأخبرونا أن هذا الإجراء معمول به مع جميع السجناء!!

رفضنا هذه الطريقة من التفتيش، و بعد ساعة واحدة جاءنا المسئول بورقة يطلب فيها كتابة أسباب الامتناع عن الزيارة وأن الرفض برغبة منا دون أي ضغط من إدارة السجن في منعنا من الزيارة..

سجلنا اعتراضنا على آلية التفتيش وسجلنا ملاحظتنا أن هذا الأسلوب المهين يتنافى والشريعة الإسلامية ولا يليق هذا التعامل مع رجل دين..

وبعد يومين جاء موعد مقابلة الأستاذ عمران وقد اتبع نفس الخطوة، ولكن إدارة السجن حاولت كسر ما سمته بالتمرد بإرغامنا على قبول سياسة الأمر الواقع، ولكننا اتفقنا على عدم التنازل، وقد أعلنا الإضراب عن الزيارات لوقت مفتوح حتى يأذن الله في أمرنا ، وقد اعتبرتْ إدارة السجن أن هذه الخطوة فيها شيء من التحدي؛ لذلك حاكت لنا مؤامرة ترغمنا على قبول سياسة فرض الأمر الواقع ..

تكلمنا معهم بشيء من المنطق بأن الزيارة حق من حقوق السجين ونحن باختيارنا تنازلنا عن هذا الحق، فما المشكلة في الأمر؟!

بعد يومين من رفضنا للزيارة حاكتْ لنا إدارة السجن طريقة جديدة لإخضاعنا للتفتيش الإجباري، فقد أخبرونا بأننا على موعد لمقابلة مدير السجن في المنامة..

أجبناهم بقبول مقابلة المدير بشرط عدم إخضاعنا للتفتيش..

وفي الصباح الباكر طلبوا منا الاستعداد للتوجه إلى المنامة لمقابلة مدير السجون، أكدنا التوصية على مسئول النوبة بأننا لم نطلب مقابلة المدير، ولا مانع لدينا لتلبية رغبة المدير لمقابلته

بشرط أن نُعطى الضمانات الأكيدة لعدم إخضاعنا للتفتيش الإجباري والمهين للكرامة..

طلب منا مهلة للحديث مع الضابط الإداري، وبعد فترة قصيرة عاد وقال بعد أن ضرب على صدره الخبيث: أنا أضمن لك ! وما أنتم إلا في ضيافة سعادة المدير، وهو يريد الحديث معكم بشكل شخصي، وهي فرصتكم للحديث معه..

خرجنا من العنبر بهذا الضمان ونحن نتوجس خيفة لأنهم لا أمان لهم..

طلب منا الانتظار في غرفة الضابط المناوب، وهي الغرفة التي يتم فيها التفتيش عادة..

وبدخولنا قام ـوبحركة سريعة وخبيثةـ بإقفال الباب وبسمة ماكرة تعلو شفتيه..

تقدمتُ له بالسؤال: ما القصة ؟

فقال بخبث : تفتيش !

فقلت له: يعني خديعة وكذب؟!

وارتفع صوتي معه، فقال نرجو منكم التعاون وعدم التمرد

على أوامر الإدارة..

فقلت له بعد أن غلا دمي: نحن رافضون مقابلة المدير..

فقال: لا بد من التفتيش!

قلت له باستخفاف: علّي وعلى أعدائي إذا استطعت نزع ملابسي!

قام باستدعاء عشرة من الجلاوزة ، حتى امتلأ المكتب بهم بعد أن أمرهم بتقييد يدي بالقيد الحديدي من الظهر خوفًا من مقاومتي..

أحاط بي الجلادون محاولين نزع ملابسي فارتفع صراخي بالتكبير..

ملأتُ السجن بالصراخ والضجة.. وهم غير آبهين بصرخاتي واستغاثاتي..

ارتبك الجلادون، فتقدم أحدهم ووضع يديه على فمي محاولاً إسكاتي، فكانت له أسناني بالمرصاد لأغرسها في كفه المقفر..وأنا أحاول مستميتا التخلص منهم ومقاومتهم دون جدوى..

نزع الكوفية التي على رأسي وربطها على فمي وشدها

بقوة، جرحت لثتي وشفتي السفلى..

حاولوا جاهدين لنزع ملابسي، إلا أن يداي مقيدتان خلف ظهري، ولا توجد طريقة لنزع ثوبي بهذه الطريقة..

في هذه الأثناء اطرحوني أرضًا فقمت بركلهم برجلي..

كانوا يتحاشون ضربات رجلي وأنا أتقلب على أرض المكتب..

لم يخطر ببالي بأني سأصل لهذا المستوى من المواجهة والمقاومة ..

أنا الذي اتسمت شخصيتي بالهدوء والاتزان كيف خرجت من داخلي شخصية أخرى لا أعرفها !!

غير أن الذي لايثبت في السجن لايثبت خارجه.. هكذا كنت أحدث نفسي .

ونتيجة للمواجهة أخذ أنفي ينزف بالدم، حتى غطتْ الدماء ثوبي وسقتْ أرض المكتب، والجلاوزة في ارتباك، وصراخي لم ينقطع..

استمرتْ المحاولة ما يقرب من ربع الساعة وأنا أرفسهم

برجلي..

كنتُ أرتجف من شدة الضعف والإعياء وأتنفس بصعوبة..

المسئول كان يخشى من تطور الموقف وانتباه المساجين

لصوت الصراخ وحدوث حالة من التمرد داخل السجن.

انتهى المشهد معي بهذا المستوى بعدما عجز الجبناء عن مواجهة الموقف؛ لأنهم لا يحملون صلاحية استخدام العنف والقسوة ضدي لأنهم من أخطأ بحقي، فقد طلبوا مني غسل الدماء وتغيير ملابسي، ولم يكن من المناسب أن يسمحوا لي بالرجوع إلى الزنزانة لتغيير الملابس وأنا بتلك الوضعية ، فقد ذهب المسئول إلى الزنزانة وطلب من السيد إبراهيم العلوي إعطاءه الملابس التي تخصني ..

صرخ السيد في وجهه : ماذا فعلتم به ؟

ورفض إعطاءه الملابس الخاصة بي..

فتح المسئول الخزانة وأخرج الملابس الخاصة بي ..

بعدما غيَّرتُ لباسي عاودني النزيف من جديد وبدأ يلون ثوبي البيضاء من جديد، تركني الأوباش ملقىً على الأرض

وأحاطوا بصديقي العزيز الشيخ حسين الديهي..

قاومهم، اجتمعوا عليه وطرحوه أرضًا وهو يستغيث..

تكاثروا عليه وجثى على صدره ذلك الخرتيت - مشعل - وهو أحد الجلاوزة القساة والذي يزيد وزنه على ١٦٠ كج..

كانت العلاقة التي تربطني بالديهي لم تسمح لي بأن أراه في ذلك الموقف وأنا أنظر إليه، حاولتُ النهوض وأنا مقيد اليدين من الخلف بالحديد، و الانقضاض عليهم لتخليصه منهم غير مكترث بهم، لكنني أحسست بانهيار وضعف شديدين لكثرة النزف والصراخ فوقعتُ على الأرض، فكرتُ في طريقة ما لإشغالهم وذلك بنثر محتويات المكتب على الأرض وجعل سافل المكتب على عاليه، ولكني أحسستُ بأن قواي قد خارت وأنه لا قوة لي على النهوض، لم أتمالك نفسي، جرتْ دموعي سريعًا على لحيتي وأنا أقول: صبرًا على قضائك يا رب، لا معبود سواك، أنت رب المستضعفين، وهازم الجبارين، خلصنا مما نحن فيه يا غياث المستغيثين..

وأخيرًا تركوا الديهي على الأرض وهو مقيد اليدين.

توجهوا للأستاذ عمران، حاولوا إقناعه بعدم التمرد وأنهم

لا يريدون إيذاءه، وفجأة وضع الأستاذ يديه على قلبه وقد امتعض وجهه بالألم..

حاولوا تدارك الموقف وأجلسوه على الكرسي وأعطوه الضمانات بمراعاته في التفتيش، خصوصًا لعلمهم أنه يحمل داء السكري ويخشون من مضاعفات استخدام القسوة معه..

طلب منهم الابتعاد حتى يرتدي الإزار ويخلع الثوب، وقد احترموا رغبته وقد اكتفوا بهذا المقدار بدون حاجة لإهانته في التفتيش، وبذلك اعتبروا أن الأستاذ تجاوب معهم ولم يتمرد على أوامر الإدارة..

لقد انكشف لنا أن التفتيش لم يكن من أجل التفتيش، وإنما من أجل الإعانة وفرض سياسة الأمر الواقع..

بعد فشلهم في ذلك أخذوا ثوبي المتلوثة بالدماء ووضعوها في كيس وأرسلوها لمدير السجن كعلامة على عصيان أوامر الإدارة والتمرد على رجال الأمن..

بعد ذلك أخذونا إلى الحافلة ولم يسمحوا لبقية السجناء بالحديث معنا، فقد توزع السجانون في أول ووسط وآخر الحافلة في محاولة للتعتيم الإعلامي؛ ولعدم السماح للآخرين

بالحديث معنا..

وصلنا إلى المنامة بعد أن منع الحديث داخل السيارة ، وقد أخذونا إلى البرج وفصلونا عن بقية السجناء..

وفي نهاية الوقت أخبرنا المسئول أن المدير غاضب عليكم ومنزعج منكم ويرفض مقابلتكم لتمردكم على أوامر الإدارة !!

وهكذا أرجعونا إلى مقبرة الأحياء سجن جو المركزي وقد أخذوني مع الشيخ حسين الديهي إلى مبنى الإدارة، فقد كنا نشترك في قيد واحد، فقد كانت يمناه مقيدة بيدي اليسرى، وفي مبنى الإدارة فتحوا القيد الحديدي وفرقونا وطلبوا منا كتابة إفادة بما جرى..

وبعد الانتهاء جمعونا ثانية فقال لي الديهي: سيأخذوننا إلى الحجز الانفرادي، وفعلاً أخذونا إلى تلك الغرفة التي يحلو للبعض أن يسميها بـ (الصندقة) لوضعها السيء والمأساوي، وهي عين الزنزانة التي حشروا فيها الأستاذ عبد الوهاب والأستاذ حسن المشيمع لأكثر من سبعة أشهر..

ولا يمكن بأي حال من الأحوال لمن يقبع في تلك الزنزانة

الاتصال بأي مخلوق؛ لأنها نائية عن جميع السجون وتقع في وسط المباني وعليها حراسة مشددة..

قضيت في تلك الزنزانة أجمل أيام الاعتقال مع أخي وصديق دربي الشيخ الديهي، وبعد انقضاء أسبوعين من الانفرادي -ولأسباب صحية- قام الديهي بطلب الضابط الإداري، طالبًا منه تغيير موقعنا أو نقلنا إلى انفرادي آخر تتوافر فيه الشروط الصحية، فقال الضابط: إنها أوامر المدير !

ولكنه وعد بإقناع المدير بذلك .

وكان السجانون ترتسم على وجوههم علامات الدهشة والاستغراب عندما وجدونا في ذلك الموقع ، فالجميع يشهد لنا بحسن الأخلاق ، وأننا نتمتع بسمعة طيبة عند الإدارة !!

وبعد يومين من المقابلة فعلا نقلونا إلى العنبر ٤، وهو المكان المخصص للحجز الانفرادي في السجن٤..

ومن باب الاتفاق بعد يومين من نقلنا علمنا بوصول منظمة الصليب الأحمر، وفعلا التقوا بنا ونقلنا لهم المأساة التي نعيشها، وكان ردهم بأننا في كل مرة نزور السجن لا بد وأن نجد الحجز الانفرادي ممتلئا بالسجناء، لا بد وأن نرفع هذا الأمر للمسئولين.

استقبال المنتصرين

بعد نقلنا للانفرادي عاد الأستاذ عمران بعد استثنائه من العقوبة، وقد دخل العنبر وهو يبكي، وقد نقل لبقية سجناء تفاصيل الحادثة ومدى الوحشية في إرغامنا على التفتيش القسري ، وقد قامت إدارة السجن في نفس يوم الحادثة برفع حالة الاستنفار والتأهب والطوارئ داخل السجن؛ فقد تعودتْ إدارة السجن في مثل هذه الحالات على حدوث تمرد داخل السجن يتبعه الضرب العنيف على أبواب السجن منتهيًا بالإضراب عن الطعام..

لاحظ السجناء في يوم الحادثة أن أكثر من ثمانية عناصر من رجال الأمن والحراسات صعدوا على أسطح عنابر السجون الستة وهم مسلحون بالرشاشات وبنادق الشوزن تحسبًا لقمع أي تحرك أو تمرد كردة فعل على الحادثة، وبالفعل بدأت النفوس تغلي، والبعض كان يخطط لحركة كبيرة تنتهي بمواجهة رجال الأمن والتشابك معهم بالأيدي احتجاجًا على موقف الإدارة، إلاّ أن

السيد إبراهيم العلوي تدخل في الموضوع وعارضهم على أي تحرك غير محسوب العواقب وغير مدروس، وخصوصًا أن إدارة السجن قد وعدتْ السجناء في تلك الفترة بالبدء في الإفراج بمناسبة العهد الجديد والأمير الجديد، وأن أي تحرك سيعود سلبًا على السجناء، وربما أدى لإلغاء الإفراجات.

وعلى خلفية هذه الحادثة فقد قامت إدارة السجن من نفسها بإلغاء زيارة السيد إبراهيم العلوي تحسبًا لعدم تكرار المأساة، ولأن إدارة السجن تعرف تمام المعرفة بأنهم من أخطأ في حقنا وأننا نتمتع بشعبية عند السجناء فقد كان تعاملهم معنا في الانفرادي يختلف عن بقية السجناء، فقد سمحوا لنا بإدخال الأكل الخاص بنا من العنبر، كما سمحوا لنا بالخروج لمدة ساعة واحدة للتشميس في الساحة الخارجية، وهذه الأمور كانت من أهم الممنوعات في الحجز الانفرادي، إلا أنها كانت مسموحة لنا فقط!!

والأهم من ذلك كله – وقبل اكتمال مدة العقوبة المحددة بفترة شهر كامل- جاءنا مسئول النوبة في الأسبوع الثالث من العقوبة، ولا أنسى الوقت، فقد كان وقت الغداء تمامًا، وقال لنا: التقارير التي وصلت لمدير السجن عنكم كانت جيدة وهو مرتاح لسلوككم في الانفرادي، لذلك فقد عفا عنكم في المدة المتبقية

من عقوبة الحجز الانفرادي، تبسمت في وجه صاحبي الديهي وقلت له: إنها شهادة حسن سيرة وسلوك من مدير السجن، وهكذا رجعنا للعنبر وقد استقبلنا الإخوة استقبال المنتصرين.

ضدّ التفتيش

إدارة السجن كانت تراهن على عدم صمودنا في قرار مقاطعة الزيارات، وأننا سنتراجع عن قرارنا بفعل الضغوط النفسية من قبل زوجاتنا، ولكن زوجاتنا كنّ أكثر صمودًا وتحديًا منا؛ حيث إنهن لم يقبلن منا الخضوع لذلك التفتيش المخزي والمهين، وكنّ يوصيننا بالصمود والثبات، وبدورهن كنّ يضغطن على إدارة السجن..

استمر وضعنا هكذا لأشهر طويلة، وكان السيد إبراهيم العلوي يخضع لعلاج دوري في مستشفى السلمانية الطبي لداء الشقيقة والصرع، وفي هذه الفترة نفذ الدواء الذي بحوزته، وقد نصحه الممرض بمراجعة الطبيب لوصفة جديدة لصرف الدواء، ولكنه كان يرفض زيارة الطبيب تحاشيًا للتفتيش، وكنا نخشى على السيد من مضاعفات المرض، لا سيما أنه يحمل داء السكري..

وذات ليلة وقع المحذور الذي كنا نخشاه، وتماما كانت

الثانية فجرًا، وهو التوقيت الذي يسبقنا فيه السيد في الاستيقاظ للتهجد وأداء ورد الليل وقراءة القرآن، وكان من عادته أن يتناول القهوة - النسكافة - في هذا الوقت لتعينه على السهر، وكنت حينها كعادتي أرقد في الطبقة العليا من السرير، وصاحبي الشيخ حسين الديهي يرقد كعادته في الطبقة السفلى من السرير، ويقابلنا السيد إبراهيم العلوي في سرير آخر.

في ذلك التوقيت سمعتُ صرخةً خفيفةً من السيد أعقبتها صرخة أقوى منها للديهي، انتبهتُ فزعًا مرعوبًا فوجدت السيد ملقىً على الأرض وهو في حالة تشنج تام جراء نوبة الصرع التي أصابته وبجانبه الديهي..

قفزتُ بسرعة من أعلى السرير إلى الأرض، وقد قام صاحبي بطرق الباب طرقًا سريعًا متلاحقًا بكل قوة وهو يصرخ على السجانين..

انتبه معظم السجناء على أنغام الضرب على الباب، وجاء السجانون بسرعة لنقل السيد للمستشفى..

وفي الصباح أرجعوه وقد حدد الطبيب المناوب موعدًا عاجلاً للسيد لمتابعة العلاج في مجمع السلمانية الطبي .

وفي اليوم التالي جاء السجان المسئول عن مواعيد المستشفى لنقل السيد للمستشفى إلا أن السيد رفض الذهاب للمستشفى تحاشيًا للتفتيش المهين، وقد حاول إقناعه بضرورة مراجعة الطبيب حفاظًا على نفسه، فقال له السيد: أنا رجل دين، وأنا أعْرَفُ بتكليفي الشرعي.

علم الضابط الإداري بامتناع السيد عن الذهاب للمستشفى فقام باستدعاء السيد وجرت بينهما محاورة شديدة اللهجة من الجانبين، واشتد الكلام بينهما فقام الضابط كعادته بتهديد السيد وقال له: غصبًا عنك ستذهب المستشفى، وستخضع للتفتيش، وسأقوم بتفتيشك أنا!

فقال له السيد: جرب !

فاشتد غضب الضابط ووصف السيد بالغرور وقال له: أنت تتحداني؟!

فقال له: لا أتحداك، ولكن بحكم وظيفتك أقول لك عليك القيام بواجبك، وأنا بحكم تكليفي الشرعي سأقاوم التفتيش بكل ما أملك..

انتهى الأمر بقرار الضابط بوضع السيد في الحجز

الانفرادي..

بمجرد استدعاء السيد خرج جميع السجناء من زنزاناتهم وبقوا في ممر العنبر بانتظار تطورات الموقف، وقد تحول العنبر في ذلك اليوم إلى حالة من الاستنفار تحسبًا لأي موقف سيء..

الجميع مشدود الأعصاب ويعيش حالة التوتر النفسي، في هذه الأثناء أبلغنا السجانون بإيداع السيد في الحجز الانفرادي.

استاء السجناء لهذا القرار، فالسيد أحوج ما يكون للرعاية الطبية لا للمزيد من مضايقات السجن، خصوصًا أن وضعه الصحي لا يأذن له بذلك.

أجمع السجناء على القيام بخطوة الإضراب عن الطعام احتجاجًا على قرار الإدارة وتضامنًا مع السيد..

وفعلاً تم إرجاع وجبة الغداء ولم يُسمح للطباخ بإدخال الوجبة إلى العنبر، وتم استدعاء مسئول النوبة لإبلاغه بهذه الخطوة الاحتجاجية ليقوم هو بدوره بإبلاغ الضابط الإداري.

بعد أقل من نصف الساعة قام الضابط باستدعاء الشيخ حسين الديهي باعتباره الناطق الرسمي للعنبر، وقد اعتدنا على استدعائه في مثل هذه الظروف، وخصوصًا أن الضابط الإداري يثق

به كثيرًا، وفي أحيان كثيرة كان يأخذ بكلامه.

اشتد السجال بينه وبين الضابط الإداري وقد أبلغه الشيخ الديهي استياء العنبر وحذّر الضابط الإداري من تطور الوضع وانفجاره حالة حدوث أي مكروه للسيد..

وقد ينعكس هذا الوضع على العنابر الأخرى وربما تتفاعل بقية السجون مع الحدث ، فصار الضابط يهدد باستخدامه للعنف والقسوة لإرغام السيد لزيارة الطبيب ، وأنه سوف تقيّد يداه بالقيد الحديدي ويضع الدواء في فمه بالقوة..

فأجابه الشيخ الديهي بأن الأطباء يؤكدون على ضرورة استقرار الحالة النفسية للمريض قبل العلاج، ولن تنفعك القيود الحديدية!!

أدرك الضابط خطورة الموقف وأن الشيخ الديهي حاصره في زاوية حادة، وأن الشيخ الديهي بحنكته وقدرته في المغالبة في الكلام والسجال استطاع أن يقنع الضابط أن يتراجع عن قراره وأن يأخذ تحذيرات الشيخ على محمل الجد، فقام الضابط بتغيير أسلوبه في الحديث بنسبة ١٨٠ درجة مئوية، فقد قال للشيخ الديهي: إننا نعاملكم معاملة تختلف عن بقية السجناء وسوف نراعيكم في التفتيش ولا داعي للتخوف ! ولا داعي للعناد!

وفعلاً فقد قام الضابط بإعطاء تعليماته وتوصياته للسجانين بإرجاع السيد إلى العنبر، ومراعاة هذه المجموعة في طريقة التفتيش، وأن يتم بدون خلع الملابس والابتعاد عن الاستفزاز.

المانجو يكسر المقاطعة!

سبعةٌ من الشهور مضت على قرار مقاطعة الزيارات احتجاجًا على أسلوب التفتيش المخزي، ولا زالت الإرادة والصمود قويتان عند الإخوة الأعزاء في الاستمرار وعدم التراجع، فالمسألة مسألة كرامة غير قابلة للتفاوض والمساومة..

فكرنا مليًا في عرض الضابط الإداري على الشيخ حسين الديهي، واستقرّ بنا الرأي على خروج أحدنا للزيارة مجازفة لكشف مدى المصداقية في النوايا والمراعاة في التفتيش..

وهكذا انفتح الباب لنا لكسر قرار مقاطعة الزيارات، إذ لمسنا الجدية عند الإدارة في مراعاتنا في طريقة التفتيش.

وعندما جاء دوري في الزيارة استقبلني الأهل بكل حفاوة وحرارة، وكانت ابنتي ضحى حينها تخطو للعتبة الخامسة في عمرها، ولم تكن لتدرك سبب انقطاعي الطويل عن الزيارة بعدما

تعلقت بي، فما كان منها إلا أن استقبلتني استقبالاً حارًا يليق بي كسجين، ففي أثناء الزيارة - وفي الوقت الذي كنت مشغولاً فيه بالحديث مع العائلة- أخذتْ ابنتي الصغيرة - بكلّ براءة وطهارة نفس- علبة عصير المانجو -المعروف بثخانته وغلاظته لاحتوائه على مادة النشا- التي تقرب من ٣ لتر وسكبته بكامله على رأسي، حتى أن لون شعري انصبغ بلون عصير المانجو الأصفر، وقد أحسستُ ببرودة العصير نزلتْ إلى ظهري وجميع جسمي، وقد تلونتْ ثيابي النظيفة الأنيقة بلون عصير المانجو، وكان ختامها مسك.

الأذان ممنوع!

القوانين المرتجلة -وقوانين الجيب واللحظة كما يطلق عليها الأستاذ حسن المشيمع- أمر اعتاده السجناء، فلا يوجد لدى إدارة السجن لائحة نظام أو دستور يستطيع من خلاله السجناء أن يعرفوا ما هي الواجبات والالتزامات التي عليهم، وما هي المحظورات المفروضة عليهم، بل إننا نرى أنه في كل مرة تطالعنا إدارة السجن بقانون جديد، فمن تلك القوانين حظر رفع الصوت بالأذان! هذا ما أبلغنا إياه المسئول المناوب.

وعندما حان وقت الصلاة بدا الإرباك على بقية العنابر ولم نسمع منهم صوت الأذان المعهود، فتقدم الأخ جعفر القطري رافعًا صوته بالأذان، وبذلك أعطى الحماس للعنبر المجاور فقام ذلك العنبر أيضا برفع الأذان.

جاء الشرطي مهرولاً وبدأ يضرب بمفاتيح السجن على بوابة العنبر بعنف ليصدر منها صوتًا مزعجا وهو يقول: شباب

شباب، ما في أزان! ما في يعرف هازا ممنوع؟!! ولكن المؤذن واصل الأذان متجاهلا نداء الشرطي.

وبعد انتهاء الأذان صار الأخ جعفر يصرخ في وسط العنبر بصوت مسموع: اليوم الأذان ممنوع، وغدًا سيقولون لنا: الصلاة ممنوعة أيضا، قالها بصوت مرتفع حتى يوصل صوته لبقية العنابر وأن عليهم الاستمرار في الأذان وعدم الانصياع لأوامر الإدارة.

انتظم الجميع في الزنازين المعدّة لصلاة الجماعة، فكان الأستاذ المشيمع في الزنزانة رقم ٨، والسيد إبراهيم العلوي في الزنزانة ٢، والشيخ حسين الديهي في الزنزانة ١٠، وكنت أصلي في الزنزانة ٥، فجاء الشرطي ونحن في وقت الصلاة فقطع علينا أجواء التوجه والعبادة بصوته المرتفع الجرش الخشن بكلماته المعهودة: شباب، شباب ، شباب وهو يضرب على بوابة العنبر وأحد لا يجيب؛ لأن الجميع كان مشغولا بالعبادة والطاعة، فصار يواصل الضرب بشكل مستمر.

بعد انتهاء التعقيب مباشرة نهض الأخ جاسم الجبل مندفعا ناحية الشرطي وقد أعطاه درسًا لن ينساه في الأخلاق والذوق واختيار الأوقات المناسبة وعدم قطع الصلاة على الآخرين.

بعدما انتهى جاسم الجبل من محاضرته الأخلاقية، قال

الشرطي بانكسار: وين اللي فيه أزان اليوم؟!

تقدم الأخ جعفر القطري: نعم ماذا تريد؟

فقال له: الضابط المناوب يريدك.

خرج الأخ جعفر القطري من العنبر وهو يمشي أمام الشرطي بكل ثقة متوجها ناحية مكتب الضابط الإداري.

وفي مكتب الضابط المناوب بدأ التحقيق مع جعفر القطري بأنه مخالف لأنظمة وقوانين السجن، وأنه متمرد على تعليمات الإدارة.

سأله الضابط المناوب: ألا تعرف أن الأذان ممنوع؟

فقال جعفر القطري: أحكام الشريعة فوق القانون، والقوانين لا تعلو على الشريعة، وإذا تعارض الاثنان قدمنا الشريعة على القانون.

فقال له الضابط: أنت مخالف لقوانين وأنظمة السجن!

فقال القطري: وأين هذه القوانين التي تمنعنا من حرية العبادة؟

فقال الضابط: ألم يخبرك المسئول المناوب؟

فقال القطري: نحن نريد تعليمات واضحة ومكتوبة بلغة واضحة؛ لأننا لا نثق بنقل الشرطة وفهمهم؛ لأن غالبيتهم لا يتقنون اللغة العربية.. فضلاً عن نقل التعليمات..

احتد النقاش مع الضابط المناوب، وأخيرا طلب منه التوقيع على تعهد مكتوب بعدم رفع الصوت بالأذان.

امتنع القطري عن ذلك وقال: سأستمر في الأذان، وإذا حكمتم علي بالحجز الانفرادي سوف أرفع صوتي بالأذان من زنزانة الحجز الانفرادي.

أمر الضابط المناوب بإرجاع القطري للعنبر بعد ان أعطى توصيته برفع الموضوع للضابط الإداري، على أن يقوم وفد لتمثيل العنبر يتفاهم مع الضابط الإداري بشأن هذا الموضوع.

وقد تم تحديد التاسعة والنصف ليلاً لمقابلة الضابط الإداري.

عقدنا الاجتماع الطارئ قبل تشكيل الوفد المفترض لمقابلة الضابط الإداري للتفاوض حول مشروعية الأذان.

اتفقتْ كلمتنا على عدم التنازل، وأن الأذان جزء من حريتنا الدينية، ولا مجال للمساومة والتفاوض على هذا المبدأ،

وعدم قبول فكرة التوقيع على أي تعهد تطلبه الإدارة منا، وتعاهد الجميع على تحمل المسؤولية.

وعندما حانت ساعة الصفر جاء مسئول النوبة لاستدعاء الوفد المفترض مع الضابط الإداري..

وفي مكتب الإدارة كان الضابط الإداري يجلس على مكتبه بحضور اثنين من ضباط الإدارة، الأول على يمينه والآخر على يساره، وكان الجميع بملابسهم المدنية طبعًا.

بدأ الضابط الإداري كلامه بشيء من الانزعاج يخالطه التحدي، وأن تكسير أوامره عقوبة لا تغتفر، وأن الإدارة تنظر إلى العنبر رقم٢ بشيء من التقدير والاحترام، وعلى عقلاء العنبر توجيه السجناء للانصياع لتعاليم الإدارة، وإعطاءهم محاضرات خاصة حول ضرورة احترام القانون والالتزام بالسلوك الإسلامي!! وما يجري في العنبر بوجود (الكبار) -على حد تعبيره- تحدٍّ صارخ لقرارات الإدارة، وأن القوم لا يريدون الالتزام بالنظام، وأنهم يريدونها (سايبة) !!

وبدا الانفعال واضحا على قسمات وجهه، وبدأ بتصعيد وتيرة الحديث بالتهديد، فكان يلوّح باستخدام القوة وأن لديه من الصلاحيات الواسعة ما تمكّنه من ضبط السجن ليسير كعقارب

الساعة، وصار يستعرض حجم القوة التي يمتلكها من عدد القيود والسلاسل الأمريكية الصنع مما يكفي لتقييد جميع السجناء، ومن الذخيرة وعدد قوات مكافحة الشغب والهراوات ووو...،

هكذا كان منطقه (منطق القوة لا قوة المنطق)، إلاّ أن جميع ذرائعه ومحاولاته بالتهديد والوعيد باءت بالفشل، بدلاً من التراجع والتنازل فقد استأسد الإخوة وباغتوه بالحزم والشدة وعدم الاكتراث بكل تلك الحشود التي يتباهى بها لقمع سجين يرفع صوته بالتكبير وسط سجناء عزل.

وقد أبلغوا الضابط رسالة مفادها بأن سجناء البحرين ليسوا كسجناء الأردن، وليس بالضرورة بأن تجاربه الناجحة هناك تنجح هنا، وأن الشعائر الدينية والمقدسات الإسلامية خط أحمر يجب أن لا تتجاوزه الإدارة؛ لأن الدماء ستكون رخيصة مقابل هذه المسألة، وما حدث في السجن١ ـ من تمرد ومواجهات حدثت بين السجانين والسجناء مما استدعى حضور قوات مكافحة الشغب وتطويق السجن وخنقه بالقنابل الدخانية والغازية ـ ليس ببعيد عنا.

وبذلك انحشر الضابط في زاوية حادة، لم يخرجه من هذا الموقف إلا مكالمة هاتفية تلقاها من مدير السجون لمتابعة القضية.

طلب من الإخوة الانتـظار في الخارج لحـين انتهاء

المكالمة..

استغرقتْ المكالمة ما يقرب من خمسة عشر دقيقة تقريبًا، بعدها استدعى الإخوة ثانية وقد بدا عليه الهدوء والاستقرار وسعة الصدر واعتدال المزاج، وقال بأنه لا علم له بالأحكام الشرعية الخاصة بالمذهب الجعفري، وأن الأذان جزء من الصلاة بحسب فقهنا بحسب ما أفاد المؤذن، وبأنه سيكون مع اتصال بإدارة الأوقاف الجعفرية للتأكد من صحة هذه الدعوى، ومن ناحيته -وبحسب دعواه- سيقوم بإقناع مدير السجون بتوفير المزيد من الحرية الدينية داخل السجن، وما قام به ما هو إلا تنفيذ لسلطة فوقية، فعليه تنفيذ تلك الأوامر، وإنه لا يستطيع تجاوز قرارات مدير السجون، ولكنه -وعاد مبررًا- سيقوم بإقناع المدير بذلك.

ومع مرور الوقت استطاع الشباب قلب السحر على الساحر، حيث تزامنت تلك الفترة وزيارة الصليب الأحمر للسجون وأبلغوه تلك الشكوى -مضايقة الحريات الدينية-، وقد اعتبرت منظمة الصليب الأحمر أنها مخالفة صريحة يجب أن تصل للمسئولين في الدولة، وهذا ما لمسناه فعلاً من الضابط الإداري؛ حيث كان يعاتبنا على توصيل هذه الشكوى للمنظمة.

السلام ممنوع!

السلام على الآخرين من أهم المخالفات التي يعاقب عليها السجين؛ لأنها في نظرهم مخالفة لأنظمة وقوانين السجن، وبالمناسبة فإن إدارة السجن تراعي نفسيات السجناء لدرجة كبيرة، فهي لا تطلق علينا اسم سجين، بل يطلقون علينا اسم نزيل، فهي أخف وطأة في اللسان، فهو عندهم أشبه بالفندق!!

ويطلقون على السجن مصطلح المؤسسة العقابية حتى لا تتكسر نفسياتنا - شهادة لله - والحق يقال..

الغريب هو أنك حتى لو كنت مع صاحبك في زنزانة واحدة ثم تم نقل صاحبك إلى عنبر آخر يفصله عنك متر واحد فقط -وبالأحرى جدار واحد فقط- فإن الحدود السياسية التي بينك وبين صديقك -الذي عشت معه سنوات في زنزانة واحدة- تفرض عليك الالتزام بالقانون وعدم السلام عليه!!

الحادثة التي جرت لي هي أن طبيب السجن قرر تحويلي

للمستشفى العسكري لتكملة العلاج هناك لإجراء عملية الجيوب الأنفية، وكانت أوامر إدارة السجن هي أن أحد أفراد الشرطة يجلس على يمين السجين والآخر على يساره في قاعة الانتظار؛ وذلك حماية له وخوفا عليه؛ لأن النزيل أمانة عندهم ويجب المحافظة عليه، لكن الشرطي المسئول -من شدة حرصه على تطبيق القانون، وحماية لي من الآخرين- لم يسمح لي بالجلوس في القاعة العامة مع بقية الناس؛ فقد كان يحاسب لمشاعري ونفسيتي حتى لا أسمع الأخبار من تلفزيون المستشفى فتتدهور حالتي النفسية.

وأنا أقدّر لهم هذا الشعور الإنساني النبيل ؛

لذلك جعلني واقفا خارج القاعة وبالتحديد في الممر الخارجي، وقد ذهب المسئول ليملأ كرشه..

في هذه الأثناء رآني الأخ محمد شفيعي أحد قاطني المدينة، فوقف معي وقام بالحديث معي والشرطي يتصوره أحد طاقم الفريق الطبي..

وفجأة باغتني المسئول وقامت قيامته..

قلت له: لا تحاسبني وحاسب الشرطي !!

أنا سجين ومن واجبي الشرعي رد التحية على الآخرين..

قام باستدعاء المخابرات العسكرية المتواجدة في المستشفى للتحقيق مع الأخ محمد، وفعلا استلموه للتحقيق، وقام المسئول بكتابة تقرير ضدي بغية الحصول على ترقية، وقام الضابط الإداري باستدعائي للتحقيق معي، وقد انقلب السحر على الساحر؛ فقد حاكموا المسئول على إهماله لإيقافي في الممر.

قانون أمن الدولة

بموجب قانون أمن الدولة -أو ما يسمى بقانون الطوارئ- يجوز لوزير الداخلية التوقيع على مذكرة الاعتقال دون تحقيق أو محاكمة قد تصل لسنوات ثلاث، وبموجب هذا القانون – قانون الطوارئ، وهو اعتقال بلا قانون- امتلأت السجون بمعتقلي الرأي وضحايا قانون الطوارئ الذي يجيز الاعتقال بلا قانون بمجرد الظنة والتهمة..

ولا حاجة أن تتعب المخابرات نفسها بإعداد لائحة الاتهام؛

فنحن نقدّر لها انشغالاتها الكثيرة !!

فقانون أمن الدولة سوف يوفر لها الوقت الكثير!! وسوف يخفف العبء عن محكمة أمن الدولة..

إلا أن مباحث أمن الدولة اصطدمتْ بصخرة الواقع،

وذلك بعد نفاد مدة التوقيف! فقانون الطوارئ يجيز التوقيف بلا سبب لسنوات ثلاث فقط!

إلا أن المضحك المبكي أنهم لم يلتزموا حتى بالقانون السيئ الصيت، فالمخابرات لم تلتزم بالقانون الجائر الذي وضعوه..

فما هي المرجعية القانونية التي يحتكم إليها السجان والسجين؟! وبأي لغة يتفاهم السجين مع السجان؟!

كثرت المطالبات بتطبيق قانون الطوارئ من السجناء!

وتزايدت المناشدات بالالتزام بما ورد بمواده على أن لا تتجاوز فترة التوقيف ثلاث سنوات، ولكن إذا كان خصمك القاضي فمن تقاضي؟!

مع مرور الوقت أوشكنا على انتهاء سنوات ثلاث أُخر، فقد بلغ مجموع سِنِيِّ الاعتقال خمسًا من السنوات بدون أن يعرضونا على قاضي التحقيق..

وتكتفي مباحث أمن الدولة بتجديد المدة كل ثلاث سنوات بدون عرضنا على المحكمة!!

تفاعل سجناء الرأي مع قضيتهم مطالبين إما بمحاكمتهم - والتي لن تزيد في أسوأ الأحوال على المدة التي قضوها خلف

القضبان الحديدية بقرار جائر- وإما بالإفراج الفوري!!

ومع ازدياد حالة التوتر في السجن قامت إدارة مباحث أمن الدولة باتخاذ خطوة تكسر هذا الاحتجاج وترغم الجميع على السكوت وإبطال المطالبة بالمحاكمة، اذ قامت بالإفراج عن مجموعة من السجناء، وبمجرد خروجهم من بوابة السجن أعادتهم للسجن مرة أخرى بدعوى أنه بمجرد خروج السجين من بوابة السجن تتجدد مدة التوقيف الإداري بشكل تلقائي لثلاث سنوات أخرى، وبمعنى آخر فإنه يحتسب اعتقالا جديدا!!

وفي أحسن الأحوال فقد قامت بتقديم الأستاذ عبد الوهاب حسين للمحاكمة، وقد قام القاضي بإطلاق سراح الأستاذ، وبعد ٢٤ ساعة من الإفراج أعيد اعتقاله !

كما قامت أيضًا بالإفراج عن الحاج علي العكري بدون تقديمه للمحاكمة، وبعد ٤٨ ساعة أعادته للاعتقال!

الحرب النفسية

الحرب النفسية والتلاعب بالأعصاب تقفان خلف لعبة الإفراج الوهمي الكاذب!

وذلك لوأد جميع السجناء بمقبرة الأحياء دون اعتراض! ولتكميم الأفواه المنادية بحق الحياة!

فالحياة ملك خاص للمخابرات تهبه لمن تشاء بدون حساب على أن يدور المعتقل في فلكها ويسبّح بحمدها وآلائها ليل نهار !

وداع الأهل من أصعب اللحظات التي يقاسيها المعتقل بعد انتهاء فترة زيارته، فكيف بمن صار في وسط الأهل والأحباب بعد اعتقال طويل لتختطفه مرة أخرى يد القهر بعد ساعات محدودة من الإفراج؟!

لهذا السبب بالتحديد توهمتْ المخابرات بأنّ سياسة

الإفراج القصير سترغم المعتقل على التراجع والتنازل عن العمل في سبيل إخلاء سبيله..

الجدير بالذكر أن الأستاذ عبد الوهاب حسين -بعد إعادة اعتقاله- لم يسأل أبسط مسئول في السجن: لماذا تم إعادة اعتقالي؟!

ولم يقدم أي احتجاج أو استنكار على هذه العملية، والظريف في الأمر أن المخابرات استدعت أحد المعتقلين لاستكمال إجراءات الإفراج الموهوم، وقد جرت العادة أن يتم احتجاز المراد إطلاق سراحه في زنازين اللجنة الأمنية لحين انتهاء الإجراءات الشكلية..

وعند ساعة الصفر -عندما أُذن لصاحبنا بالخروج إلى فضاء الحرية- أعيد إلى زنزانته بعد ٧ دقائق من خروجه فقط!!

وعندما حانت ساعة الوجبة اليومية -ولحسن طالع صاحبنا أن ذلك اليوم هو يوم الأربعاء حيث وجبة قطعة الدجاج المقلي المقرمش- أدخلوا له ذلك الصحن مستريحة عليه تلك القطعة من الدجاج المقلي والمقرمش..

وقد ظن الحراس بأن المعتقل سيرفض تلك الوجبة نتيجة للحالة النفسية، وأنها ساعات مؤلمة..

ومتى ما أرهقت الروح فإن شهية الطعام تبقى تحت رحمة الحالة النفسية، إلا أن صاحبنا لم يبدُ عليه أي تغيّر!

ولا تعلوه أي علامة من علامات الهزيمة النفسية!

فما كان منه إلا أن قام بالتهام قطعة الدجاج بلا رحمة !!

وعندما جاء الحارس ليتأكد من الوضع النفسي طلب منه صاحبنا قطعة إضافية من الدجاج، وذلك على خلاف القانون؛ حيث إن لكل معتقل قطعة واحدة فقط لا شريك لها! ولكن رفقًا بالحالة الخاصة لصاحبنا أعطوه القطعة الإضافية فقام بأكلها دون أن يبقي ويذر!

سألوه هل تحتاج لقطعة أخرى؟ أجابهم : نعم، لا مانع من ذلك..

فقام بالقضاء على القطعة الثالثة، وعندما طلب القطعة الرابعة لم يصدق الحراس الأمر، فشكوّا أن أحدًا ما يرافق صاحبنا في الزنزانة، فقاموا بفتح الزنزانة للتأكد من خلوها من شخص آخر

مع صاحبنا فتفاجئوا بعدم وجود شخص آخر مع صاحبنا صاحب قطع الدجاج الثلاث!

حقًا حرب نفسية ناجحة!!

الحليب بالبهارات!

في منتصف شهر أكتوبر -مع انصراف فصل الصيف ودخولنا في فصل جديد- اجتاح سجن جو فيروس -الأنفلونزا-، وأخذت العدوى تنتشر يومًا بعد يوم، وصار الإخوة يتساقطون واحدًا تلو الآخر من شدة الإعياء، فلا تمر ليلة بدون أن ينقل أحدهم إلى العيادة، وبدأت الأنفلونزا تطوف بجميع الزنزانات والشباب طريحو الفراش، والعنبر ساكن كسكون الموتى مراعاة لظروف المرضى، وقد تبرع أحدهم بالاهتمام والعناية بالمرضى، وكان علاجه يتمثل بوضع الكمادات الباردة على الرأس ومسح الجسم بمادة -الفكس-، ثم إلزام المريض بالاغتسال بماء الثلج، فعلمت أن العدوى قادمة لا محالة..

وكلما سقط أحدهم مريضا ذهب المتطوع بالعلاج مع طاقمه العلاجي للمصاب الجديد لأخذه لحمام الثلج!

فالأجواء موبوءة والفيروس يتراقص في الزنزانات..

ومما يزيد الأمر سوءاً هو سوء التغذية ، فالجسم المصاب بحاجة لمزيد من العناية للتغذية السليمة ولمجموعة من الفيتامينات الضرورية لمقاومة المرض، وبسبب انعدام هذه الرعاية فإن المرض يزداد فتكًا بالمريض، وجهاز المناعة لا يقوى على مقارعة جيش الاحتلال - الأنفلونزا - !

ومع مرور الوقت وإذا بي أجدني أعاني من الأعراض نفسها..

ارتفاع في معدل درجة حرارة الجسم، واحتقان في الحلق مع صعوبة البلع، وسعال جاف أشعر من خلاله بتمزق الصدر، مع الشعور بالإجهاد والإعياء وعدم القدرة على الحركة نتيجة فقدان شهية الأكل !

رفعتُ رأسي للسماء وقلت: " اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، لا رب لي سواك، أنت رب المستضعفين فأغث يا غياث المستغيثين ".

اشتد بي المرض وغلب علي الوجع وعجزت عن الحركة والكلام، وبدأتُ لا أقوى على تحريك جسمي، وبذلك تخلفتُ عن إمامة الجماعة، وقد تردد المتطوع بالعلاج في بداية الأمر لعرض خدماته العلاجية، ولكن بسبب تعطل صلاة الجماعة وبعض

الدروس الدينية اضطر لإلزامي بقبول خدماته العلاجية..

دخل الزنزانة وأنا نائم في الطبقة العلوية من السرير..

أحاط بي طاقمه العلاجي وهم يتفقدون وضعي الصحي فوجدوني أرجف من شدّة المرض..

فقام كبيرهم بمسح رأسي وجبهتي بمادة - الفكس -، والآخرون بمسح يدَيَّ ورجلَيَّ، ثم قال لي: الثلج جاهز..

وبلهجة آمرة قال لي: لا مفر من الاغتسال بماء الثلج..

اكتفيتُ بالابتسامة دون أن أرد عليه؛ لأن نتيجة الامتناع عن الامتثال لأمره تكليف طاقمه العلاجي بأخذي لحمام الثلج بالقوة، وأنا لا أقوى على النهوض والكلام، فكيف سأدافع عن نفسي؟!

وعلى مضض وكراهية من حمام الثلج نزلتُ من السرير وأنا أرتجف من شدة المرض، وعندما وصلتُ لحمام الثلج كان سطل الماء جاهزاً وبه قالب كبير من الثلج، أدخلوني إلى حمام السباحة وأغلقوا الباب من ورائهم وأنا أسمع صراخ الآخرين في الحمامات المجاورة مع انسكاب ماء الثلج على ظهورهم..

ومن يمتنع عن الاستحمام يدخلونه بالقوة ويجلسونه على

كرسي ويسكبون على رأسه الماء المثلج..

سلمتُ أمري للواحد الأحد ورفعت السطل وسكبت الماء على رأسي بدفعة واحدة بدون حاجة للتقسيط، وبذلك خرجت قبل الجميع..

رجعتُ إلى الزنزانة وأنا أشعر ببرد شديد..

استقبلني في الزنزانة السيد إبراهيم العلوي بنوع آخر من القرارات الملزمة اذ ألزمني بالجلوس، وصنع لي كوبًا من الحليب وقد مزجه بملعقة من النسكافة بعد أن أضاف إليه جميع بهارات العالم، ابتداءاً بالزنجبيل ومرورا بالدارسين والقرفة وانتهاءاً بالفلفل الأبيض!!

وقد ألزمني بشرابه لأنه مضاد للبكتريا على حد قوله!

الزيارة

الزيارات هي أكثر ما ينتظره السجين خلف الأسوار، حيث الاستعداد النفسي لمقابلة وملاقاة الأهل، وفي أحايين كثيرة تنقلب فرحة السجين إلى غصة وألم، وذلك عندما يتفاجأ بغياب أحد أقاربه عن الزيارة لتأتيه الصاعقة بأن الشخص الغائب انتقل إلى رحمة الله!

يا له من منظر كئيب وحزين عندما يعود السجين من زيارة أهله وهو لا يتمالك نفسه من شدة الحزن والبكاء لفقد والدته العزيزة..

ومما يزيده ألمًا على ألمه أن والدته كانت ترغب في لقياه قبل وفاتها إلا أن الأجل لم يحترم رغبتها، حيث إن الموت لا يحترم الصغير أو الكبير، فهو يخطف الحبيب بلا استئذان!

وفي أحايين أخرى تكون الأخبار المحبطة للآمال -أو

أخبار معاناة عائلة السجين النفسية أو المالية- سببًا لتصاعد الغم والكآبة، فجميع الهموم والمتاعب النفسية التي يجلبها السجين معه عبر الزيارة تنعكس سلبًا على معنويات السجين، وخاصة إذا ما استسلم للحزن والقلق وصار أسيرًا للوسوسة الشيطانية..

لذلك فإن السجين يستمد قوته ومعنوياته من وجوه زائريه، فمتى ما وجد التعب والانهيار النفسي على وجوه زائريه سينعكس ذلك التعب والانهيار النفسي على السجين، وسيكون مصدر قلقه وضيق صدره، وأكثر ما يكسر السجين بكاء الزوجة، فبكاء الأخت أو بكاء الزوجة كفيل بنشر فيروس الكآبة في صدر السجين، ومتى ما قرأ القوة ورباطة الجأش في وجوه زائريه سيعطيه دفعة قوية للصمود والجلد مما سيزيده عزمًا وإصرارًا.

ما أحلى أن يسمع السجين كلمات التثبيت من والدته، ومن أجمل ما وجدته وشاهدته في زيارات المساجين تعدد اللهجات بين المساجين وقت الزيارة! فإدارة السجن توصي بشدة قبل بدء الزيارة بمنع تداول أخبار السجن، كما تمنع الأهل بمنع الخوض في الأمور السياسية، والمقدار المسموح به في المقابلة تناول الشأن العائلي وتحسين صورة السجن، وفي أحيان كثيرة أمازح أهلي وأقول لهم: لا أريد الخروج من السجن لأني مرتاح

في السجن أكثر من ارتياحي في البيت!!

ونحن نقدر هذا الكرم الكبير من إدارة السجن، والذي يعكس حرصها على عدم تلوث أسماعنا بأخبار الوضع السياسي حرصًا على معنوياتنا النفسية! وتقوم إدارة السجن بتكليف أحد السجانين بالجلوس مع عائلة السجين أثناء الزيارة للتأكد من تطبيق تعليمات إدارة السجن، ولكني أرفق كثيرًا بالسجانين لحيرتهم في اللهجات المحلية !

لا أحد من السجانين يتمكن من معرفة كلامهم..

وربما داخل السجان الشك بأنهم يتكلمون برموز وشفرات خاصة فيقوم بطلب المساعدة من بقية الجلادين بشتّى جنسياتهم المختلفة العربية وغير العربية..

وأحد كان لا يفلح في فك هذه الكلمات الصعبة التي لا نفهمها نحن أصلاً!

استدعاء المخابرات

أتذكر تمامًا ذلك التاريخ وتلك الساعة، وبالتحديد في شهر مارس لعام ٢٠٠٠ م، وعندما كنت في حمام الاستحمام قام الشيخ حسين الديهي بطرق الباب طرقات سريعة طالبًا مني سرعة الخروج لأمر طارئ..

ومع خروجي أخبرني بأن مخابرات أمن الدولة ستصل بعد نصف ساعة لاستلامنا، يشار بالذكر أن القائمة المطلوبة شملت من سجن جو الأستاذ المشيمع والشيخ حسن سلطان والسيد إبراهيم العلوي والشيخ محمد الرياش والشيخ حسين الديهي بالإضافة لاسمي..

ومن سجن المنامة الأستاذ عبد الوهاب حسين..

وبحلول الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين عصرًا وصلتْ دورية المخابرات وبرفقتها حافلة صغيرة..

ورسموا القيود الحديدية بمعاصمنا وأصعدونا في الحافلة وبرفقتنا أربعة من شرطة الحراسة..

أوصلونا للقلعة بالمنامة ثم فرقونا في زنازين اللجنة الأمنية ، وقد كانت خالية في حينها، وطلبوا منا التريث والانتظار..

بعد الانتهاء من صلاة العشاءين وصلت حافلة المخابرات وطلب منا عنصر مباحث أمن الدولة الصعود في الحافلة، وعند سجن المنامة توقفت الحافلة، ونزل عنصر المباحث ولم يعد إلا والأستاذ عبد الوهاب حسين برفقته..

تعانقنا مع الأستاذ عبد الوهاب وتبادلنا معه الرأي بصورة سريعة..

أوصلتنا الحافلة لمبنى المخابرات وتم تفريقنا على مكاتب التحقيق بشكل أحادي، وبحلول الساعة الثامنة مساءً بدأ استدعاؤنا عبر التصويت على أسمائنا بشكل أحادي أيضا.

أحدٌ لا يعرف ما الذي يجري لصاحبه الآخر؛ إذ أن الإجراءات الأمنية مشددة والتعليمات قد صدرت من المباحث بعدم السماح لنا بالالتقاء مع بعضنا البعض.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً عندما تم التصويت

على اسمي، أدخلوني إلى مكتب لم أعهده من قبل، كان به ثلاثة ضباط من مخابرات أمن الدولة يتصدرهم العقيد عادل فليفل، وعرفت فيما بعد بأنها ما تعرف بلجنة التقييم..

أشار لي فليفل بالجلوس، فتح الدرج العلوي من خزانة الحديد الجانبية وأخرج منه أحد الملفات المستريحة به، وعرفت أنه الملف الخاص بي والذي رافقني و سيرافقني طوال حياتي..

صار يتصفح ذلك الملف ويدقق في قراءة التقارير التي دونتها مباحث أمن الدولة، أغلق ذلك الملف السميك ثم نظر في وجهي قائلاً: سنعطيك الفرصة الأخيرة للإفراج مقابل التخلي عن نشاطاتك السياسية وخطاباتك التحريضية وإمامة الجماعة!

وقبل أن أبادر بالحديث أردف قائلا: لا تتصور أننا نساومك، فأنت بين خيارين لا ثالث لهما، ما رأيك؟

فقلت له: أرجعوني للسجن، فقال: أمامك فرصة ذهبية لن تتكرر عليك بالتفكير في زوجتك وأبنائك أو تختار لنفسك الخلود في السجن بنفس المدة السابقة التي قضيتها، أي ما يوازي خمس سنوات جديدة، فكان جوابي الصمت بدون أن أرد عليه بأي كلمة، وبحلول الثانية عشر ليلاً انتهت الجولة مع الجميع..

أرجعونا لمقبرة الأحياء بسجن جو المركزي، وبرجعونا كان الإخوة الذين معنا بالجناح يعيشون حالة الترقب والهواجس والمخاوف نتيجة تأخرنا.

وفي الشهر التالي تم استدعاؤنا بنفس الطريقة السابقة، فقد وزعونا في زنازين اللجنة الأمنية ..

بعد صلاة العشاءين دخلتُ على الأستاذ المشيمع في زنزانته وعرضتُ عليه فكرة قبولي بالحد الأدنى من شروط المخابرات مقابل الإفراج في عملية تبادل أدوار، فكانت رؤيتي بعدم بقاء الجميع بداخل السجن على أن من سيخرج يقوم بالدور التكميلي بالتنسيق مع من بالداخل..

تخوف الأستاذ من عملية الإفراج بمقابل الشروط، وبالنسبة لي لم أكن متخوفا لاقتناعنا جميعًا بأن الدولة تريد إنهاء الأزمة بخروجنا، مضافًا لأني سأقبل بالحد الأدنى من تلك الشروط..

ترك الأستاذ المشيمع لي حرية اختيار القرار وجعل التقييم بيدي..

ومع بدء تفريقنا والتصويت على أسمائنا بشكل آحادي

كنت أرتب أفكاري لدراسة الفكرة بشكل جيد، وبدون أن يتسنى لي التعرف على الوقت تم التصويت على اسمي.

أدخلوني لتلك اللجنة وكانت اللهجة مختلفة عن سابقتها بعض الشيء، فقد كان الحديث طويلاً بعض الشيء بسبب تبادل الاتهامات حول المسئول الأول عن إشعال فتيل الأزمة، وقد وضعوني بالصورة عن حجم الخسائر بالأرقام وأن البلد رجعت للوراء أكثر من خمسين سنة..

تم هذا الحديث في أجواء هادئة، وفي النهاية تفاجأتُ بحزمة من الإغراءات مقابل خروجي بتلك التعهدات، إذ شملتْ تلك العروض المغرية التوظيف في المحاكم الشرعية أو في أي مجال من الأعمال والوظائف التي أختارها أنا شخصيًا وبما يتناسب ودوري الشرعي..

لم أجد من المناسب طرح تلك الفكرة في تلك الأجواء من العروض والإغراءات! رفضتُ المشروع برمته وتمسكت بحقي بالخطابة وإمامة الجماعة، وطلبتُ منهم محاكمتي على تلك الخطابات السياسية والدينية، وهكذا هو الحال مع بقية المجموعة، يشار إلى أنه لم تكن تلك اللغة وتلك الإغراءات هي المرة اليتيمة والوحيدة، فلها أخوات من العروض والإغراءات خاصة مع بداية

الاعتقال، إلا أني لحظت الجدية بشكل أكبر هذه المرة..

وبفشل المخابرات في إقناع أي فرد من المجموعة بالفكرة أرجعونا إلى سجن جو المركزي.

الورقة الصفراء

تكرّرت عمليات استدعائنا لمبنى المخابرات لعدة مرات متتالية على مدى ستة شهور متواصلة، وفي شهر أغسطس لعام ٢٠٠٠ قمت بطرح فكرة التنازل عن الحديث السياسي مقابل تمسكي بحق إمامة الجماعة والحديث الديني، كان هذا المقترح موضع ترحيب من لجنة التقييم بالمخابرات وبدون تردد وافقوا على هذا المستوى من القبول، وفي حديث صريح ومكشوف ـلدرجة استغرابي من التصريح به- أبلغوني -كما أبلغوا بقية الإخوة- بوجود قرار سياسي بالإفراج عن جميع السجناء ولكن ليس الآن، فالمسألة تحتاج لمرورها على عدة قنوات سياسية وأمنية لحين ساعة التنفيذ..

أبلغتُ الإخوة باتفاقي مع أمن الدولة، وفي خطوة مفاجئة قامت مباحث أمن الدولة بإعطاء الضوء الأخضر لإدارة السجن لتفريق الإخوة في سجون انفرادية بينما تم استثنائي من هذا القرار،

فكنت الشخص الوحيد الذي بقي مع بقية السجناء؛ ولذلك فقد كنت الوحيد الذي يقيم صلاة الجماعة والدروس الدينية.

في هذا الوقت بالتحديد اقترح كبار القوم بالسجن إقامة ندوة سياسية أتحدث فيها عن ظروف استدعائنا لمبنى المخابرات والتحدث بشكل مكشوف عما وراء الأسطر التي لم يتم التطرق إليها، وعن الظرف المفاجئ لتفريق الإخوة في الزنزانات الانفرادية.

أقيمت الندوة السياسية في أسبوع نكبة الطائرة الشهيرة..

استعرضتُ في الندوة لعدة نقاط وختمتها بمفاجأة بأن الفرج قريب، وأن القرار صدر من أعلى سلطة في البلد بالإفراج عن جميع السجناء..

اندهش الجميع من هذا التحليل الغريب، فالإخوة المشائخ في الزنزانات الانفرادية وأنا أتحدث بتفاؤل مفرط و شديد عن إمكانية الانفراج السياسي!

قلت لهم: نعم، وما سياسة تفريق الإخوة في الزنزانات الانفرادية إلا دليل واضح على اقتراب الفرج، وذلك بغية تقديم المزيد من التنازلات حول التخلي عن الحقوق السياسية من أجل إخراجهم ضعفاء، والرهان معقود على صلابتهم وتمسكهم

بموقفهم للأخير، وما هي إلا آخر الأوراق التي تراهن عليها المخابرات للضغط على الإخوة..

في صبيحة الندوة السياسية -التي امتدت لوقت متأخر من الليل- جاءني مسئول النوبة وأخبرني بأني على موعد للنوم في المستشفى العسكري لإجراء عملية إزالة اللحمية الزائدة، ومع ظهيرة ذلك اليوم جاء الشرطي المسئول وقام بإجراءات نقلي إلى المستشفى العسكري، شعرت بأن الغرفة التي أفردوها لي بالمستشفى كانت أسوأ حالاً من الزنازين الانفرادية!

أربعة من الحراس يقفون على باب الغرفة وثرثرتهم الزائدة تمنع المريض من الراحة، وتعليمات مشددة للأطباء والممرضين بعدم الحديث مع السجين المريض، وفي أحيان كثيرة يقوم الشرطي الحارس بدور الممرضة..

وفي المساء -وكالعادة- أبلغوني بالامتناع عن تناول الطعام والشراب استعدادًا للعملية الجراحية في صبيحة اليوم التالي..

وعند التاسعة مساءً ألزموني بتناول قرصين من الأقراص المخدرة لضمان عدم السهر، وفي صبيحة يوم العملية -ومنذ الساعات الأولى- أفقتُ على شرطة الحراسة وهم يسلموني الملابس الخضراء الخاصة بالعمليات الجراحية، كما أخبروني بأن

التعليمات الصادرة من مخابرات أمن الدولة بأن يتم تزر يقي إبرة التخدير في نفس الغرفة قبل نقلي لغرفة العمليات، وبالتالي فقد نقلوني لغرفة العمليات وأنا غائب عن الوعي..

استفقتُ وأنا على نفس سرير الغرفة ومباحث أمن الدولة محيطون برأسي..

كنت أشعر بدوار شديد نتيجة التخدير، سألت أحدهم متى سيجرون العملية الجراحية؟ فأجابني بابتسامة ساخرة: لقد انتهت العملية الجراحية بسلام..

طلب مني الاعتدال في الجلسة، وبصعوبة بالغة طلبتُ من شرطة الحراسة رفع مستوى مسند السرير للتمكن من الجلوس.

قام ضابط مباحث أمن الدولة بوضع الورقة الصفراء في حجري وطلب مني التوقيع عليها..

رفعتها بيدين مرتعشتين وأنا أنظر إليها بعينين غائرتين، وإذا بها ورقة التوقيع على بعض التعهدات في مقابل الإفراج، والتي من بينها عدم الدعوة لمسيرات أو اعتصامات سياسية أو عصيان مدني، كما أن أهمها عدم التحريض لكراهية نظام الحكم، وعدم الدخول في تنظيمات سياسية محظورة، والعديد من البنود الشكلية.

دموع الفرح

بإرجاعي إلى السجن تفاجأتُ بأن مخابرات أمن الدولة قامت بالإفراج عن دفعة من السجناء، وبات في حكم شبه المؤكد أن إطلاق سراحي بات وشيكًا.

وفي الأسبوع الثاني - وفي أولى ساعات الصباح الباكر- قام مسئول النوبة باستدعائي، أخبرني أن رجال الأمن سيقومون بجلب أمتعتي من الزنزانة تحت دعوى نقلي إلى سجن المنامة.

أبديت استيائي من هذه الطريقة من المعاملة فقال: إنها تعليمات المخابرات وباستطاعتك محاورتهم..

لم يكن باستطاعتي العودة للجناح لوداع السجناء إذ التعليمات الصادرة منعتني من العودة..

ومع وصولنا لسجن المنامة أودعوني بإحدى غرف الإدارة للانتظار، في هذه الأثناء علمت بأن أم سجاد موجودة بإدارة

السجن وقد جاءت دون معرفة بقرار الإفراج!!

وكان مجيئها لإيصال بعض المجلات والكتب الدينية وما طلبته من حاجيات خاصة بي..

استغرب الضابط الإداري من هذه المصادفة فقام باستدعاء أم سجاد وسألها عن سبب مجيئها بالتحديد في هذا الوقت ، لم تفطن أم سجاد لمغزى سؤاله فكانت المفاجأة أن قال لها: ما رأيك أن أعطيك زوجك الآن لتأخذيه إلى البيت؟!

كانت مفاجأة غير متوقعة، وبالتالي لم تأبه لكلامه اعتقادًا منها بأنها محاولة للنيل من أعصابها، إلا أن الضابط الإداري أخبرها بوجودي في هذه الساعة بمكاتب الإدارة لصدور قرار الإفراج عني صباح هذا اليوم..

طلب منها التريث في غرفة الانتظار، وطلب من عنصر الأمن نقل أمتعتي لأم سجاد ليطمئن قلبها..

كانت أم سجاد قد علمتْ قبلي بقرار الإفراج بصورة رسمية..

في هذه الأثناء -وبعد خروج أم سجاد من غرفة الضابط الإداري- استدعاني الضابط الإداري أيضا وسألني ممازحًا: كيف

اتفقت مع زوجتك على الموعد؟

استغربتُ من سؤاله ولم أعرف عن أي موعد يتكلّم!

فقال: إن أم سجاد موجودة الآن في الغرفة المجاورة وقد أخبرناها رسميًا بقرار المخابرات بالإفراج عنك في هذا اليوم، وستكون زوجتك هي من يستلمك ولا حاجة للاتصال بأهلك.

طلبتُ منه رؤية أم سجاد فقال: أنت لا زلت في حكم السجين، وهناك إجراءات شكلية لم تنتهِ بعد..

وما هي تلك الإجراءات؟ سألت الضابط الإداري..

فقال: سيأتيك الآن ضابط مباحث أمن الدولة وسيلتقي بك ويتحدث معك، وهو المخول بإطلاق سراحك..

بقيتُ أنتظر مجيء ضابط مباحث أمن الدولة لساعة كاملة..

وعند الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين صباحًا تقريبًا وصل ضابط مخابرات أمن الدولة، وهو من زارني بالمستشفى وطلب مني التوقيع على ورقة التعهدات.

تحدث معي نصف الساعة تقريبًا وراح يثني فيها على

الملك الجديد والعهد الجديد، وأن الملك له طموحات شابة وعلى الجميع التجاوب مع تلك الطموحات، محذرًا بأني سأكون تحت الرقابة الأمنية لعدة أشهر، ومتى ما قمت بالإخلال بتلك التعهدات فإن مكاني بالسجن محفوظ!

رفعت نظري عنه وبعثرته على أشياء أخرى بالمكتب !!

وبنهاية حديثه أعطى تعليماته لإدارة السجن بإخلاء سبيلي.

قام الضابط الإداري بإيصالي لأم سجاد بنفسه قائلاً لأم سجاد: خذي زوجك ولا نريد رؤيته هنا ثانية !!

كانت مفاجأة من أجمل المفاجآت..

عانقت زوجتي وابنتي ضحى ذات السنوات الخمس في آن واحد بعاطفة ملتهبة، قبلّتُ يد أم سجاد شكرًا وعرفانًا لتلك الوقفة النبيلة ولتلك المساندة المشرفة لي في محنة السجن متحدية مخاطر المجازفات، والتي لولاها ما استطعت الصمود تلك الفترة العصيبة !

كان الضابط الإداري يراقب مفاجأة وحرارة اللقاء المرتقب، وقد أمر عناصر الأمن بمساعدتنا لنقل الأمتعة والحقائب.

بهذا التاريخ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٠م تحديدا كُتب لرحلة

القضبان أن تنتهي..

وهكذا فقد أطلق سراحي بجرة قلم كما كان اعتقالي بجرة قلم أيضاً ..

ذكريات لن تستطع نعم الدنيا ومتاعها أن تمحيها من ذاكرتي الى يوم القيامة ..

أوصلونا لموقع موقف السيارة ثم ودعونا !

قلت لأم سجاد: أترين تلك الطيبة الزائدة؟! إنهم يتحركون وفق الأوامر، فلو جاءتهم الأوامر في هذه اللحظة بتكبيلنا وضربنا ستجديهم ذئابًا ضارية لا تعرف الرحمة لدرجة كأن الله نزع الإنسانية من قلوبهم، إنهم يعملون على - الرموت كنترول - !

كانت أم سجاد لشدة فرحتها قد طلبتْ مني سياقة السيارة لتكون هي من يوصلني للعائلة..

أجلستُ في حجري ضحى وهي تبادلني النظرات باستغراب..

شعرتُ بأن غيابي الذي زاد على خمس سنوات وتسعة أشهر قد غيّر الكثير بالنسبة لي، أحسست بأن المنطقة قد تغيرت..

وبوقوف السيارة عند بيت عمي خرجتْ عمتي حافية القدمين، وهي التي طالما كانت تغطي وجهها عني احتضنتني للمرة الأولى في حياتي وهي تجهش بالبكاء، وأبناء عمي خرجوا أيضًا حفاة، وبدون أن أعرفهم بوجوههم انهال الجميع بالتقبيل والعناق..

وأنا أقبلّهم بشوق وأعانقهم بحرارة وأنظر في وجوههم..

ما يقرب من ست سنوات تغيرت فيها الكثير من ملامح الوجوه، ومن كان صغيرًا لم أستطع تمييزه الآن.

كانت الدنيا تستقبلني وتفتح لي ذراعيها ، كنت أشتاق لكل شيء بالحياة ، وكل شيء كأنني به اشتاق لي ، وتراقص ترحيبًا بعودتي ، أحسست أن العصافير حينها تصفق بأجنحتها الصغيرة ترحيبا وتهليلاً ، عدتُ كمن عاد إلى جسده..

وأما والدتي فلم تقو على شدة الصدمة فمذ علمت بوصولي وهي بين مصدقة ومكذبة للخبر انبجست الدموع من محجريها بدون توقف ومرة تقوم وأخرى تقع على الأرض من هول المفاجأة ..

الرسالة المتأخّرة

بخروجي من السجن أدركتُ معنى الحرية، وأدركت معنى أن يكتب للإنسان حياة ثانية..

بقيتُ لفترة وأنا أتساءل في نفسي: هل خرجتُ من السجن حقًا؟!

وهل بإمكاني الخروج إلى الشارع لحظة ما أشاء وبدون الحاجة لقرع الباب أو مناداة السجان؟! مع علمي بأني لا أزال أعيش أوهام السجن إلا أني أتعمد أحيانًا قبل مغادرة الغرفة المناداة بأسماء السجانين!

فكم من الليالي استيقظتُ فيها وأنا أحلم بالسجن والسجان!

وكنت أحاول تبديد مخاوفي بتفحص محتويات الغرفة وتفقد زوجتي التي بجانبي للتأكد بأني لا أعيش أحلام اليقظة،

وأني فعلا خرجت من رحم السجون إلى فضاء الحرية..

لا زلت وأنا أكتب هذه السطور أتذكر جيدا تلك الليالي التي كنت أستيقظ فيها على كوابيس مفزعة أرى فيها أبنائي وهم يبكون!

وفي كوابيس أخرى كنت أرى زوجتي قد أصابها مكروه وهي تشتكي الحال!

واستحضر بمرارة حياة التشرد التي عاشتها زوجتي مع أبنائي..

مهما تعاليتُ على الجراحات النازفة سأظل عاجزاً عن التعالي على إنسانيتي فإني لا أزال بشرًا يحمل بين جوانحه من المشاعر والأحاسيس الكثيرة !

ومن الطبيعي أن يؤرقني التفكير في مصير أبنائي وعائلتي..

ولتخطي تلك المرحلة المأساوية وأنا بالسجن طالما حاولت أن أنسى الدنيا بمن فيها خارج تلك الأسوار والقضبان الحديدية، وغالبا ما أردد وداعًا يا دنيا، هذا هو عالمي الجديد، هذا هو قدري الجديد، إنه عـالم الكهوف وظلمات الســجن، حقًا إنها

مقبرة الأحياء، وشماتة الأعداء، وبيت الأحزان..

بعد استرجاع كل تلك الخواطر والعذابات، وبعد الاستماع لعذابات زوجتي، أدركتُ بأن تجربة السجن لم تعد تجربتي لوحدي، بل كانت تجربة زوجتي أيضًا لاشتراكها في العذابات والمحن من زاوية أخرى..

وبمقدار محنة مرارة العزلة وألم الفراق اللذان عشتهما فترة الاعتقال فقد عاشت زوجتي محنة التشرد بحثًا عن السكن وذلك بعد اعتذار إحدى المؤسسات الخيرية بالمنطقة عن الاستمرار في تسديد مبلغ القسط الشهري للإسكان .

كما عانت زوجتي محنة البحث عن العمل لتلبية احتياجات الأبناء..

لأكثر من أسبوع وأنا أستمع لها وهي تستمع لي، حتى شعرنا بأن عذاباتنا واحدة، وتعاليًا على كل سنوات الحرمان والقهر فإني أجد السعادة الكبرى في توثيق تلك المرحلة القاسية بمنتهى الفرح والانتشاء، فقد أشعرتني تلك الأحداث والذكريات بقدرتنا الروحية على التصدي والمواجهة، وتعويضًا لأبنائي عن تلك السنوات التي تجرعوا من كاساتها فقد كنت أنام معهم على فراشهم.

كنت أسرد لهم عن بطولات المعتقل، وكنت أحكي لهم عن مدرسة السجن والصمود والثبات..

استهوتهم تلك القصص والوقائع والمواقف الطريفة التي لم تخلُ من الضحك.

كنت أشعر بسعادة كبيرة وأنا أضم أبنائي لصدري من دون أن ينتزعهما السجان مني! حتى يخيل لي بأني أسعد أهل الأرض طرًا، وأني ما ذقت قبل الساعة مرارة العيش وويلات السجون واحتكاك القيود الحديدية بمعصمي..

كنت أردد دائما: يا لها من ساعة يحلو فيها الموت!

فقد انقضى إحساس العذابات والألم ..

أخذتُ أبنائي وزوجتي في جولة على محطات السجون التي قبعت بها ، لا سيما معتقل الحد..

ومن أجمل تلك الساعات التي قضيتها مع زوجتي تلك الساعة التي أخبروني فيها عن وصول رسالتي من السجن، فقد كتبتها قبل الإفراج بأسبوعين تقريبًا، وقد وصلت لزوجتي على البريد..

خرجت مع زوجتي وأبنائي في نزهة خلوية، وقد تركت

العنان للأولاد يسرحون ويمرحون في الألعاب بينما انتحيت مع زوجتي مكانًا قصيًا، وقمت بفتح الرسالة وقراءتها..

- أميرة قلبي، وتوأم روحي -، بهذه الكلمات قرأت افتتاحية الرسالة، شعرتُ بسعادة كبيرة وأنا أقرأ تلك الرسالة التي خطتها يدي وأنا بأحشاء السجن، وفي الليلة ذاتها أبديت إعجابي بها وبمدى حسن حكمتها في تدبير شؤون البيت فترة غيابي، وكيف استطاعت بذلك الراتب البسيط أن تقوم بما عجزت عنه الرجال، كيف استطاعت ضبط احتياجات الأبناء بالإضافة لاحتياجات السجن الشهرية؛ لذلك قررت أن أعطيها شهادة حسن تدبير، وذلك عبر الاقتراح التالي: اقترحت عليها استلام المخصص الشهري الذي سيصلني من الحوزة لتقوم هي بإدارة الجانب المالي على أني غير مطالب بأية التزامات مادية أخرى، وبذلك أخلي كامل مسؤولياتي عن أي نقص أو قصور في الموارد المالية.

اتفقنا على هذا المبدأ مع أول راتب استلمه من الحوزة..

ومن جانبي فقد اصطحبت ابني سجاد معي في جولة على المجالس العلمائية لشرح الوضع المعيشي الذي أمر به ، خاصة بعد خروجي من السجن..

ذهبت لأحد كبار العلماء الذي أعرف بأنه يمتلك الكثير

من الحقوق الشرعية..

تفاجأ بزيارتي، لم يكن يعرف بخبر الإفراج عني، تكلمت معه بإسهاب عن معاناة السجناء وعن مدى حاجة العوائل في هذه الفترة العصيبة، وبصعوبة بالغة استطعت مصارحته ـ خاصة وأن سجاد معي ـ حول وضعي المادي، وأني أعيش على راتب زوجتي البسيط، فهل يعقل أن أكون جالسا بالبيت وزوجتي تخرج للعمل وأنا أعيش مع أبنائي على راتب زوجتي؟!

إلا أني شعرتُ بأني ربما تسببت بالإحراج الشديد له، فقد غفلت بأنه لا يحب التعامل مع القضايا السياسية، وبذلك ربما أجلب له بعض المتاعب، وجدت منه كل الدعم والمؤازرة، ولكن على صعيد الدعاء والدعم النفسي فقط وفقط!!

خرجت وأنا أردد المثل العربي: على من تقرأ زبورك يا داود!

إنها مأساة تفوق مآسي السجن بسنواته العجاف!! ولا مزيد!

عيون المخبرين

وفاءاً للإخوة الذين عشت معهم ظلمات السجن ومحنة العزلة والانقطاع عن العالم الخارجي فقد بدأتُ بمراسلتهم وشكرهم على الأيام الجميلة!! لم يخلُ أسبوع من الكتابة إليهم، كنت أبعث لهم بأخبار عوائلهم، كما قمت بالاهتمام بأبنائهم عبر زياراتهم والخروج معهم، كنت أدرك أهمية التواصل مع السجناء للتخفيف عليهم من وحشة السجن وظلماته، وأدرك قيمة تلك الرسالة التي ستصلهم وتربطهم بالعالم الخارجي عبر قراءتهم للأخبار السارة، كم سيفرح السجين عندما أخبره بأني خرجتُ مع أبنائك ـ للكورنيش ـ، أو عندما أخبره بأن أم سجاد دعتْ عائلتك لوجبة عشاء، أخبار اجتماعية في غاية البساطة إلا أنها تربط السجين بعالمه الخارجي، كما أني كنت دائم التواصل مع الشيخ الجمري وهو في حصاره، فكنت أكتب له باستمرار عبر وسيط من أقاربه، وبدورها تقوم أم جميل – زوجة الشيخ – بتسليم أم سجاد

رسائل الشيخ الجمري لإيصالها لي.

وذات صباح استلمت مكالمة هاتفية من ضابط مباحث أمن الدولة -وهو بعينه الذي أعطاني الإنذارات وتعهدات ما قبل الإفراج ـ وقد طلب مني ضرورة الحضور لمبنى المخابرات بدون إعطاء أية إيضاحات قائلاً: أبو حسن بانتظارك في مكتبه -في إشارة للعقيد عادل فليفل-، توجهت لمبنى المخابرات، وبدون مقدمات أدخلوني على مكتب العقيد وبصورة مباشرة بدأ بلغة التهديد قائلاً: نحن نعرف عن كل خطواتك وتحركاتك، وعلى علم بما تقوم به، ثم سألني: هل تعرف لماذا أحضرناك إلى هنا؟ قلت له: لا، فقال: لأنك مجرم! ثم قال: هل من الممكن أن توضح لنا ما هي المهمة التي ذكرتها في رسالتك للشيخ الجمري التي ستقوم بها كوسيط بينه وبين ابنه الدكتور في لندن؟ آخر ما كنت أتوقعه أن يكون على علم بفحوى الرسالة الأخيرة التي بعثتها للشيخ ! وكيف وصلتْ فحوى الرسالة لعناصر مباحث أمن الدولة ؟!! إلا أني كنت مطمئنًا بأنهم لا يمتلكون تلك الرسالة وإلا لما ترددوا في صفعها بوجهي المقدس .

حاولتُ تبرير الموقف بأنها مبادرة لتوحيد معارضة الداخل والخارج وهي فكرة تخدم الوطن، إلا أنه اعتبرها وسيلة

غير شرعية وغير قانونية وتستحق العقوبة؛ إذ أن المبادرات يجب أن تعرض على مخابرات أمن الدولة أولاً وإلا اعتبرت خيانة كبرى!

في نهاية المطاف ألزموني بكتابة محضر يثبت تورطي بمراسلة الشيخ بطريقة غير قانونية على أن أقوم بالتعهد بعدم تكرار تلك المحاولات، استوعبت الفكرة تمامًا وأيقنت بأن عائلة الشيخ مخترقة! وأن هناك من يدعي الاطمئنان على أوضاع الشيخ بقصد رصد جميع التحركات التي يقوم بها الشيخ حتى من داخل منزله، وبانقضاء شهرين كاملين على إطلاق سراحي قامت مخابرات أمن الدولة بإطلاق سراح الشيخ حسين الديهي ، فقمت بزيارته لتهنئته على السلامة وللاطمئنان على أوضاعه، وصرتُ أتبادل معه الزيارات واللقاءات والخروج معه لبعض المشاوير، تفاجأت بأن مخابرات أمن الدولة تلاحقنا بسياراتها، وبمرور الوقت تيقنت بأن دوريتين تابعتين لمباحث أمن الدولة كانت تقوم بمتابعتي! صرت أشكل حرجًا كبيرا لمن أقوم بزيارته أو الالتقاء به؛ لأن تقارير المخبرين سترفع أسماءهم إلى الجهات المعنية، وفي خطوة للتشويش على عناصر أمن الدولة قمت بإعطاء سيارتي لأحد أفراد العائلة في مبادلة مع سيارته بصورة مؤقتة، فكانت مباحث أمن الدولة تتبع ذلك الفرد الذي يقود سيارتي بدون أن تميز من بداخل

السيارة؛ لأنها تقف على بعد ٢٠٠ متر من موقف السيارة تقريبًا، وســـرعان ما تعود الدوريـــات لرقابتي بعد اكتشاف الأمر.

وذات مساء قررتُ عدم قيادة السيارة والاستعانة بابن عمي للركوب معه في سيارته، فوجدت عناصر المباحث قد تبعتْ سيارة ابن عمي حتى بعد انتهاء المشوار وعودتي للشقة، وقد عرفتُ بأن المباحث قد انقسموا إلى قسمين، قسم لمراقبتي وقسم آخر لمراقبة ابن عمي، وفي ذات ضحى كنت ناويًا الخروج في مشوار مع زوجتي وعيون المخابرات كعادتها تلاحقني، وبوصولي لدوار الخميس الصغير كنت قد هدأت من سرعة السيارة، وفي الغالب تترك سيارات أمن الدولة مسافة تفصل بيني وبينها، وبوصولي للإشارة الضوئية الواقعة على تقاطع مدرسة الخميس تعمدت زيادة سرعة السيارة بأقصى ما يمكن مما يسمح لي بتجاوز الإشارة الصفراء اللون، حاولتْ دوريات المخابرات عبثًا قطع الإشارة الحمراء إلا أنها تعرضت لحادث تصادم بثلاث سيارات دفعة واحدة.

بعد حادثة التصادم انقطعت الدوريات عن ملاحقتي، وبعد مرور شهر كامل على إطلاق سراح الشيخ حسين الديهي وبالربع الأول للعام ٢٠٠١م جاء قرار العفو عن جميع السجناء السياسيين

ورفع الحصار عن الشيخ الجمري والسماح للمنفيين والمهجرين بالعودة للوطن .

خرجتْ البحرين عن بكرة أبيها رجالاً ونساءً في استقبال أبطالها وأسراها ، والموقف لا يختصر بكلمات بسيطة فالنصر نصرٌ وانتصارٌ إلهي لشعب كابد الآلام بأكمله انتصار المعذبين والمحرومين وثمر دماء طاهرة أريقت وشرب منها عطش التراب وروتها دموع الثكالى .

الفهرس

إهداء.. .... ١
تقريظ الأخ ماهر عباس... ٣
مقدمة الكاتبة الكويتية ٥
السكّيتي!.. ٩
المرحلة الإعداديّة ١٣
شهادة سوابق سياسيّة... ٢٩
كسب رضا الأمهات ٣٣
المقابلة ٣٩
الأسبوع الوردي ٤٥
ضدّ مجهول ٤٩
الماراثون ٥٥
السبت الأسود ٦١
مقتل الإسكافي ٦٧

وطُرِقَت الباب ٧١
الضغط النفسي ٧٥
صفقة المشيمع مع الحكومة.. ٨٥
استدعاء مكتب وكيل وزارة الداخلية ٩١
الدموع الخرساء ٩٧
ملائكة الحفظ.. ١٠٥
الحصول على صحيفة ١١١
جريمة حمل القرآن! ١١٥
حالة احتضار.. ١٢١
العناية الإلهيّة.. ١٢٥
سجن المكاتب بالمنامة ١٣٣
الحاجة ١٣٧
الأستاذ عبد الوهاب حسين ١٤٣
وخزات تأنيب الضمير.. ١٤٩
قائمة الأمراض ١٥٣
منظمة الصليب الأحمر.. ١٥٧
شهادة الشيخ النجاس ١٦٣
حملة الاعتقال الاستباقي ١٦٩

الدعاء والدعم النفسي ١٧٣
المراسلة نصف المشاهدة ١٧٧
سماحة الشيخ الجمري ١٨١
الرجوع للزنزانة رقم ٤ .... ١٨٧
ضبط عملية تهريب ١٩٣
الإفادة ١٩٩
البرج والفئران البوليسية ٢٠٧
انتهاء خيوط المسرحية ٢١٥
الترحيل إلى سجن جو المركزي ٢٢٣
عنبر العقوبات ٢٣٣
الإضراب عن الطعام ٢٣٩
المساس بالخط الأحمر ٢٤٣
ثورة السجناء ٢٥١
عملية الهرب ٢٥٥
الإحصاء ٢٥٩
الإضراب عن الزيارات ٢٦٥
استقبال المنتصرين ٢٧٧
ضدّ التفتيش ٢٨١

المانجو يكسر المقاطعة!................................ ٢٨٧
الأذان ممنوع!................................ ٢٨٩
السلام ممنوع!................................ ٢٩٧
قانون أمن الدولة................................ ٣٠١
الحرب النفسية................................ ٣٠٥
الحليب بالبهارات!................................ ٣٠٩
الزيارة................................ ٣١٣
استدعاء المخابرات................................ ٣١٧
الورقة الصفراء................................ ٣٢٣
دموع الفرح................................ ٣٢٧
الرسالة المتأخّرة................................ ٣٣٣
عيون المخبرين................................ ٣٣٩
الفهرس................................ ٣٤٥